زمن الانين

رواية

الطبعة الأولى يناير ٢٠٢٠

الكتاب : زمن الانين

المؤلف : صلاح الأحمدي

تدقيق لغوي : عبد الحميد ابراهيم

تصميم الغلاف : محمد دربالة

رقم إيداع : 19708 - 2020



دار مسار للنشر و التوزيع



01020439639



massar.pub1@gmail.com



ش - حسن خطاب - قسم يوسف بيك
- الزقازيق - الشرقية

صلاح الأحمدي

زمن الانين



إهداء إلى..

معلمي الأول ومثلي الأعلى أبي العزيز..

إلى أمي الكريمة

إلى إخوتي الأحباء

إلى كل أساتذتي وأصدقائي وكل من ساهم في بناء هذا العمل وخروجه إلى النور .

إلى أخي الأكبر واستاذي أ/ محمود حشمت

الفصل الاول

اعتادت الشمس أنْ ترتقي باسمةً كل صباحٍ بين أحضان السحاب ، في حنايا سماءٍ صافيةٍ تتلون بلون المحبة والنقاء والذي يجسده اللون الأزرق الفاتح ، الذي يشع في النفوس الهدوءَ والطمأنينةَ والسرورَ مهما كانت الحالة المزاجية للنفس ، وأفقٌ تلون بلون الرمال والصحراء ، مضيفًا جمالاً طبيعياً إلى المشهد الذي اعتاد التكرار كل يومٍ في أطهر ، وأبهى دول العالم وأراضيها .

ومع افتراش الشمس لسرير الرمال كلَ نهارٍ ، يحين وقت إحلال الشمس بالقمر ؛ ليفترشَ نوره هذه الظلمةَ القاحلة التي تعمُّ المكان ؛ ليهتديَ الناسُ بنور القمر ، ويبدأَ العشاق يومَ حبِّهم بطلة القمر ، فيهيمون بخيالاتهم في وصف محبوباتهم ، والتغزّل بهن .

كان ذلك في ربوع الدولة الإسلامية ، في إحدى حُقَبِ تاريخها المزدهر ، في إحدى حُقَبِ النور والمجد للشرق والاسلام والمسلمين ، في هذه الحقبة وفي ظلِّ التقدم الإسلامي الذى لم تشهد الامم تقدماً مثله من قبل ، في هذا الوقت حيث كان العرب أشهر

ما يمكن أنْ يكونَ من حيث الالتزام بقواعد الدين الاسلامي ، أبهى ما يكونُ تمسكاً باللغةِ العربيةِ الأصيلةِ ، في هذا العصر كان العكس .. قبيلةٌ اسمُها « بنى حَمَدْ « ، وكانتْ هذه القبيلة تتَّسمُ بالثراء والتُّقى ، وكان فرسانها يتميزون بالبسالة الهائلة في الحرب والقتال ، فكانوا يقاتلون كأنَّهم عصبةٌ واحدةٌ ، حزمةٌ من النور المكلَّلِ بالقوة ، والمُزيَّن بالعتاد ، وإذا أردتَ تجارةً ، فتجارها أكثر ما قد يكونون أمانةً ، فكانت تأتي كلُّ القبائل من حولهم ؛ لتبتاع من عندهم ما تشتهي أنفسهم وما يريدون .

في هذه القبيلة كان هناك رجل يسمى عبدالرحمن بن حسام بن عبدالله ، كان طويل القامه ؛ فطوله قرابة المترين ، قوى الجسد ، بابتسامةٍ تشعُّ من صبح وجهه المكحَّل بليل عينيه السوداوَيْن ، طيبَ القلبِ ، تجد في حديثه رقةٌ تنعكس منه عند بدأ كلامه . ورُغْمَ كونه من أبناء قبيلة « بنى حمد « ، ولكنَّه ذهب للقتال مع الجيش في الشام باعتباره جندياً في الجيش ، ولكنَّه بعدما أظهر بسالة لا حدود لها في القتال تمتْ ترقيته ، فأصبح فارساً ومن ثمَّ أصبح أحد قواد جيش المسلمين .

ولقد كان عبد الرحمن معروفا بالشجاعة الهائلة ، القوة ، وكان كلُّ الاعداء يخشونه من كل حدبٍ وصوب ، وكان من أكثر الناس تُقَاتاً ، وأكثرهم حرصاً على انتشار الاسلام وازدهار حضارته ، كما أنَّه كان داهيةً من دواهي العرب في الحرب والمكيدة ؛ فلقد

كان حادَّ الذكاء ، سريع البديهة ، لا يُخدع بسهولة وتهابه الأعداء ويخشون مواجهته .

كان عبد الرحمن يقضى أيامه في طاعه الله مالم يكن هناك حرب ، ولكنَّه كان يؤمن أنَّ العمل هو الوسيلة الأولى والأخيرة - بعد طاعة الله - للتقدم والازدهار، كان يُجدُّ في عمله فلقد كان يعمل تاجرا جادًا في عمله وكثير التصدق، كان يتصدق بالكثير والكثير من أمواله .

ولحدةِ ذكائِه ، وسرعةِ بديهتِه ، كان عبد الرحمن أحدُ أعز أصدقاء أمير المؤمنين ووزرائه المقربين ، وكان معه أيضاً الرجل الخمسيني «الخالد بن الهيثم» ، ولقد كان أيضاً طويل القامة ، ولونُ بشرتِه يميل إلى السواد ، وكان قويَ البنية ، لا يعرف للخوف معنى ولا يخشى أحدًا في القتال .

وكان أيضاً معهما «عبدالله بن مالك « وكان متوسط القامة ،هادئ الملامح ، ينبعث منه الوقار والحكمة ، فكان أكثرَهم حكمةً وأقلَّهم حباً للقتال وسفك الدماء .

هؤلاء الثلاثة كانوا من المقربين لأمير المؤمنين الذى يدعي « نور الدين « ، والذى كان يستشيرهم في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ ، ويستعين بهم في قضاء حاجات الأمة ، وكان « نور الدين « طيبَ القلبِ ، شديد التقاةِ ، أحبَّ ما يكون للعدل وأبغضَ ما

يكون للظلم والفساد ، كما كان حريصاً كل الحرص على ازدهار الحضارة الاسلامية واتساع رقعتها إلى أقصى الحدود .

ولقد كان حادَّ الذكاء ، فصيحَ اللسان ، لَبِقاً لأبعد الحدود ، لا يُهزم في مناقشة أو في قتال ، وكان اكثرَهم عقلانيةً وحكمةً ، قويَّ الشخصية ، يهابه كل عدوٍ ومذنبٍ ؛ لأنه كان صارما في تطبيق شريعة الله ، لا يعرفُ من نسميه نحن بالمجاملة أو الرياء

وكان أمير المؤمنين « نور الدين « مريضاً منذ وقت طويل ، يصارع المرض فتُستنزف قواه يومًا بعد يوم ، وفي يومٍ من الأيام - وكان يوم الجمعة - اشتدَّ عليه المرض فلم يحضرْ لصلاة الجمعة فقام « عبدالله بن مالك « فخطب في الناس ثم صلى بهم ، وبعد الصلاة جلس مع صديقيه « عبد الرحمن بن حسام « و» الخالد بن الهيثم « وأخذوا يتحدثون ، لماذا لم يأتِ أميرَ المؤمنين ! فانتابهم القلق وقرروا الذهاب اليه .

وعندما ذهبوا عنده ، دخلوا عليه وكان راقداً في سريره ، غيرَ قادرٍ على التحرُّك ، شاحبَ الوجه كمن أغمي عليه لأسابيع بلا طعامٍ أو شرابٍ ، ولدى دخولهم قالوا في صوتٍ واحدٍ :

-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أميرَ المؤمنين .

فردَّ « أميرُ المؤمنين « وهو غيرُ قادرٍ على التكلم : وعليكم السلام ورحمه الله وبركاته ، حللّتم أهلاً ونزلّتم سهلاً .

فقال « عبدالله بن مالك « :
- كيف حالك اليوم يا امير المؤمنين ؟
قالها بحزنٍ بالغ حتى كادتْ الدموع أن تنهمرَ من حدقَتَيْه إثر رؤياه لحالة نور الدين ، حاول اخفاء ذلك وساعده في فعلها «عبد الرحمن بن حسام «عندما قال :
- قلقنا عليك يا أمير المؤمنين عندما لم تأتِ اليوم لصلاة الجمعة .
فردَّ أمير المؤمنين :
الحمد لله رب العالمين .. مرضتُ قليلاً مؤخراً ولكنَّني الآنَ بخير .
وكأنَّه قالها ليطمئِنَهم ، أو لنقل لكى لا يزيد من قلقهم عليه ، ثم أخذَ يداعبهم فقال :
-لكنَّني سأعود ولا يستطيعُ أياً منكم اعتلاء المنبر مجدداً .
فضحكوا جمعيا وضحك أمير المؤمنين حتى ظهر عليهم أنَّهم نسوا ما أتوا من أجله ، وأخذوا يداعبون بعضهم لوقت طويل حتى أحس « نور الدين «نفسه أنَّه نسيَ المرض ، ليضربَ لهم مثلاً ويظهر صفةً جديدةً فيه وهى حبُّ الاصدقاء أو لنقل هذا هو الصديق ، فلكلٍ منا آلامه التي تكفيه ، فإنْ لم تكنْ ستخففُ عن غيرك فلا تحاول أنْ تُحمِّلَ غيرَك آلامك ، لا أحد يقوى على تحمل آلاماً ليستْ آلامه ، والألم كالعادة .. يفرضُ سيطرته على كل القلوب فتضيق .
وفى اليوم التالي أتاهم « أمير المؤمنين « ، مشرقَ الوجه وقد

تحسنَ حاله كثيراً عن ليله أمس ، ففرح به اصدقائه كثيراً وفرح كل الحاضرين .

وبينما همُّوا للحديث ، إذْ به يقرر كعادته أنْ يمشي في الشوارع يتفقد أحوال الأمة ومعه عبدالله وعبد الرحمن والخالد ، فإذا بهم يرون الناس مجتمعةً وقد علا صوتهم ، فإذ بهم يذهبون إلى هناك ؛ ليروا ماذا يحدث ! فإذْ برجلٍ متوسطِ الطول ، سمينٍ ، غليظِ الصوت ، يشاجرُ رجلاً أخر أسودَ البشرة ، منخفضَ الصوت ، فيرى الرجلان أمير المؤمنين فيصمتا .

فيقول أمير المؤمنين :

-ماذا يجري هنا ؟!

فيردَّ السمين :

- لقد سرق الخبز والفاكهة والزيت والخل وبعض اللحوم يا أمير المؤمنين .

فيقول أمير المؤمنين :

- تعالوا إذنْ إلى مجلسي ؛ لنحلَ الأمر .

فذهبا مع أمير المؤمنين إلى مجلسه ، وعندما وصلوا جلس أمير المؤمنين ثم أخذ يسألهم عما حدث بالضبط .

يقول أمير المؤمنين : أخبراني ماذا حدث بالضبط ؟

فرد السمين وقال :

- لقد سرق منى الخبز والفاكهة والزيت والخل وبعض اللحوم يا

أمير المؤمنين ، ويجبُ أنْ يطبَّقَ عليه حدُّ السرقةِ .
فقال أمير المؤمنين للرجل النحيف :
هل فعلتَ ما قاله حقاً ؟
فردَّ الرجل النحيف بصوتٍ فيه شيءٌ من الخجل مختلطٌ بشيءٍ من القلق والاضطراب : نعم ، نعم يا أمير المؤمنين فعلتْ.
فيقول أمير المؤمنين بصوتٍ فيه شيءٌ من الحزن والأسف « يطبق علية الحد إذن « .. ويأمرُ أحدَ جنوده ويقول : « اقطعوا يده «
فيقول النحيف صارخاً :
-اعفُ عنى يا أمير المؤمنين .. اعفُ عنى يا أمير المؤمنين ، لأبرِّرَنَّ سببَ سرقتي .
يقول والجنود تشده نحو الخارج لتنفيذِ الحدّ ، فيأمر « نور الدين « الجنود بأن يتركوه ؛ حتى يسمع ما لديه .
فقال الرجل النحيف :
- يا أمير المؤمنين أنا أعمل مع هذا الرجل منذ أعوام والأجر الذى يعطيه لي لا يكفيني وزوجتي وأولادي ، كما أنَّ زكاته وصدقاته تكون قليلة ولا تكفينا .
وأخذ الرجل يبكي من شدة حزنه ويسمعه أمير، يسمعه ويكاد يبكى فاستطْرد الأول :
-اليوم وجدتُ أولادي وزوجتي يتضورن جوعاً ، يبكون ويتألمون من شدة الجوع ، فتمزَّقَ قلبي لحالهم فسرقتُ ما سرقتْ

لإطعامهم ؛ لكى نأكل .. لكى نأكلَ يا أميرَ المؤمنين .
قالها وقد سالت دموعه .. فقال أميرُ المؤمنين : اتركوه لقد سرق ليأكلَ فلا يطبَّقُ عليه حدُّ السرقة .
ثم ذهب للرجل النحيف وقد فرح بعدما سمع ما قاله أميرُ المؤمنين فأردَفَ الأخيرُ:
-اذهبْ إلى زوجتك وأولادك !
فقال الرجلُ النحيفُ :
-شكراً لكَ يا أميرَ المؤمنين .
وصمتَ وكأنَّه يريدُ أنْ يقولَ الكثير ، ولكنْ الكلمات تقف في حلقه من شده الفرحة ، وانطلق مسرعاً في فرحٍ وسرورٍ ، ثم اتجه أمير المؤمنين إلى الرجل السمين وقال:
-إنَّ الزكاةَ والصدقاتِ يزيدان المال دون نقصان ، وابْسُطْ يديك تنلْ محبةَ الله والناس ، فلقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما نقص مال من صدقة « صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم
فردَّ الرجل السمين :
-اعذرني يا أميرَ المؤمنين ، فلقد شغلتني الدنيا وجعلتني أنسى حق المحتاجين في مالي .
فردَّ أمير المؤمنين :
-لا عليك ، فقط تعلَّمْ مما مضى ، فلا يلدغُ مؤمنٌ من جحرٍ مرتين

.

فانصرفَ الرجل إلى شأنه ، وخَلَى أمير المؤمنين بأصدقائه «عبد الرحمن بن حسام» و «خالد بن الهيثم « و « عبدالله بن مالك « فشرد ذهنه وبدا ذلك ملحوظاً فصمت الجميع قليلاً ، ثم بادر عبدالله بالحديث :

-ماذا بكَ يا أميرَ المؤمنين ؟ نراك شارد الذهن !

فنظرَ إليهم « نور الدين « في حزنٍ ، وكادتْ الدموع أنْ تنهمرَ من عينيه لولا منعَها بصعوبةٍ ، وقال : لا شيءَ ، فقط حزنتُ على هذا الرجل التي كادتْ أنْ تُقطعَ يده وهو فقير .. سرق ليطعم أولاده ! قالها وكأنَّ روحه تخرج مع الكلمات .

فقال عبد الرحمن بن حسام :

-لا عليك يا أمير المؤمنين فلقد نجاه الله !

فنظر إليه « نور الدين « وأومأَ برأسه ، وانفضَّ المجلس وذهبَ كلٌ إلى سبيله .

وفى مساء هذا اليوم وإذْ بنور الدين يجلس في حجرةٍ من حجر منزله وحيداً ، وأخذ يناجي ربَّه وأجهش في البكاء وهو يقول :

-سامحني يا ربي سامحني ، يا ويْحَ نور الدين وهناك من يبيت جائعاً ! اللهم اغفر لي واحمني !

واشتدَّ عليه المرض في هذه الليلة ، ولكنَّه قرَّرَ أنْ يقيمَ الليلَ ، وبينما هو يصلي وفي طريقه للسجود الأول ، يشاء الله ويقبضُ

روحه فيسجدَ ميتاً بأمر الله .. مات « نور الدين « كان في عصره اسماً على مسمى ، فقد كان حاكمَ المسلمين ولا يُظلمُ بشرٌ تحت ولايته ، ولا مجالَ للظلم في شوارع بلاد المسلمين ، كيفَ لا وقد قضى ما شاء الله له أنْ يقضيَ من السنوات في هذه الدنيا في عبادة ربِّ العباد ، لم يبغِ يوماً المنصبَ ، ولا نعيماً من نعيم الدينا الزائل .. لم يكنْ يبغي إلَّا رضا الله ، مات نور الدين ، مات وهو يصلى ، مات وأيُّ موتٍ أعظمُ من موتِك يا « نورَ الدين « !!

في الصباح الباكر .. إذ بأهلِ بيته يدخلون عليه حجرته ؛ لأنَّه لم يخرجْ منذُ مساءِ أمس فيجدونه ملقاً على الأرض ، لا حول له ولا قوة ، فيسرعون نحوه فيجدونه ميتاً ، فتصرخَ زوجته صرخةً تهتزُ لها قلوب الرجال قبل النساء ، وأبنائه يجهشون في البكاء على فقدان أبيهم ، بل أمير المؤمنين ، بل الرجل العادل الذى لا يظلمُ في مجلسه أحدٌ ، الرجل الفطن الذى لا ينخدع في حربٍ ، بل الرجل الرحيم النبيل الذى يعفو عند المقدرة .

انتشر الخبر في جميع أنحاء البلاد ، ووصل الخبر إلى أعزِّ أصدقائه ووزرائه « عبد الرحمن ، عبد الله وخالد « ، فأسرعوا إلى بيت « نور الدين « ليتأكدوا من حقيقة ما سمعوا ، وعندما وصلوا سمعوا بكاءَ أبنائه وزوجته ، كأنَّ أحدَهم قد انتزع منهم عيونهم ، بلْ وأرواحهم ، فأجهشوا في البكاء كما لم يفعلوا من قبل ، وبكتْ كل بلاد الشام بلْ وبكتْ الأمة الإسلامية جمعاءَ وحقَّ لهم

بكاهم .. اليومَ مات نور الدين ، اليومَ مات أمير المؤمنين !

انتشر الخبرُ في كلِّ بلاد المسلمين ، وسادَ الحزن في جميع أرجائها ، والخطباء يخطبون في المساجد ، ويدعون له بالرحمة والغفران حتى تسيلَ دموعَهم ودموعَ المصلين ، واستمر هذا الحال كثيراً حتى بعد اختيار أمير المؤمنين بعد «نور الدين « .

الفصل الثاني

حان الآن وقتُ اختيارِ أمير المؤمنين ، لحظةٌ ليستْ هينةً على من يختار وعلى علماء الأمة ، فهم الذين يختارون ولقد اجتمع العلماء وانحسر اختيارهم على وزراء « نور الدين « الثلاثة وهم «عبدالله بن مالك» و « الخالد بن الهيثم» و» عبدالرحمن بن حسام « ، فاجتمعوا بهم وأخبروهم أنَّ واحدًا منهم يجبُ أنْ يتولى الحكم ، وقد سمعوا قبلاً عن صعوبة الموقف ، لكنَّهم أدركوا حقاً كمّ هو صعبٌ عندما وضعوا فيه ، وكلٌ منهم يتهرب مِنْ تولي الحكم ، وكلٌ منهم يرشح الآخرين حتى اجتمع العلماء على أنْ يولوا «عبدالله بن مالك» ، لكنَّه أبى بشدة ورفض رفضاً تاماً، فذهبوا إلى «الخالد بن الهيثم» فرفض بدوره أيضاً ، فلم يكنْ هناك مفرٌ إلَّا أنْ يتولى «عبد الرحمن بن حسام» حكم بلاد المسلمين .

قَبِلَ «عبد الرحمن بن حسام» ؛ لأنَّه لم يكنْ هناك مفرٌ إلَّا القبول ؛ حرصاً على مصلحة الاسلام والمسلمين ، وكان «عبد الرحمن بن حسام « شديدَ الصرامة ، ولا يعرف التهاون عندما يتعلقُ الأمر

بمصلحة الإسلام والمسلمين ، أمَّا فيما يخصُّه فهو يتغاضى عن الكثير، ويعرفُ أنَّ الاسلام أولى بالحكم الجيِّد ، وهو يدرك أنَّ السبيلَ للحكمِ الجيِّد بعد التسلح بالدين وعبادة الله هو القوة ، فلا يجبُ أنْ يَظهرَ ضعيفاً أمام الناس ولا يريدُ أنْ يظهرَ قاسياً أو جباراً ، فكيف سيفعل ذلك ؟!

وذهب في اليوم التالي ليبايعَه الناس ، وليخطبَ فيهم أولَ خطبةٍ له بعد مبايعة الناس له ، فقال قبل أنْ يبايعَه الناس :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وسيد الخلق أجمعين ومعلم البشرية وهادى الأمة الأمين سيدنا وحبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فصلوا عليه و سلموا تسليما ، ثم أمَّا بعدُ:

إليكمْ ما سأعدكم به ، وبإذنِ الله سأبذل قصارى جهدي لتحقيقه ..» لنْ يمنع أحدٌ من زيارتي في أيِّ وقت ومتى أحب ، والأطفال جميعهم كفيلٌ بهم بيت المال حتى يكبروا ، وأيُّ أحدٍ تشتدُّ عليه الحاجة فبيتُ المالِ للجميع ومالي أيضاً لكلِّ مَنْ يحتاج ، شريعةُ الله وقرآنُه مرجعُنا الأول والأخير» .

صمتَ قليلاً ، ثم استأنف قائلاً : هذه وعودي لكم فإن حققتُ ما وعدتكم به ، فلي عليكم السَمْعَ والطاعة ، وإنْ لم أفعلْ وضللّتُ عن الحق فاستتيبوني فإنْ تبتُ فلي عليكم السمع والطاعة ، وإنْ لم أتبْ ووجدتم مَنْ هو أصلحُ منى وسيأتي بِما وعدتكم به ، وبما

هو في مصلحتكم فبايعوه وسأكون أولَكم .
ابتسم صديقيه ونظرا إلى بعضهم البعض في سرورٍ ، ثم نظرا إليه في فرح فابتسم بدوره لهما ، ونظر إلى الناس أمامه مسروراً عندما سمع من الناس أمامه كلامهم ، فسمع أحدَهم يقول لغيره « حقاً لقد تولى إمارتنا الرجل الملائم « ، ويردُّ عليه الآخر ويقولُ « بكل تأكيدٍ « ، وآخر يتحدثُ إلى نفسه ويفكِّر ولكنْ بصوتٍ مسموعٍ : « من الواضح أنَّه رجلٌ صارمٌ حقاً كما يقال عنه ، يا ويْلَ من سيعصيه أو يخالفُ أوامره ، فرُغْمَ مظهره الجميل ، والرقةِ المرسومةِ على وجهه إلَّا أنَّ كلامه الذي يشعُّ هذه الرقة ، تشوبه بلْ وتغمرَه القسوةُ والصرامةُ «.
فنظرَ إليه الرجل الذى يقفُ بجانبه متعجباً ، وكان قد سمع كلماته فقال له : « ماذا تقول يا رجل ألَا تعرف عبد الرحمن بن حسام !! « فردَّ الرجل قائلاً : بلى ، أعرفه بلْ بالأحرى سمعتُ عنه لكنَّني لم أرَهُ قَطُّ قبل هذه المرة ، فكلُ ما أعرفه عنه مجرد كلماتٍ تقال «
فقال الآخرُ «ها هو إذنْ رجلُ الإسلام وفارسُه الأول ، أعظمُ قادة المسلمين والآن هو أمير المؤمنين ، فأعِنْهُ اللهم واجعله أعظمهم .
فقال الرجل الآخر في سرورٍ «آمين»
فابتسما في وجه بعضهما البعض ، ومن ثُمَّ عادا ؛ لينظرا إلى عبد الرحمن بن حسام « .

وكانتْ كل هذه الاحاديث على مسمعٍ ومرأى منه ، فأعاد النظر إلى صديقيه وفى داخله فرح شديد باجتيازه الخطوة الأولى ، ووازن بين خوفه على المؤمنين وحرصه عليهم وبين غيرته على الدين ، وتحذير الناس من الوقوع في الآثام والمعاصي ؛ لأنَّه وبكل بساطةٍ لا تهاون لديه في تنفيذ الحد ولنْ يرحمَ من يخطئ في حق الدين والناس .

وتمرُّ الأيام ويفي عبد الرحمن بوعده ، بل وعمل على ترسيخ مبدأ العمل بأقصى جهد والذى علمنا إياه ديننا ونبينا صلى الله عليه وسلم ؛ ولأنَّه شغوفٌ بالعلوم ، كان يتردَّد دائماً على العلماء في شتى المجالات الدينية والدنياوية ؛ لأنَّ الأمة الاسلامية آنذاك كانت أرقى أمم الأرض وأكثرها تقدماً .

وبمرور الأيام وعبد الرحمن ينزل كل يوم في الأسواق والشوارع وقلَّما لو واجه مشكلةً ما ، فالجميع كان يخشى الله أولاً وكانوا يخشونه ويخشون الخطأ ويبغضونه ، بل كان الجميع يحيى في حبٍ وعدلٍ والجميع سعداء بذلك .

وكما كان يفعل « نور الدين « رحمه الله كان يفعل « عبد الرحمن « .. كان يجلس كل يوم قبل أنْ ينامَ يناجي ربَّه ، ويجلس يبكى ويسألُ ربَّه أنْ يرحمَه ويغفرَ له إنْ كان مقصِّراً ، وذات يوم جلس كعادته يناجي ربَّه وأخذ يقول : « رباه إنِّي أبذل قصارى جهدي وأعلم يا الله أنَّني أتحمل مسئوليةً كبيرةً وعبئاً ثقيلاً ،

فأعنِّ يا ربي ، واللهم إنَّك تعلم أنَّني يوماً لم أحب المناصب أو أنْ أكونَ أمير المؤمنين ، لكنَّني قبلتُ خوفاً وحرصاً على الأمة الاسلامية فاحمنِ وأعنِّ يا الله « .. يقول وهو يبكى وأردف « اللهم أعنِّ « وبعد قليل هدأ روعه وعاد إلى فراشه ؛ لينام وليستيقظ بعد قليل ؛ ليقيم الليل كالعادة ولكنْ للوهلة الأولى لم يستطيع النوم .

أخذ يفكر ويفكر ويتأمل حيث تجول في ذهنه ذكرى « نور الدين « ومواقفه النبيلة ، والتي تبين سماحة الإسلام وعدله ، ويتذكر المواقف التي حدثت معه بعدما تولَّى الإمارة ، وأخذ يفكر في حال الدولة الاسلامية والعربية ، ويقول بينه وبين نفسه والأفكار تتجوَّل وتدور في رأسه : الآنَ ، نحن وبفضل الله أكثر الدول تقدماً في العلم وفى كلِّ شيءٍ وأقوى أمم الأرض عُدَّةً وعتاداً ، ثمَّ مال برأسه للخلف وأغمض عينيه واستطرد قائلاً ومتسائلاً :

-هل سنظلُّ كما نحن عليه الآن في صدارة كل الامم ، أم أنَّنا سنتراجع ، أمْ ما الذي سيحدث ؟!

أخذ يدعو ربَّه ألَّا يحدث أيُّ مكروهٍ لأمتنا ، ثم عاد قائلا لنفسه ؛ ليردَّ هذه الأفكار ويطردها من ذهنه « لا لا ، لا خوفَ على أمة سلاحها الدين والعلم ، طالما القرآن يحكمنا فلا خوفَ علينا ، المهم ألَّا نتخلى عن الله والدين ، واللهُ أبداً لنْ يتركنا أو يخذلنا «.

وبينما يحاول طرد تلك الأفكار من باله ، أخذه النوم فراح في سباتٍ عميقٍ ، ولكن بعد نومه بقليل أخذ يتعرَّقُ حتى تظنَّ

وكأنَّه يصارع الموت في نومه ، ولم يكن عبدالرحمن ممن يحلمون كثيراً أثناء نومهم ، ولكنْ يا تُرَى بماذا يحلم ؟! بماذا تحلم يا عبد الرحمن ؟!

الفصل الثالث

استيقظ عبد الرحمن صباحاً بعد أنْ غطت الشمس وجهه ، وكأنَّ أحدَهم قد فتح النافذة ، أو لنقلْ باباً على مصراعيه فأصبح في عُرضةٍ مباشرةٍ للشمس ، فهبَّ مسرعاً وما يجول بخاطره سوى أنَّه لم يقمْ الليل ، ولم يؤدِّ صلاةَ الفجر كما هو حال المنافقين فغضب لذلك غضباً شديداً ، وهمَّ لتوبيخِ أهلِ بيته ؛ لأنَّهم لم يوقظوه لصلاة الفجر ، ولكنَّه فوجئ بما لم يتوقع أنْ يفاجأ به قط ، لقد وجد نفسه في أحد الشوارع ملقاً بجوار سورٍ قصيرٍ على جانب أحد الطرقات ، مفترشاً سرير الأسفلت ، وغطائه السماء محتمياً بها ، غمرته الدهشة فأخذ يقول: « ما الذى يحدث ؟! أين انا ؟! «

ثم التفت إلى ما حوله ليجدَ عن يمينه صحراء جرداء لا زرع بها ولا ماء ، وليس هذا بمشهدٍ غريبٍ عليه ، فلقد اعتاد ذهبية الصحراء التي تفترشها الشمس فتكسبها هذا اللمعان الذهبي الرائع ، وعن يساره وجد مدينةً راقيةً ، وأبنيةً ضخمةً تتكون من عدة طوابقٍ بارتفاعٍ شاهقٍ ، كقصيدةٍ شعريةٍ ، في أبياتها ما هو

جميلٌ يجذب النفس ، وما هو أدنى منه فيستدعي النفور، لكنَّها في مجملها رائعةً ، لكنَّ هذه الارتفاعات الشاهقة ، لم يعتدْها قبلاً ، فبدا الأمرُ غريباً جداً عليه ، واستدعى الدهشة كثرة ما رأى ، فتكاد جميع الأبنية أنْ تكونَ من نفس القبيل .

كان هائماً بخياله فيما رأى لكنَّه سرعان ما عاد من شروده ، عندما سمع ضجيجاً لم يسمع مثله قط ، فالتفتَ إلى الخلف فرأى آلاتٍ تتحركُ ، مصنوعةٌ من المعدن من جميع جوانبها ، عدا واجهتها وخلفيتها مصنوعتان من الزجاج المتين ، ولها أربع عجلاتٍ مصنوعةٍ من المطاط المقوى ومركزها مصنوعٌ من الصلب المقوى ، وبها نوافذٌ كنوافذِ المنازل صغيرة الحجم ، تُظهر من يقودها ، وكانتْ تنطلق بسرعاتٍ عجيباتٍ ، ويصدر منها هذا الضجيج الذي يتفاوت من واحدةٍ لأخرى (السيارات) ، ولقد رآها بألوانٍ متعددةٍ ، وأحجامٍ متفاوتةٍ أيضاً فاندهش لرؤيتها كثيراً ، وأخذ يقول لنفسه : « أين أنا ؟! وماذا أفعل هنا ، وكيف جئت إلى هنا ؟! أهذي بلاد الفرس أو الروم ؟! وإنْ كانتْ فكيفَ أتيتُ إلى هنا ؟! «

كاد عبد الرحمن أنْ يَجنَّ .. كيف أتى إلى هنا ؟ وهلْ حقاً هذه بلاد الفرس أو الروم ، أمْ أنَّه كابوس يحلم به ، أمْ أنَّها نهاية العالم ويوم القيامة ؛ حيث تلك المباني الشاهقات الارتفاع من علامات يوم القيامة ؟!

قرر عبدالرحمن المضي في سبيله ، لكنَّ تساؤلاتِه لم تبارحه قط ، لعلَّه يقابلُ أحدهم فيعرف منه أين يكون ؟! ويفهم منه تفسير ما يجرى حوله ، وإذ هو يمشى بجوار تلك الآلات الغريبة (السيارات) ، فنظر إلى إحداها لأول مرة عن قرب ، فإذ به يصعق مرةً أخرى من تغيير شكله وملابسه ، فبينما كان شعره طويلاً ناعماً أصبح متدرجاً ، جزءٌ منه طويلٌ وهو الجزء العلوى ، وجزءٌ قصيرٌ جداً مقارنةً بالعلوى فتعجَّب لشكله وازدادت دهشتُه أكثر عندما رأى ملابسه ، فبعدما كان يرتدى ما يرتديه العرب من هذه العباءة والعمة ، أصبح يرتدى بنطالاً ضيقاً جداً من مادةٍ غريبةٍ ليستْ قطناً وليستْ جلداً ، وقميص من القماش (تيشرت) ، وأيضاً كان ضيقًا جداً ويسترُ من ذراعه ما لا يصل إلى المرفق (أيّْ نصف ساعده) تقريباً ، وهو أشبه بملابسه الداخلية ، فكاد أنْ يفقد عقله ؛ لكثرة التغيرات التي طرأت من حوله بلا تفسير، وأخذ يجري باحثاً عن أيِّ أحدٍ ؛ ليسأله ما الذى يحدث لكنَّه لا يرى أحداً فجُنَّ جنونه ، وأخذَ ينظر يميناً ويساراً وهو يجرى بأقصى سرعته وأخذ يردِّدُ ويقول صارخاً بكل ما أوتي من عزمٍ : « أين أنا ؟! وكيف أتيتُ إلى هنا ؟! هل أحلم أم أنَّها حقيقة ، مااااااا الذيييييي يحدث ؟! وسقط فاقداً وعيه !

* * *

فتح «عبدالرحمن» عينه معتقداً أنَّه كان في حلم وقد استفاق من نومه ، فإذْ به يفتح عينيه فلا يرى شيئاً .. أغمض عينيه وفتحها مجدداً ، لتبدأ الأشياء في التجسد في هيئتها الصحيحة ، فيراها بوضوح ، ولأنَّه كان ملقياً على ظهره فأولُ ما يتوقع أنْ يرى هو سقفُ بيته المكوَّن من بعض الألواح الضخمة ، تعلوها بعض العصوات الطويلة والتي تعلوها طبقةٌ من الطين ، ولكنَّه يُفاجأ بسقفٍ أبيضِ اللون وكذلك حوائطَ بيضاء ، ويرى أنَّ مصدرَ الضوء في الحجرة ليستْ الشمس ، أو النيران كما توقع ، وإنَّما رأى مصابيح متدليةً من السقف ، تشعُّ نوراً أبيضَ شديداً ، لم يعرف ما هي هذه الأشياء ولم يكترثْ كثيراً ، بقدر اكتراثه عن تساؤلاته قبيل فقدانه وعيه ، وكيف أتى إلى هنا ؟!

والتفتَ آنذاك إلى صوتٍ أتاه يقول :

- حمد الله على سلامتك يا بطل ، عامل ايه دلوقتي ؟

فالتفت إلى مصدر الصوت وهذه اللهجة الغربية ، فيرى رجلاً متوسطَ الطول ، أبيضَ البشرة ، يزيده شعره الأبيض وقاراً ووسامةً ، وكان يرتدى زيَّاً أبيضَ يصل إلى قُرب ركبتيه (بلطو) ، وكان ينظر إلى عبد الرحمن ، مبتسماً له فنظر إليه الأخير متعجباً وأردف :

ـ من أنت ؟! وأين انا ؟! وما هذا المكان ؟!

ردَّ الرجل : أنا الدكتور كمال ، استاذ دكتور في كليه الطب جامعه القاهرة ، وأنتَ هنا في المستشفى بقالك ٣ أيام لانك من ٣ أيام

جتلك صدمة عصبية خطيرة وفقدت وعيك ، بس الحمد لله فيه اتنين لحقوك وجابوك هنا في الوقت المناسب ، لولا كدا الله اعلم ايه اللي كان ممكن يحصل .

سمع عبد الرحمن الكلمات والتي صَعُبَ عليه فهم بعضها ، لكنَّه فهم ما يهدف إليه الطبيب وسأله:

ـ من هم هؤلاء الذين أتوا بي إلى هنا ؟

تعجَّب الطبيب قليلاً من لهجته الفصحى ، ولكنَّه تجاهل الأمر قائلاً :

-دول بقالهم من ساعة ما جبوك هنا وهما كل يوم بييجوا يسألوا عليك ويطمنوا وأساميهم هي ....أهم وصلوا

أستأذن أنا وألف سلامة عليك يا بطل .

وإذ بشابين يدخلان ، ويبدوان في العقد الثاني من أعمارهما ، أحدهما طويلُ القامة ، أبيضُ البشرة يرتدى نظارات طبية ، وشعرُه ليس ناعماً جداً وتشعُّ منه طيبةٌ وبراءةٌ كبراءةِ الأطفال ، وقال مبتسماً :

- حمد الله على سلامتك يا وحش ، عامل ايه دلوقتي ؟! صحيح أنا أسمى « أدهم العربي» .

فبادله «عبد الرحمن «بابتسامةٍ ، وقال :

-الحمد لله في خير حال و... .

فقاطعه الشابُّ الآخر، وهو شابٌ متوسِّطُ الطول ، بشرتُه قاتمةٌ

قليلاً ، وكان أيضاً طيبَ القلبِ وبشوشاً أيضاً ، قال وهو يبتسم :
« أنا بقى مصطفى ، وبرضو حمد الله على السلامة يا نجم وإن شاء الله تكون كويس دلوقتي «.
اتسعتْ ابتسامةُ عبد الرحمن هذه المرة ، وقال موجها كلامه لكليهما :
-الحمد لله أنا بخيرٍ والطبيب قد قصَّ عليَّ ما فعلتماه من أجلى .. شكراً جزيلا لكما وجزاكما الله خيراً .
تعجَّب كلاهما من حديثه باللغة العربية الفصحى ، ولكنْ أدهم العربي قال :
ـ على ايه ياعم إحنا معملناش غير الواجب ، وأي حد مكانّا كان هيعمل أكتر من كدا .
فتبادلا الابتسام وقال الأخير :
ـ بس أنت ما قلتلناش اسمك ايه ؟
فابتسم وقال: « اسمى عبد الرحمن «
فقال أدهم :
ـ تمام، حلو الاسم ، اشطة يا عبده .
تعجَّبَ عبد الرحمن قليلاً ، لكنَّه ابتسم ، وقبل أنْ ينطقَ قاطعه مصطفى قائلاً :
ـ أنا بقى اسمى مصطفى وتقدر تناديلى درش علطول .
قالها مصطفى ضاحكاً ومعه ضحكا عبد الرحمن وأدهم ،

وغمرتهم السعادة ، فأخذوا يتحدثون ويمزحون، فقال مصطفى :
ـ أدهم ، بقولك هو عبده هيخرج امتى ؟
أدهم :
ـ النهاردة ان انشاء الله .
-اشطة أنا عازمكم في الشقة عندى وبالمرة نبات مع بعض .
ظلّ عبد الرحمن متعجباً من هذه اللهجة التي يتحدثون بها ، لكنَّه يفهم معظم كلامتهم إلى الآن ، قال أدهم :
ـ أشطه يا درش جايين يابا ، ولا أنت إيه رأيك يا عبده ؟
توجها بنظريها إلى عبد الرحمن الذى ارتبكَ وقال :
-اعذراني ! يكفى ما فعلتماه من أجلى .. لنْ أستطيعَ أنْ اتعبكم معي أكثر من هذا ، فأنا مدينٌ لكما بالكثير، بالإضافة إلى الأموال التي دفعتماها إلى هذه المستشفى .
مصطفى :
ـ يا عم أنت بتقول ايه طب والله لحنا رايحيين عندي النهاردة ، ويا سيدى اعتبرها احتفال بمناسبة التعرف عليك ، وعلى فكرة احنا مدفعناش حاجة للمستشفى علشان دى مستشفى حكومى تبع الدولة يعنى ما تقلقش .
فسأله عبد الرحمن سريعاً:
ـ أيُّ دولةٍ تلكَ ، وفى أيِّ بلادٍ نحن ؟!
ارتسمتْ الدهشة على وجه مصطفى وأدهم ، ونظرا إلى بعضهما

البعض ، ثمَّ قال أدهم :
ـ أنت بتهزر ولا بتتكلم بجد !
قال عبد الرحمن :
ـولِمَ أمازحكما في أمر كهذا ؟ أنا جادٌّ تماماً !
أعاد مصطفى وأدهم النظر إلى بعضهم ، وقال الأول :
ـ لاا ، دا أنت شكل حكايتك حكاية تعالى نروح البيت الأول وهناك نتكلم ونعرف كل حاجة ، ونعرف إيه حكايتك وإيه موضوعك .
بدتْ ملامح الغضب على وجه عبد الرحمن قبل أنْ يقولَ:
ـ ليس قبل أنْ أعرفَ أين أنا ؟ وما هذه البلاد ، وكيف جئتُ إلى هنا ؟!
فقال أدهم ؛ ليلتَهم حرارة الموضوع ، أو لنقلْ ليلتَهم غضبَ عبد الرحمن قبل أنْ يزدادَ اشتعالاً أو يتعالى صوت النزاع بينهم ، فيثيرون الضجَّة أو يحدث ما لا يُحْمَدُ عقباه :
ـ تعالى بس شقة مصطفى وهناك هنسمعك ونعرف حكايتك وقصتك علشان أنا بدأت أقلق ، وعامة علشان ترتاح احنا في مصر.
قال عبد الرحمن وكاد يُجنُّ من هول المفاجأة : « مِصْر « !!
لم يتفوه عبدالرحمن بعدها بكلمةٍ واحدةٍ ، وشرد ذهن الأخير هائماً في بحر دهشته ، ودوامةِ انفعالاته الداخلية التي جمعتْ ما بين الدهشة بشتى صورها ، مشوبةً بالحزن؛ لعدم معرفته الآلية

التي جاء بها إلى هنا ، وكيف استحال الوضع إلى ما هو عليه الآن ؟! فظلَّ غيرَ واعٍ بما يحدث حوله ، وأخذ مصطفى وأدهم يساندانه حتى خرجا به من المستشفى ، وكلٌّ منهما ينظر إلى الآخر وإليه وفى داخلهما تفكيرٌ عميقٌ ، وكثيرٌ من التساؤلات قد شهدتْ مولدها في أذهانهما ، فأخذ كلٌّ منهما يتسائل في نفسه ويقول :

ـ هو فعلا مش عارف هو فين ؟ وجه هنا ازاى ؟ ولا بيصيع علينا ، طيب لو بيصيع علينا وبيكدب طيب ليه هيكدب ؟! عموماً أدينا رايحين الشقة وهنعرف هناك كل حاجة .

وبعد قرابة الساعة وصلوا إلى شقة مصطفى ، والذى بدوره توقَّف أثناءَ القيادةِ عند أحد مطاعم الكباب والكفتة فنزل ليشتريَ لهما الطعام وقال :

ـ بصّ أنا هنزل أشترى عشا علشان ناكل ، ليلتنا كدا شكلها هتطول تحبوا تاكلوا حاجه معينه ولا ايه ؟

أجاب أدهم بشرودٍ تامٍ :

ـ ياعم هات اللى هتجيبوا وخلاص !

واتجه بعينيه إلى عبد الرحمن الذى شعر بعيون أدهم مصوبةً نحوه ، لكن الأخير لم يبالى بشأنه وأخذ يفكر : « أيُّ أرض تكون هذه ؟! هذه ليست « مصر» فأنا أعرفها جيداً ، لقد زرتها عدة مراتٍ ولم تكن هكذا ولكن لِمَ قد يكذب هذان

الشخصان فلو كانا ينويان بي شراً، ما كانا ليفعلا ما فعلوه معي في المستشفى، هناك خطب ما ؟!
وفى الجانب الآخر أخذ أدهم يفكر ويقول ، وقد غمرته موجات الحيرة :
ـ أنت مين ؟! وجيت منين ؟ وإيه حكايتك ؟! ملامح وشك بتقول انك صادق ومش كداب بس ازاى ؟
كلها دقايق ونوصل الشقة ونعرف كل اللى احنا عاوزين نعرفه بس الصبر، وأهو يا خبر دلوقتى بفلوس بعد شوية يبقى ببلاش .
وبعد قرابة العشر دقائق عاد مصطفى - ومعه الطعام - باسمًا وقال :
ـ يلا بقى دلوقتى السهرة هتبدأ يا معلم
وصل ثلاثتهم إلى المنزل ، وجلسوا على مائدة الطعام بعد أن تعاون مصطفى وأدهم في إعدادها ، واستهلوا في أكل الطعام ، وبعد أنْ انتهوا من الطعام ، أتى مصطفى ببعض المشروبات الغازية والعصائر، فوضعها وكلُّ هذا ولم ينطق عبدالرحمن بكلمة واحدة إلى الآن ، فقال مصطفى :
ـ ها يا عم عبده ايه بقا حكايتك ، كمان إيه طريقة كلامك الغريبة دي ؟!
أدهم ينظر في ترقبٍ حين قال عبد الرحمن :
ـ سأقصُّ عليكم ما حدث معي بالضبط .

صمتَ قليلاً ثم أردف :
بالأمس استيقظتُ من نومى فوجدتُ نفسى ....

وأخذ يقصُّ عليهم ما حدث منذ استيقاظه وهو ملقياً على الأسفلت ، وما مرَّ به من مشاهدٍ ليست مألوفةٍ بالنسبة له حتى فقد الوعي .

اندهشا مصطفى وأدهم مما قصَّ عليهم ، فما الذى يمكن أن يسبب له هذه الصدمة الخطيرة التي تعرض لها فكل ما قصَّ هي أحداث اعتيادية ليس بها حتى ما يدعو للغرابة أو الدهشة ، ثم همَّ أنْ يكملَ ولكنَّه أراد أنْ يقضيَ حاجته فذهب إلى دورة المياه ، فرأى شكل وتصميم دورة المياه الغريب وزخرفتها الرائعة والعجيبة ، لكنَّه لم يعد يندهش من أيِّ شيءٍ من هولِ ما رأى ، وأخذ يحدث نفسه :

ـ إن أخبرتهم قصتي فقد يعتبروني مجنوناً .. ماذا أفعل ؟

وأسند رأسه الى الحائط وأخذ يقول :

ـ كيف انقلب الحال هكذا !! بالأمس القريب كنتُ أمير المؤمنين لأكبر وأعظم أمة على وجه الأرض ، والآن أنا متشردٌ ، لا مأوى لي في عالمٍ لا أعرفه ، وهلْ يغترب المرء في بلاده ؟! هلْ يستحيل المرء غريباً في بيته ؟!

وبينما هو غارقٌ في تفكيره ، إذْ بعينيه تبصر إحدى الجرائد الملقاة بجواره ، فأول ما تبصر به عينه هو تاريخ اليوم ، فإذْ به

يُصْعَقُ مرةً أخرى عندما رأى أنَّ تاريخ اليوم هو الثاني عشر من سبتمبر ٢٠١٤ م ، فكاد يفقدُ وعيَّه مجدداً لولا أنَّه تماسك هذه المرة ، لكنَّه كاد يفقدُ عقله ، فكيفَ لعاقلٍ أنْ يدركَ أنَّه عَبَرَ أكثر من ٥ قرون أو أكثر عَبْرَ الزمن ، وأيُّ عاقلٍ سيصدقه إنْ قصَّ قصته ؟! استفاق عبدالرحمن من غرقه في دهشته وجنونه حين سمع صوت أدهم ومصطفى وهما يتهامسان فيقول الأخير:

-تفتكر أنه بيكدب علينا وبيصيع ولو فعلا إيه هدفه من كده ، أنا بصراحه شكِّي زاد لما طلب يدخل الحمام بعدما ما كان هيحكي .

فيرد أدهم ، ومازال منغمسًا في التفكير هو الآخر :

ـ ماعتقدش .. بصيت في عيونه وحركه عنيه وهو بيتكلم بتقول صادق مية في المية ، بس استنا لما يطلع وتشوف قصته .

قرَّر عبدالرحمن أنْ يتظاهرَ بفقدان الذاكرة ، وأنَّه لا يتذكرُ شيئاً عن نفسه سوى اسمه ، وأنَّه لم يولد في مصر ولا يدرى أيَّ شيءٍ آخر عن ذاته ، علَّه ينجو من نوبات الشك من قِبل صديقيه والناس .. اطمأن إلى هذه الفكرة ، فخرج عليهم عازمًا على أنْ ينفذَ ما اتفق عليه مع نفسه ، وبينما يخرج إليهم أحسَّ بشيء في جيبه ، وإذْ هي بطاقة هويته ، وهو لا يدري فأمسكها بيده ، وجلس مع صديقيه ؛ ليقولَ ما عزم على قوله ، فإذْ بهما يلمحان ما يمسك عبدالرحمن في إحدى يديه ، فيثيرَ تساؤلهما قليلاً ،

فأخذها مصطفى من يديه وقال له:

- بطاقتك مكتوب فيها ، اسمك عبدالرحمن حسام ، ومحل الاقامة الجيزة ف ازاي اللي أنت بتقوله دا ؟!

و أدهم يراقبه ويراقب ملامح وجهه ، فلقد كان الأخير مطَّلِعًا إلى حدٍ ما في علم الفراسة ، وما إنْ أنهى مصطفى حديثه حتى قال عبد الرحمن:

-لقد فقدتُ الذاكرة ، ولا أتذكر أيَّ شيءٍ حتى أنَّني ... .

قاطعه أدهم قائلاً :

ـ عبده ، قبل ما تدخل الحمام كنت صادق وكلامك صحيح أما من ساعة ما دخلت الحمام وطلعت وأنت بتكدب ، أرجوك احنا مش عاوزين منك حاجه ولا في نيتنا أي حاجه وحشة ، فلو سمحت اتكلم معانا بصراحه .

ارتبكَ عبد الرحمن قليلاً واضطرب ، ثم نظر إليهم نظرةً مطولةً ، معبرةً عن أسفه لما فعل ، وقال :

ـ قصتي غريبةٌ ولنْ تصدقونَني حتى أنا لا أصدقها ، فماذا عندها ؟ ستظنونني مجنوناً !

فقال أدهم : هنصدقك ما تقلقش .

فنظر إليهما عبدالرحمن لبرهةٍ ثم أخذ يقول :

ـ حسناً سأخبركما بكلِّ شيءٍ .. أنا اسمي «عبد الرحمن بن حسام ، من قبيله تسمى « بنى حَمَدْ « ، وكنتُ أحد وزراء أمير المؤمنين

« نور الدين « رحمه الله ، وبعدها توليتُ إمارةَ المؤمنين ، وكلُّ هذا كان بالأمس القريب ، وكنتُ ..

وأخذ يقصُّ عليهم بعضَ المواقف التي مرَّ بها ، وأخذ يصفُ لهم عصره كيف كان ؟ وكيف كانتْ الناس آنذاك ويصفُ مجدَ المسلمين والإسلام وتقدمهم ، ثم قال :

ـ وفى ليلة كنتُ أناجي ربى وأفكِّر في أحوال الناس ، ومن ثُمَّ لا أدري ماذا حدث ! واستيقظتُ فوجدتُ نفسي في الشارع وحدث ما قصصته عليكم .

نظر مصطفى وأدهم إلى بعضهما البعض في دهشةٍ كبيرة ، وقال مصطفى غيرَ مصدِّقٍ أو لنقلْ منبهراً بما سمع :

ـ عجيبٌ أمرُك ، لكنْ كيف ذلك ؟ لابدَّ وأنَّك كنتَ تحلم بهذا ولكنَّك لا تتذكر قبلها ، آهٍ سينفجر عقلي !

وأدهم عاجزٌ عن التفكير، ويقول مندهشاً:

ـ ملامح وجهك تقول أنَّك صادقٌ، وأيضاً دهشتك عندما فقدتَ وعيك وتللك الصدمة .... لا أصدق أنِّى أتعرض لذلك الموقف !

نظرا مصطفى وأدهم لبعضهم مرةً أخرى ، ولكنْ تلك المرة كانت نظرتهم مختلفةً تماماً فلقد انفجرا ضحكاً ، متناسيين ما قاله عبد الرحمن لتوه والذي نظر إليهما مندهشاً من انفجارهما ضحكاً بشكلٍ مفاجئٍ ، فكان القول لأدهم حينما قال :

ـ احنا اتأثرنا بطريقة كلامك وبقينا بنتكلم زيك يا عبده !

فابتسم عبد الرحمن وكذلك جميعهم ، وقال الأول :
ـ أقسم لكم أَنَّني لمْ أولدْ هنا ، ولا أتذكر أيَّ شيء من الماضي سوى ما حكيته ، رُبَّما كنت أحلم لكنَّني لا أتذكر سوى ما حكيته لكم .
فقال مصطفى متفهماً :
ـ ولا يهمك يا صاحبي أنا قاعد في الشقة دي لوحدي ، من النهاردة هنعيش مع بعض وهنعرفك كل حاجه عن مصر اللى هي بقتْ بلدك خلاص .
قالها مصطفى وهو مبتسماً كعادته ونظرا إليه أدهم ، وأومأ برأسه بابتسامةٍ عذبةٍ صادقةٍ تعبر عن صدق قولها وطيبتهما ، فكاد عبدالرحمن أنْ يجهشَ في البكاء إثر ما سمع وراح يحضنهما وهو يبكى قائلاً :
ـ نِعْمَ الأصدقاءِ أنتم ، لقد أغاثني الله بكم !
فاحتضنهما واحتضناه ، ثم قال أدهم :
ـ أوعى تحكى قصتك دي لحد والا هيفتكروك مجنون ، واللي يسالك دا إن حد سالك قوله إن اسمك عبد الرحمن حسام من الجيزة وأوعى تحكى لحد الحقيقة ؛ لأن احنا منعرفش ايه القصة بالظبط وحتى أنت ما تعرفش إيه هي الحقيقة فخليك زي ما بقولك ، وواحدة واحدة هتعرف كل حاجة وهتعرف تتعامل مع الناس ان شاء الله .
فأومأ برأسه متفقاً دون أنْ ينطقَ بكلمةٍ واحدةٍ ، فهو يعلمُ أنَّ

أدهمَ على حقٍ ، وليس من اللائقِ أنْ يسبِّبَ لهما أيًّا من المتاعب جزاءَ ما فعلاه له .

ومرَّت الأيام ، وازداد تقرُّبهم من بعضهم فصاروا أعزَّ الأصدقاء ، وأصبح عبد الرحمن يعلم الكثير عن البلاد وعن أحوال الناس ، كما أنَّه تقرَّب إلى بعض الناس كجيرانه وإلى الكثيرين في المسجد ، فلقد كان عبد الرحمن ذا علمٍ وفيرٍ في الدين فكان يخطب في الناس أحياناً ويصلى بهم ويفضُّ الصراعات المتعلقة بأمور الدين ، لذا نالَ إعجابَ وحبَّ وصراحةَ أناسٍ كثرين .

وذات يوم نزل إلى السوق ؛ ليبتاعَ بعض الأغراض التي يريدها ، فبينما هو يمشى تذكَّر سوق أيامه القديمة بكل تفاصيله .

فقديما .. كان أميرُ المؤمنين يمرُّ كلَّ يومٍ ؛ ليرى أحوال الناس ، وليشرفَ على التجار بنفسه ، وكان هناك الكثير من الحراس منهم المعروف ، ومنهم من هو غير ذلك ، وكلٌّ لمتابعة الأحوال قاطبةً .. فمثلاً إنْ حاولَ أحدهم الغش في بضائعه أو ما شابه ، أو التلاعب بأيِّ طريقةٍ كانتْ .

أما الآن ، لا أحدَ يمرُّ ولا أحد يبالي بأمر الناس عن قرب ، أو عن بعد وأصبح التجار يغشون ويزورون على مرأى ومسمع من الناس والحراس ، إنْ تواجد الحراس .

وبينما هو يمرُّ، ليبتاعَ أغراضه التي يريدها ، فإذْ به يسمعُ صوتَ أحدِ التجار ، أو لنقلْ الباعةُ يبيعون الفاكهة المعبئة أمامه

في صناديق وعبوات وكذلك الخضروات ، فتذكَّر موقفاً كهذا تماماً لشخصٍ يدعى « موسى الفارسي « ، وكأنَّ الأيامَ تكررُ نفسها مع تغير الأشخاص .

* * *

وقفَ « موسى الفارسي « وأمامه فاكهته وخضرواته ، فأقبل نحوه رجلٌ يريد أنْ يبتاعَ شيئاً ما ، فقال له موسى :

« تفضَّلْ ، كيف يمكنني أن أساعدك ؟! «

فردَّ الرجل :

ـ أريد شراء بعض الفواكه والخضروات .

فوضع الرجل يده على أحد عبوات التفاح أمامه والأخرى على البرتقال ، وقال:

ـ جميلةٌ هذه الفاكهة كمْ ثمنها ؟ وأعلم أنَّني سألت علي ثمنها قبل مجيئي إليك .

فرد موسى قائلاً :

« يساوي دينارين «

فردَّ الرجل مندهشاً:

ـ كيف ذلك ؟ دينارين فقط ! لكنَّ هذا ثمنٌ بخسٌ جداً ، مع أنَّ الفاكهةَ جميلةٌ وتساوى أكثرَ من ذلك ؟

فقال موسى :

ـ ليستْ بهذا الجمال ففي باقي الشوال ليس بهذا الحسن الذى

يستحق أكثَرَ من ذلك .
ـ وكيف عرفتَ ذلكَ ، إنَّه يبدو رائعاً !
ومدَّ يده داخل الشوال فيخرج بالفاكهة ويجدها جميلةً ، ومدَّ يدَه حتى الثلث الأخير ولم يجدْ شيئاً سيئاً ، فحرَّكَ رأسه يمنةً ويسرةً في تساؤلٍ واندهاشٍ ، وهو ينظر إلى موسى الذى قال بدوره :
ـ هي كما أقولُ لكَ وعلى هذ ا الاساس اشتريتها وعليه سأبيعها .
فاندهش الرجل من أمانة موسى وصدقه ، فقال :
ـ حسناً سأشتريها منكَ وبخمسة دنانير .
وأعطاه الدنانير وأخذ ما اشترى ، ومضى في سبيله مندهشاً من موسى الفارسي .

* * *

واستفاق «عبد الرحمن «من شروده حينما سمع صوت البائع وهو يقول لأحدهم :
ـ ماشي أنا هاخد البضايع دي وهى كدا بس لحظه واحدة ، خد يا ابنى عاوزك تفضى الشوال ده وتعبيه من تاني بس حطلى الشوية الحلوين دول من فوق ، سامعنى يلا .
أدرك عبد الرحمن أنَّ هذا التاجر يشترى من تاجرٍ كبيرٍ؛ ليبيعها في السوق وأنَّه نادى إلى أحد عماله ليفعل ما أمره به ، واندهش عبد الرحمن مما حدث فقرَّرَ أنْ يراقبَ ما الذى سيحدث ، وظلَّ

مترقِّباً حتى أنهى العامل ما أمره به التاجر، وقدَّم هذا الشوال للبيع ، وحينها قال له التاجر :

ـ حطه بقا وسط شويه الأشولة اللى هناك وعلقلى عليها نفس الثمن !

فرد العامل:

ـ لكن يا معلم ... .

قاطعه التاجر قائلاً وبصوتٍ عالٍ ، فيه شيءٌ من الغضب :

ـ ملكش دعوة أنت ، اسمع اللى بقولك عليه وأنت ساكت ، يلا بسرعة .

أومأَ الرجل برأسه موافقاً وفعل كما أمر، وجاء أحد الرجال ليبتاع الفاكهة ووضع يده على هذا الشوال وأبدى إعجابه بتلك الفاكهة الظاهرة له على السطح ، فقال التاجر :

ـ الفاكهة دي أحسن نوع في السوق كلُّه ومش هتلاقي زيها عند حد .

فردَّ المشترى :

ـ أنا عارف يا معلم إن بضاعتك أحسن بضاعه وعلشان كدا أنا جايلك أنت بالذات .

فابتسمَ التاجر وقال في فخرٍ وكأنَّه أهلٌ لما يقوله الرجل :

ـ ربنا يخليك ، دا من ذوقك وإنْ شاء الله هتكون عند حسن ظنك فينا .

واشترى الرجل الفاكهة ورحل بعد أنْ دفع أعلى سعراً يمكن أنْ يُدفعُ لفاكهة من هذا النوع ، ولا يدري المسكين أنَّها فاسدةٌ .
صُعِقَ « عبد الرحمن « من هَوْلِ الموقف .. أيمكنُ أنْ يحدثَ هذا في بلاد المسلمين ؟! أصبح لا يدرى أين يسير ! أو حتى إن كان ما حدث حقيقياً أمْ لا ؟! حتى وصل إلى المنزل وكان في حالةٍ يُرْثَى لَهَا !

الفصل الرابع

وصل مصطفى إلى المنزل ورأى عبد الرحمن في حالته تلك ، فتعجبَ فسأله وقد بدتْ على وجه علامات القلق:

ـ مالك يا عبده فيه ايه شايفك زعلان ، فيه حاجة حصلت ولا ايه ؟!

حرك عبد الرحمن رأسه يميناً ويساراً ولم يتفوَّه ببنت كلمة ، فقضب مصطفى حاجبيه وقال :

ـ امال مالك ايه اللي حصل ، قولي !

فقصَّ عليه عبد الرحمن ما حدث في السوق وهذا الموقف الذي تذكَّره في نفس اللحظة ، فشرد مصطفى وهو ينظر إلى عبد الرحمن وقال في قرارة نفسه :

ـ ماله دا ، دا شكله اتجنن هو الحلم اللي حلمه هيفضل مسيطر عليه ولا ايه ، دا كدا هيخش السراية الصفرا وهيجننا معاه ، امممم وبعدين .

واعتدل لينظرَ إلى عبد الرحمن ، وأدرك أنَّه لم يعرفْ بعد رُغْمَ كبر سنه ما يحدث حولنا ، رَّبما أنَّه حقاً فقد ذاكرته ، وأراد أنْ

ينسيه هذا الموقف بموقفٍ آخر قد يهون عليه ، ويعلمه أنَّ هذه الدنيا ليستْ كما يظنُّها وجاءتْ بباله فكرةٌ ، فقال لعبد الرحمن في حماسٍ :

- عبده بقولك !

فنظر إليه عبد الرحمن مستجيباً دون أنْ يتحدثَ ، فأردف مصطفى :

-تعالى عاوزك هنروح مشوار .

فردَّ عبد الرحمن:

- إلى أين ؟ أنا تَعِبٌ ولن أقوى على الذهاب إلى أيِّ مكان .

فقال مصطفى وهو يبتسم :

- يا جدع بقولك مشوار مشواااار .

* * *

في المدرسة ..

الاستاذ / علي معلمٌ للغة العربية ، طويلُ القامة ، سمينٌ إلى حد ما ، في الثلاثينيات من عمره وملتحٍ ، دخل إلى الفصل ، فقام الطلاب احتراماً له فقال : « السلام عليكم « ، ثم ألقى بغضبٍ ما بيده من كتبٍ وعصا طويلة ، فردَّ الطلاب في صوتٍ واحدٍ :

-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

ثم أخذ يكتب بالطبشور على السبورة ، وفي الخلف قال أحد

الطلاب لزميله :
-ماله الاستاذ علي جاي متنرفز ليه كدا ؟!
فردَّ الآخر :
- يعني أنت أول مرة تشوفه كدا ماهو علطول على الحال دا .
فسمع الاستاذ علي صوتهما ، فقال :
-الصووت ...مش عاوز أسمع نفس حد .
والتفَّ ناحية الطلاب وقال لأحدهم :
- قمْ يا محمد أعرب هذه الجملة (أكلت ديكاً وديكاً) !
وقف محمدٌ وأعربها ، ولكنَّه أخطأ إعراب الكلمة الأخيرة (وديكاً) فسخر منه المعلم ، ووبَّخه ببعض الكلمات قبل أنْ يشيرَ إلى أحد الطلاب قائلاً :
-قمْ أنت يا محمود وأعربها له .
فلم يعرفها محمود أيضاً ، فأشار إلى طالب آخر يسمى إسلام ، فأعربها ، فتبسَّمَ له الاستاذ علي وقال في فخرٍ :
-أحسنتَ يا سمسم هو دا الإعراب .
ثم أمسك عصاه وانهال على محمود فضربه بالعصا ضربتان خفيفتان ناصحاً إياه بالتركيز والمذاكرة ، ثم اعتدل على محمد وقضب حاجباه في غضب وقال :
- أنت عيل فاشل ، وعمرك ما هتنفع مش عارف تعرب امال هتتعلم امتى !

ثم انهال عليه ضربا بعصاه المؤلمة فضربه قرابة الستِ ضرباتٍ بقوةٍ ، والولد يتأوه ويصرخ والاستاذ علي يضرب بلا رحمة .

بعد انتهاء الحصة والطلاب خارجون، أخذوا يتسامرون فقال أحدهم:

-شوفتْ الاستاذ علي ضرب محمد ازاي عشان مش بياخد عنده درس وكمان احتمال ينزله في أعمال السنة .

فرد عليه آخر :

- لا يا عم أنا هروح اسأل العيال على ميعاد الدرس وأروح معاهم ، شوفت محمود معرفش يجاوب وضربه عصيتين بالراحة لكن محمد اللي هو جاوب شوفتوا عمل فيه ايه ، دا غير الشتيمة وعلى ايه يا عم أروح عنده أحسن .

وقال آخر :

- حتى على الأقل نضمن أعمال السنة .

وخرج الطلاب إلى ساحة المدرسة ، حيث كان محمد يجلس في أحد الأركان غاضباً ، فلقد كان محمدٌ ولداً ذكياً ومجتهداً ، هزيلَ القامة قصيرَها ، وكان والده فقيرَ الحال ، حالُه حالُ الكثيرين في المدرسة وأتى عليه بعض الطلاب وقالوا له:

- محمد بنقولك إيه يا صاحبي ..

* * *

ركب عبد الرحمن ومصطفى السيارة وقال الأول :
- لحد ما نوصل هكلمك عن حاجة ممكن تكون سمعت عنها قبل كدا ، بس لأ ما أعتقدش .. أكيد مسمعتش عنها قبل كدا .
وأخذ يحدثه عما حدثه عنه وصُعق عبد الرحمن مما سمع وما صدق ، حتى وصلا إلى مكان مظلم ، بل شديد الظلام رغم أنَّهم في وضح النهار، مكان يشبه النفق أو السرداب ومن ثمَّ إلى مكان وضحت فيه الرؤية قليلاً وحينها رأى عبد الرحمن ما أوجع قلبه وملأ نفسه حزناً ، فلقد رأى ما لا يحبُّ أبدًا أنْ يراه .

* * *

-ما تيجي تاخد معانا درس عند الاستاذ علي ، أديك شوفت بعينك هو عمل معاك ايه لما أنت مش بتاخد عنده درس ولما محمود وإسلام بياخدوا عنده درس عاملهم ازاي ، وحتى علشان نضمن أعمال السنة .
رد محمد قائلاً :
-أنا مش عارف هو مربي دقنوا ازاي ؟ اللي زي دا مسوء سمعة الإسلام والمسلمين اللي يشوفوه يقولك دا أكتر واحد مراعي ربنا في شغله ، فعلاً الموضوع مش شكل خالص ، يلا الله المستعان ، نروح عنده وخلاص .
قال أحد الطلاب :

- يا ريت كل المدرسين زي الاستاذ محمود بتاع العلوم راجل فعلا بتاع ربنا ، بيدخل الحصة من غير عصاية ولا بتاع وبيشرح الحصة كأنه بيشرحها لابنه مش بيسيب كلمة ميشرحهاش .
ويضيف آخر :
- لا وبيعامل كل الطلاب معاملة واحدة زي اخواته الصغيرين وبيخاف على مصلحة كل واحد وعلشان كدا الطلبة بتحبه وربنا مباركله وهيكرمه .
وقال محمد :
- وبيرفض رفض تام إنه يدي دروس خصوصية ، وأي حد بيعوز أي حاجة بيرحلوه في الفسحة أو بين الحصص مبيقولش لا ، ولا تعالوا الدرس ولا أي حاجة .
وقال آخر:
-وعلشان كدا ربنا مباركله في فلوسه وولاده ، أينعم هو رجل غني لوحده ومش مستني شوية الفلوس بتوع المدرسة لكن عنده مبدأ ، وعنده أخلاق .
شرد محمد وقال في ذهنه :
- فعلا الموضوع موضوع مبدأ وأخلاق .
وبعد مرور أيام دخل الاستاذ علي الفصل وقد امتُحن الطلاب امتحانهم الشهري ، وجاء ليخبرهم نتائج امتحانهم ويفاجأ محمد بنتيجته وقد نادى المعلم نتائج بعض التلاميذ حتى وصل إلى

نتيجة محمد وقال :
-محمد ... .

* * *

رأى عبد الرحمن المشهد الذي صدمه حقَّ الصدمةِ ، وكاد يفقد وعيه وكاد أنْ يجهشَ في البكاء على أحوال المسلمين .. كيف لاذَ بنا الحال إلى هذه الدرجة ؟! وركب مع مصطفى سيارته عائدين إلى المنزل ومصطفى يقول في ذهنه :
-ايه اللي أنا عملته دا أنا جيت أكحلها عميتها ولا إيه ، بس لا كان لازم يشوف كل حاجة علشان يفوق ويبطل الصدمات والله ما أنا عارفه فاقد الذاكرة فعلا ولا ايه دنيته دا .. مش عارف حاجة خالص .

ونظر إلى عبد الرحمن في شفقةٍ مشوبةٍ بالحيرة .. أمَّا عبد الرحمن فكأنَّه جالسٌ بجسده فقط أمَّا ذهنه ففي عالمٍ آخر، كان يفكر فيما رأى وتذكر المشهد كاملاً ، حيث رأى مخزناً ضخماً يعمل به الكثير من العمال ، ويقف معهم رجلٌ ينعكس من ملبسه وطريقة إعطائه للأوامر أنَّه صاحبُ العمل وقال موجِّها كلامه للعمال :
- يلا يا ابني أنت وهو حطوا البضايع في الأشولة والأقفاص بتاعت الفاكهة .

ورأى أشياء تشبه اللفافات وقال لمصطفى :
- ما هذا الذي يضعونه وسط الفاكهة ؟
ابتسم مصطفى وقال :
-فاكر أنا قولتلك ايه واحنا جايين هه.
نظر عبد الرحمن بعيداً ليسترجعَ ما حدث في الطريق ؛ لأنَّه لم يكن يعتقد أنَّه يحدثه عن شيءٍ له صلة بما سيراه ، أو على الأقل ليس هذا ما سيريه إياه وهو في هذه الحالة ، وتذكَّر ما قاله مصطفى في السيارة :
- عبده أنت عارف إحنا رايحين فين ؟
فلم يردَّ عبد الرحمن وأومأ برأسه رفضاً ، فأردف مصطفى :
- رايحين مشوار هيعرفك حاجات كتير، بس بقولك تسمع عن حاجة اسمها مخدرات .
فقال عبد الرحمن ويبدو أنَّه غيرُ مهتمٍ :
-وما هي المخدرات ؟ لم أسمع عنها قط .
فقال محمود :
- المخدرات يا صديقي ببساطة مواد تخمل العقل ، وتدمِّر نفسية وصحة من يشربها ، حتى لا يكون له أي مصير سوى الموت ، وطبعا هي محرمة شرعا وكمان بيعاقب عليها القانون .
بدا الأمر ملفتاً للنظر بالنسبة لعبد الرحمن الذي اعتدل ناحية مصطفى وهو ينصتُ في اهتمامٍ ، وابتسم الأول قبل أنْ يكملَ

شرح ما هي المخدرات وتأثيرها بالتفصيل ، وبدا مهتماً لكلام مصطفى الذي أفاض في شرح ماهيتِها ، واستيقظ عبدالرحمن من شروده عندما قال بحزنٍ والدهشة تلتهمه :

- أهذه هي المخدرات ؟! هم يضعونها هنا ، لكنْ لماذا ؟!

فأجاب مصطفى :

- أيوة دا نوع من أنواع المخدرات ، وبيحطوها وسط اشولة وصناديق الفاكهة علشان يهربوها ويوصلوها للتجار الصغيرين ، علشان يبيعوها للشباب والمستهلكين .. عموماً من كل الفئات شباب وبنات وأطفال حتى وكبار وكل الفئات والأعمار، ملهاش فئة معينة يا صاحبي ولا عمرمحدد للأسف ، وبياعينها معندهمش ضمير .

وقاطعه عبد الرحمن:

- ومِنْ ثمَّ يبيعونها للشباب ، وتبدأ مأساتهم مع المخدرات !

ثم التفتَ مرةً أخرى إلى الرجل الذي أمرَ العمال بوضع المخدرات في الصناديق ، ورآه يأمر أحدهم ويقول :

- حط نص الفاكهة البايظة دي في أشولة لوحدها ، والنص التاني املأ نص الشوال بايظ وحطه من تحت واملى النص اللي فوق منه فاكهة سليمة من أجود الأنواع .

تعجَّب عبد الرحمن مِمَّا سمعه ، ولكنَّه لم يكنْ الوحيد ، فالعامل الذي أُمر بهذا تعجَّب أيضاً ولكنْ الأخير بادر بالسؤال حيث قال :

- طيب وليه يا ريس !! ما نحط البايظ لوحده ، ونحط السليم لوحده .
فابتسم الرجل وقال :
- لا يا حمار أنت لما تعبي البايظة لوحدها وتروح تبعها على إنها بايظة وبسعر رخيص تكسب ثقة العميل ، ولما يشوف وش الشوال بتاع الأشولة التانية ويلاقيها من أجود الأنواع هتزداد ثقته فينا ، ولما يخدها ويخزنها وبعدين يلاقيها بايظة هيشيِّل نفسه وعُمَّاله المسئولية ، وعمره ما هيفكر إنْ احنا اللي اديناهاله بايظة .
فقال العامل مبتسماً :
- فعلا معلم يا معلم .
فأطلق الأخير ضحكةً عاليةً شريرةً ارتجَّت لأجلها الأرجاء .

* * *

غادر عبدالرحمن ومصطفى المكان وكان الأول بائساً ، حزينَ النفس ، يجلسُ شاردَ الذهن وغارقًا فيما جرى ، واستفاق من شروده ، عندما سأل :
- مصطفى ، أين الشرطة وكل هذا الذي رأيناه يحدث في بلادكم !!

* * *

ظلَّ محمد يترقَّب أنْ ينطقَ المعلم درجته ، فقال الأخير :
-محمد أنت درجتك هي الدرجة النهائية ، أحسنتْ .
تعجَّبَ محمد كيف حصل على الدرجة النهائية ، مع أنَّه لم تكن إجاباته لتمكِّنه من الحصول على الدرجة النهائية ، بالرغم من أن المرة السابقة كان إجاباته أفضل من هذه المرة ، ومع ذلك حصل في المرة السابقة على درجةٍ سيئةٍ !! وأخذ يحدِّثُ نفسه ويقول:
- كل دا علشان العيال ياخدوا عنده درس خصوصي ، في أول مرة لما مكنتش باخد عنده درس شوف حصل ايه ولما بقيت باخد عنده درس أخدت الدرجة النهائية ، ههه سبحان الله !
بعد الحصة خرج الطلاب وأخذوا يمازحون بعضهم البعض ، ويداعبون محمداً لحصوله على الدرجة النهائية ، وعندما وصلوا إلى ساحةِ المدرسةِ أخذوا يتحدثون ، وقال أحدهم :
- والله اللي حصل النهاردة مهزلة بمعنى الكلمة .
وقال آخر مردفا :
- والله عندك حق شوف لما روحنا أخدنا عنده درس شوف اتغير معانا ١٨٠ درجة ، سبحانك يا ربي !!
ضحك الطلاب وأخذوا يتحدثون قليلاً ، ثمَّ اتجهوا إلى الفصل ، إلى حصة الاستاذ / محمود مدرس العلوم .

* * *

في مديرية الأمن ..
-استدعيلي الضابط حسن مهران رئيس المباحث حالاً .
قالها مدير الأمن السيد اللواء / حمدي الونش في غضبٍ ، وبعد مرور بعض دقائق ، أتى رجلٌ في الأربعينيات من عمره ، طويلُ القامة ، مفتولُ العضلات ، أسودُ الشعر، أبيضُ البشرة ، بنيُّ العينين ، وقال بعد أنْ أدَّى التحيةَ العسكريةَ :
- تحت أمرك يا فندم .
فقال اللواء :
- عمليات تهريب المخدرات كترت يا حضرة الظابط ، لا والمشكلة الأعظم إنكم عارفين المجرم ومش عارفين تمسكوه متلبس ، رد يا حضرة الظابط مش عارفين تمسكوه ليه ؟!
بدتْ علامات الضيقِ والقلقِ على وجه حسن ، وتلعثم قبلَ أنْ يقولَ :
- يا فندم هو بيبقى واخد حذره جامد ، والغريب أنه بيكون عارف اننا هنكبس عليه ، علشان كدا بيفلت بكل سهولة .
ضحك اللواء ضحكةً عاليةً مليئةً بالغضبِ الممزوجِ بالسخريةِ قبل أنْ يقولَ :
- عذر أقبح من ذنب يا حضرة الظابط .. أنت المفروض تكون مكسوف من نفسك وأنت بتقول كلام زي دا ، لأن دا مش كلام ضابط شرطة ، وبعدين بيعرف إنكم هتكبسوا عليه يبقى فيه

ما بينكم خاين يا حضرة الظابط ، عموماً فيه معلومات وصلت لنا بتقول ان الدرويش بيجهز لصفقة مخدرات ، وهينقلها عن طريق الفاكهة اللي بيبعها للتجاركالعادة وما أتمناش إنه يفلت المرة دي يا حضرة الظابط لأنك أنت المسئول قدامي ، اتفضل يا حضرة الظابط دا ملف بتفاصيل المعلومات اللي وصلت لنا عن العملية دي !! ربنا يوفقكم ومتنساش الخاين لازم تعرفه مين .
أخذ حسن الملف وأدى التحية العسكرية قبل أنْ يقولَ :
- إن شاء الله يا فندم نكون عند حسن ظن حضرتك ، ونقبض على الدرويش ، ونعرف مين الخاين اللي وسطينا .
ثم انصرف وهو يبتسم ابتسامةً خبيثةً .

* * *

ضحك مصطفى من قَوْلِ عبد الرحمن ، وقال :
- الشرطة ! طيب فاكر الراجل اللي جه متنكر للدرويش اللي هو المعلم اللي كان واقف في المخزن والدرويش اداله شنطة .. صمتَ عبد الرحمن قليلاً يسترجع ما حدث مجدداً في أسفٍ ، ثمَّ قال :
- نعم ، حسبته أحد عماله أعطاه هذه الحقيبة ليقضيَ له شيئاً ما .
ضحك مصطفى مرةً أخرى ، وقال :
-دا رئيس المباحث / حسن مهران ، وكان بياخد رشوة علشان

يفوتله العملية الجاية زي كل مرة ، هه وتقولي شرطة ، قال شرطة قال .

سمع عبد الرحمن الكلماتِ ، وجالَ بخاطره الكثير ، ولكنَّه آثرَ أنْ ينتظرَ حتى يصلا إلى المنزل ، وقال لمصطفى:

- عندما نصلُ إلى المنزل لديَّ الكثير لأقوله ولأستفسر عنه .

ابتسمَ مصطفى ، وأحسَّ أنَّ مجيئه أتى بفائدةٍ ، ولو أقل مما كان يأمل ، ثمَّ قال:

-ماشي يا عم عبده ، وأنا تحت أمرك في أي حاجة .

* * *

وقف الضابط حسن مهران أمام مجموعة من الضباط وقال :

-المرة دي الدرويش مش لازم يهرب مننا ، أنا معايا معلومات أكيدة عن العملية الأخيرة ، وكمان الخاين اللي وسطينا هيتكشف المرة دي لأن محدش يعرف المعلومات دي غيرنا ، يعني الخبر لو اتسرب هيبقا احنا اللي سربناه ، وواحد فينا هو الخاين ، سامعين !؟

وأعطى لكلِّ واحدٍ نسخةً من ملف العملية ، وقال :

- مش عاوز أي حد من العساكر أو أمناء الشرطة يعرف أي حاجة عن العملية ، وكمان الخطة هتكون كالآتي .. احنا هنراقب بيت ومخزن الدرويش من دلوقتي لحد يوم التنفيذ ودبة النملة عاوز

أعرفها .
أدى الضباط التحية العسكرية ، وانصرفوا ونفذوا كل ما أُمروا به .
في المكتب ..
جلس حسن مهران وابتسم ابتسامةً ساخرةً ، وأمسك بالهاتف الذي يوجد في حجرة مكتبه ، وأجرى اتصالاً ثم قال محدثاً من يهاتفه :
- أيوة يا درويش ، بقولك ... .
وقصَّ عليه كلَّ ما حدث منذ استدعاه السيد اللواء ، وحتى وضع الخطة مع الضباط ، ثم قال للدرويش :
- بقولك ايه يا درويش أجِّل العملية يومين ومشي كل حاجة زي ما هية وكأن العملية تمت ، وفهِّم رجالتك إن خلاص العملية هتتم في اليوم المحدد بس بطريقة تانية .. إنك هتطلع بالعربية من باب تاني ، وفعلا طلّع عربية من باب تاني وطريق تاني بس مكشوف شوية ، واطلع أنت بالعربيات عادي كأنك أنت اللي هتنفذ وخلينا إحنا بقى نعمل فيها ناصحين ونراقبك ونراقب العربية التانية ، وفي الآخر منلقيش حاجة وتتقدم أنت بشوية شكاوي وبلاغات ضد الحكومة ، وبعدها بيومين بالظبط محدش أبدا هيشك إن أنت هتهرب البضاعة ، وبكدا تعمل أنت اللي أنت عاوزه ومحدش هيفكر إنك هتعمل كدا .. ها قولت إيه ؟!
ضحكَ الدرويش في إعجابٍ وقال :

- والله أنت خسارتك في البلد دي ، دا أنت عبقري ، عبقري ايه دا أنت مصيبة يا جدع ، والله ليك عندي حلاوة غيرعمولتك اللي أنت أخدت نصها ، وبعد العملية النص التاني مع الحلاوة بتاعتك .

قال حسن وهو يضحك :

- يا باشا احنا تحت خدمة الناس المحترمة اللي بتقدر، ويهمها مصلحة البلد ، يلا بقى سلام دلوقتي .

قالها عندما سمع صوتَ أحدِهم قادماً من الخارج ، فأغلقَ الهاتف .

الفصل الخامس

دخل الاستاذ محمود القصيرُ القامةِ إلى حدٍ ما ، بشرته بيضاء تميل للسواد ، شعره أسود ناعم ، بدينٌ قليلاً ، وأيضاً في الأربعينيات من عمره .. دخل فقال :

-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فردَّ الطلاب بعد أنْ وقفوا احتراماً له :

-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

ثم أشار إليهم بالجلوس بوجهه البشوش المشرق الذي لا تفارقه الابتسامة حتى في أصعب الأوقات ، وأخذ يشرح الدرس للطلاب ، والطلاب مندمجون فهم يحبونه ويحبهم علاوةً على طريقة شرحه الأكثر من رائعة ، وقدرتِه على توصيل المعلومة بأيسر السبل وأبسطها .

وبعد أنْ انتهى الاستاذ محمود من شرح الدرس ، وإجابة أسئلته الموجودة في كتاب الوزارة ، وأوشكت الحصة على الانتهاء ، وانتهى المعلم من كل شيءٍ يخصُّ موضوع الدرس ، فقال موجهاً كلامه لهم :

- احنا كدا خلصنا الدرس وحلينا أسئلته .. حد عنده أيّ سؤال أو أي استفسار ؟ أو فيه أي جزئية مش مفهومة ؟
صمتَ بعض الطلاب ، والبعض قد حرك رأسه يميناً ويساراً ، ثم استطرد المعلم :
- بص يا ابني يا حبيبي أنت وهو ، دا حقك فمتسبش حقك أبدا ، أنا الحكومة بتتديني فلوس علشان أشرحلك وأفهمك ، يعني مش بعمل كدا لله وللوطن .. عامةً أنا بقول كلامي دا علشان أبقى بريء منكم وضميري يبقى مرتاح .
ثم ساد الصمت للحظات ثم قال محمد :
- يا استاذ محمود أنت ليه مش بتتدي دروس خصوصية ؟
قضَبَ الاستاذ محمود حاجبيه في غضبٍ ، وقال:
- طيب ، هو أنا قصرت معاكم أو مع أي حد في الفصل في أي حاجة ؟ هل فيه موضوع معين أنا مشرحتوش كويس أو قصرت معاكم فيه ، هل في مرة حد فيكم أو غيركم قصدني في أي حاجة في أي وقت وقولت لا ؟!
أسرع محمد بالرد وهو يحرك رأسه يميناً ويساراً ويقول :
- لا لا يا استاذنا حضرتك فهمت غلط .
فقاطعه المعلم وقال :
- انا كنت ممكن أتقبلها من أي حد تاني برة الفصل اللي أنا بشرحله ، لكن أنتم شايفين أنا بحاول بقدر المستطاع مخليكمش

محتاجين لحد أو حاجة تانية برة الفصل ، وبعد كل دا تيجي تجبلي سيرة الدروس الخصوصية !

دقَّ الجرس مباشرةً بعد انتهاء الاستاذ محمود من قول جملته الأخيرة معلناً انتهاء الحصة ، فانصرف الأخير في غضبٍ دون أنْ يسمعَ مبرراً أو يسمعَ حتى كلمةً واحدةً لمحمد ، وتلك كانت المرة الأولى التي رأى فيها الطلاب استاذهم البشوش بهذه الحالة ، وانصرف الاستاذ محمود مسرعاً نحو الخارج معلناً عن ضيقٍ انتَابَهُ ، وعزةٍ ومَكْرُمَةٍ حلَّقتْ في أعالي قلوب طلابه ، بل ومكانةٍ ارتفعتْ إلى أعلى الأعالي في نفوسهم .

في ساحة المدرسة الواسعة العامرة ببعض الشجيرات حول مستطيل ليس بالكبير وليس مستقيم الحواف ، هُيأ ليكونَ ملعبَ المدرسةِ ومستقرَّ اصطفافِهم صباحاً قبل ابتداء اليوم الدراسي ، جلس محمد القرفصاء حزيناً فاليوم أغضبَ أعزَّ معلمٍ لديه وأقربَهم إلى قلبه ، وكاد أنْ يجهشَ بالبكاء من شدة الضيق ، ولكنْ ناداه صوتٌ بجانبه .. صوتٌ يعرفه جيداً ويحب سماعه كثيراً قائلاً له :

- هو أنت قاعد كدا ليه ؟! هو اللي حصل مأثر فيك قوي كدا ، هو إيه اللي حصل أصلاً علشان تقعد زعلان كدا .

وأطلق ضحكةً جميلةً هادئةً لكنَّها مسموعةً وبريئةً .

* * *

بينما مصطفى وعبد الرحمن يتجهان إلى المنزل بالسيارة ، يرى عبدالرحمن أدهم يمشي في مشهد أثار انتباهه ، ولكنَّه آثر ألَّا يشيرَ إلى مصطفى ليراه ، وبعد مرورِ بعض الوقت وصلا إلى الشارع الذي به يَكْمُنُ منزل مصطفى ، وعند عبورهما الشارع وجدا رجلًا في منتصف الثلاثينيات من عمره ، يجلس بجوار أحد المنازل والذي يتكون من سبعة طوابق ، وكان الرجل في حالةٍ يُرثَى لها ، فتعجَّب عبد الرحمن من هيأته وحالته ، فسأل مصطفى قائلاً :

- من هذا الرجل ؟! وماذا به ؟! ولِمَ هو في هذا الحالة ؟!

قال مصطفى وهو ينظر للرجل بشفقةٍ مَشُوْبةٍ بالحزن وقال :

- دا عمرو ، ودا بقى حكايته حكاية هحكيهالك فوق .. تعالى .

مضى عبد الرحمن مع مصطفى إلى المنزل المجاور الذي يحتوي شقته ، وعبد الرحمن ينظر للرجل في شفقة ، وحين وصلا إلى الشقة جلس عبد الرحمن على الأريكة وجلس مصطفى بجواره ، وأخذ يقصُّ قصةَ عمرو قائلاً :

-دا يا سيدي (عمرو عبدالحليم السليمي) ، ابن الاستاذ المرحوم / عبد الحليم السليمي ، موظف في الشهر العقاري ، إنَّما إيه كان بيتحلف بإسمه في الصدق والأمانة والإخلاص وعمره ما حد مسك عليه ذلة ، ولا عمره قبل رشوة من حد تحت أي ضغط ، يعني ببساطة رجل موظف مثالي بس يا خسارة ربنا يغفرله ، المهم

عمرو واحد من الناس ضحايا المخدرات أو بالأحرى من الناس اللي دفعت التمن بالغالي .
قاطعه عبد الرحمن قائلاً :
- كيف ؟! أكان ممن يدمنون هذه المخدرات ؟!
فأجاب مصطفى :
- لا ، عمرو من الناس اللي كانت محترمة جداً وعنده أخلاق ومبادئ ، وعلى فكرة المخدرات دي اللي بيدمنها إمّا راجل مش محترم إمّا راجل ضعيف أو معندوش أخلاق ولا مبادئ ، بس دا مثال بيبين سوء عقبات المخدرات ، لان أخوه هو اللي كان بيتعاطى المخدرات ..
قاطعه عبد الرحمن مندهشاً وقال:
-أخاه !! ولكن كيف ؟! من الواضح أنَّ حكايتَه حقاً مثيرةٌ للجدل ، قلْ ما عندك وكلِّي آذانٌ صاغيةٌ .
ابتسم مصطفى ابتسامةً حزينةً ، ثمَّ قال :
- عمرو كان مسافر برة مصر بيشتغل علشان يصرف على مراته وابنه الوحيد اللي اسمه هلال وعمره أربع سنين ، وكمان يساعد أبوه في مصاريف البيت اللي بقت كتير خالص ، وعمرو كان عنده أخ أصغر منه اسمه هلال وكان غالي عليه جداً لدرجة إنه سمى ابنه هلال على اسم أخوه ، وكان ليهم أخت صغيرة عندها حوالي سبع سنين اسمها سعاد تمام لحد كدا ؟!

-نعم ، أكمل يا صديقي !
استطرد مصطفى قائلاً:
- هلال كان عنده حوالي ١٨ سنة بس كان لِعَبي شوية ، أو مش في نفس احترام أبوه وأخوه ، وطبعاً مع انتشار قلة الأدب صاحب كام عيل قلالات الأدب جرو رجليه لسكة المخدرات ، ومنها بقى مدمن وطبعاً عاوز فلوس علشان يشتري الزفت دا ، فبقى بياخد فلوس من أبوه ومن أمه وبيشتمها ، وأحيانا بيمد إيده عليها ، ولو حد سأله عاوز فلوس ليه كان بيبرر بأي حاجة ، يعني هنروح ناكل أنا وأصحابي ، هنروح نزور واحد صاحبنا أو غيره من المبررات الوهمية دي ، لحد ما فيوم أبوه كان برة البيت وطبعاً أخوه مسافر ومفيش غير أمه ومرات أخوه في البيت ، فقام يتسحب علشان يروح أوضة مرات أخوه علشان يسرق دهبها ويبيعه ، فأول ما دخل الأوضة راحت أمه داخلة وشافته بيدَّحلب جوة الأوضة فقامت قايلة له :
- هلال !! بتعمل ايه هنا وجاي ناحية دولاب مرات أخوك ليه ؟!
قالتها وهي غضبانة طبعًا ، فالمعلم بقى قلقان ومش عارف يقول إيه ، فكان رده :
- اه ولا حاجة ولا حاجة أنا بس .. .
الأم طبعاً مصدومة وقالتله وصوتها كان بدأ يعلى :
-قولي بتعمل هنا يا هلال !

فجري ناحيتها وقالها :

-تعالي بس نطلع برة الأوضة وهقولك على كل حاجة .

وقالها بقى انه أدمن مخدرات ، وكان رايح يشوف أي فلوس يشتري بيها مخدرات .. فنزلت الأم بقى عياط على ابنها المسكين ، وفضلت تعيط وتندب حظها وحظ ابنها ، وهو بيحاول يهديها لغاية ما فقدت الوعي ، وفضلت حوالي أسبوع في المستشفى في العناية المركزة وبعدها ... .

قاطعه عبد الرحمن قائلاً :

- عفواً يا صديقي ، ما رأيك أنْ تقصَّ لي باقي القصة بلهجتي الفصحى حتى أكون أكثر اندماجاً معك ، فإلى الآن لم أعد أتقن طريقة تحدثكم تلك ، ومازلتُ حائراً بين الألفاظ ، كما أنَّني لا أفهمها كلها .

فقال مصطفى مبتسماً:

-حاضر يا عم عبده من دواعي سروري .

* * *

ابتسم محمد ابتسامةً خفيفةً عندما سمع صوت صديقه المقرَّب والمحبَّب (علاء مجدي) ، والذي كان أطول من محمد قامةً ، قويَّ البدنِ ، أبيضَ البشرةِ ، وعيناه جميلتان بلونهما العسلي الفاقع الجميل الذي يضفي جمالاً ووسامةً إلى وجهه الوسيم

والبشوش ، وكان علاء مَرِحًا ، عاشقًا لروح الدعابة ويمتلكها ، يأخذ كل الأمور ببساطةٍ ويبغض تعقيدِها مهما كانتْ ومهما كان الحالُ أو الوضع ، وأردفً الأخيرُ :

- يا ابني الاستاذ محمود راجل طيب ومحترم وعارفك وأكيد عارف إن مش قصدك حاجة وحشة ، وبعدين الموضوع ديته اعتذار وكلمتين حلوين .. يلا قوم بقى بلاش نكد ، قوم يلا .

ابتسم محمد مرةً أخرى ونظر إلى علاء وأومأ برأسه وذهب معه ، وهو يقول في ذهنه :

- فعلاً أنا أعتذر له بكرة والاستاذ محمود طيب ومش هيزعل ، رغم إني مش عارف إيه اللي يزعل في الموضوع بس عامةً مش مشكلة ، خير إن شاء الله .

في اليوم التالي أتى الاستاذ محمود مبتسماً ، وعند دخوله ألقى السلام كالعادة ، وردَّ الطلابُ السلام وقبل أنْ يجلسوا تقدَّم محمد للأمام ، ومَثُلَ أمام الاستاذ محمود وقال:

- استاذنا أنا آسف جداً على الحصل مني امبارح ، وأنا والله مكنش قصدي أي حاجة خالص .

ابتسمَ الاستاذ محمود وقال :

- يا حبيبي أنا عارف وكلامك مكنش فيه حاجة تزعل ، بس أنا كنت تعبان شوية ومضايق جداً من موضوع تاني خالص ، وابقى تعالى بعد الحصة عاوزك في موضوع .

فردَّ محمد :

- حاضر يا استاذنا .

قالها بسرورٍ وسعادةٍ عارمةٍ بعدما أدرك أنَّ استاذه ليس مستاءً منه ، فرَبَتَ الأول على كتفه فعاد محمد إلى مقعده وهو سعيدٌ ، وشرح الاستاذ محمود الدرس ببراعةٍ كالعادة وانتهتْ الحصة ، والآن الوقت الفاصل بين الحصص ؛ ليستريحَ الطلاب ، وكذلك المعلم ليتمكَّنَ كلٌّ منهم من استكمال يومه ، وأثناء هذا الفاصل قابل محمد صديقه علاء وقال له :

- كان عندك حق .. خلاص اتصالحنا يا معلم وهو عازوني في موضوع دلوقتي هروح أشوفه ، ونتقابل بعد المدرسة وأحكيلك على كل اللي حصل .

فقال علاء :

-اشطة يا برنس ميعادنا بعد المدرسة .

وذهب بالفعل محمد إلى الاستاذ محمود وألقى عليه السلام ، ورده الاستاذ محمود مُرَحِّبَاً بتلميذه ، وبعدها قال محمد :

- أيوة يا استاذنا تحت أمر حضرتك .

* * *

-وبعدما قضتْ أمه قرابةَ الأسبوع بالمشفى .

ازدرد مصطفى لعابه ثم أردف :

-وإلى الآن لا أحد يعرف ما السبب ، حتى زوجة عمرو كانت بالمطبخ عندما صرخ عمرو فوجدتْ الأم مغشيَّاً عليها ، والآن الأم قد استعادت بعض عافيتها ؛ آملةً أنْ يكونَ حالُ ابنها قد انصلح ، وفي هذا اليوم خرجت الأم من المستشفى ولكنْ الابن المدمن لم ينس ما خطط له ، وهو يعلم أنَّ الجميعَ سينشغلون الآنَ بالأم ، وستتاح له الفرصة بأنْ يسرقَ مجوهرات زوجة أخيه بعدما سرق مجوهرات أمه قبل عودتها بيوم واحدٍ ، وكل هذا لأجْلِ المخدرات ، وبالطبع لأن الأم مريضةٌ وفي حالةٍ خطرةٍ لنْ يفكِّرَ أحدٌ في مجوهراتها الآن ، فانتهز الفرصة فسرقها ، وها هي الفرصة ليسرقَ مجوهرات زوجة أخيه وبالفعل وسط كل هذا الزحام ذهب إلى حجرة زوجة أخيه والظروف مُهيأة لتنفيذ ما يرغب به ، وبينما هو يفتح الدولاب ليسرقهم ، دخل عليه هلال الصغير ابن أخيه ، فتجمَّد هلال الكبير مكانَه ، ثمَّ أخذ يقول لهلال الصغير بعدما وضع علبة المجوهرات في حقيبته :

-هجبلك شوكلاتة ولعبة حلوة بس ماتقولش لحد إنك شوفتني هنا .. ماشي ؟

وأنت تعرف فضول الأطفال في هذا السن ، خصوصاً أنَّه رآه وهو يضع العلبةَ في الحقيبة فقال الطفل :

- لأ أنت قولي خدت ايه من الدولاب وورهولي ومش هقول لحد .

فزع هلال الأكبر وقال للصغير :

-اشش اسكت وأوعى تقول لحد !

وضربه على كتفه فصرخ الطفل الصغير باكياً، فاندفع هلال ناحية الدولاب ؛ ليغلقَه كما كان ، وفي الوقت ذاتَه ، أتت زوجة عمرو إثْرَ صرخةِ ابنها ، قائلةً :

- بس بس .. مالَك يا حبيبي فيه ايه مالك !

ورفعتْ عينيها لتجدَ هلالاً يحمل حقيبةً ، ويقف بجوار الدولاب ويبدو عليه القلق ، فتعجبتْ وعلى وشك أنْ تقولَ له شيئاً ، فقاطعها الطفل قائلاً :

-عمو هلال ضربني علشان شوفتو بياخد حاجة من الدولاب ، ومرضيش يوريهالي وقال لي ما تقولش لحد .

فنظرتْ لهلال الذي بدتْ على وجهه علامات القلق والغضب وقال :

- دا عيل صغير وكداب .. أنا ليه هعمل كدا يعني ، أنا بس لقيته هنا خفت ليعور نفسه ولا حاجة فجريت عليه مش أكتر .

وغادر الحجرة ، فهبتْ زوجة عمرو تفحصُ دولابَها فلا تجدُ مجوهراتها ، فتصرخ في هلال الكبير قائلةً :

- هلال ، استنى هلال ابني مكنش كداب أنت سرقت الدهب بتاعي .

أتى على إثْرِ صوتها الأب ، وسمعتْ الأم الكلمات فهبتْ لتخرجَ بعدما خرج الأب وقال:

- إيه فيه إيه ؟!
وبعدها خرجتْ الأم من الداخل ، متعكزةً على الكرسي فالحائط حتى وقفتْ عند باب الحجرة ، التي كانتْ ترقد فيها غير قادرةٍ على الحركة أو المشي ، فرآها هلال واقفةً فاضطرب لسانه ، فقالتْ زوجةُ عمرو كل ما حدث فغضبَ الأبُ كثيراً قائلاً:
-الكلام دا صحيح يا هلال ؟!
فقال هلال :
- ل...لا طبعا أنا مش ممكن أعمل كدا .
كان هلال قد شحبتُ ملامحه في الآونة الأخيرة ؛ نتيجةً لتلك السموم التي يدخلها جسده ، فشكَّ أبوه وقال إذن أعطني حقيبتك بعدما قرأ الكذب في عيون هلال ، وأخذ الحقيبة ليجد صندوقين في كلٍّ منهما ذهبٌ ، وقبل أنْ يقولَ شيئاً دخل إلى الحجرة التي ترقد فيها أم هلال ، والتي لم يلتفتْ أنَّها أصبحتْ في حجرة المعيشة حيث يتشاجرون ؛ ليفحصَ ذهبها فلا يجده ، فوضع يده وسط الملابس والتفتَ ليغادرَ الحجرة ، وأخرج يده من الملابس التي تملأ الدولاب بشيء ما ووضعه في ملابسه ولم يره أحدٌ ، وخرج حاملاً الحقيبة وانهالَ على هلالٍ ليصفَعَه صفعةً قويةً .. اهتزَّ لها قلب أم هلال المسكينة ، وقال :
-دهب أمك ومرات أخوك يا ابن الكلب يا كداب ، طيب ليه .. ليه أنا حوشت عنك حاجة .

قالها والجميع مصدومون مما يسمعون ، وازدادتْ صدمتهم عندما سمعوا هلال يقول :
- عاوز تعرف ليه !! أنا هقولك ...
ونظر إلى أمه التي أجهشتْ في البكاء ، وأردف :
- علشان أجيب بيهم مخدرات .
صُعق الجميع لما سمعوا ، وأجهشتْ أيضاً زوجةُ عمرو في البكاء ؛ لأنَّها كانتْ تعتبره ابنها وأخاها الأصغر، واستطرد الأول :
- أيوة أنا بقيت مدمن مخدرات !
والده انفطر قلبه لما سمع ، ولكنْ صدمته ازدادتْ عندما أمسك هلال بابن أخيه هلال الصغير وسعاد أخته الصغرى إلى النافذة ، وقال في حدةٍ :
- هات الدهب وإلا هرميهم من هنا !
في هذه اللحظة كان عمرو قد وصل إلى أرض مصر بعدما علم عن مرض أمه ، وأنَّها في حالةٍ خطرةٍ ، ولم يبغِ أنْ يخبرَهم بقدومه ليفاجئهم ، ولكنَّه كان متعباً وهم يسكنون في الطابق السابع فآثر أن يركب المصعد ، ومن سوء حظه تعطَّلَ المصعد في مكان حيث لا يستطيع الخروج منه !
وقال الأب وقد شهد حوادثَ كثيرةً ، ويعرفُ أنَّ ابنه مهما ضاق به الأمر لنْ يفعلَ شيئاً كهذا :
- مش هديلك أي حاجة .

وانهال عليه بالشتائم وعلا صوت السيدتين بالصراخ ، وانتبه المارة بالشارع ، وعمرو المسكين يضرب المصعد بيديه وقدميه .. يريد أنْ يعرفَ ما الذي يحدثُ وهنا قال هلال :

- بقولك هات الدهب .

فقال الاب معانداً :

- أبداً .

في الوقتِ ذاته تجمَّع مئاتُ المارة في الشارع والجيران ، ليقفوا تحت المنزل بعدما رأوا هلال يمسك بالطفلين خارج النافذة ، والمسكين عمرو يحاول بشتى الطرق الخروج من المصعد علَّه يعرف ما الذي يحدث ؟ وفجأة بعد رفض الأب مباشرةً .. ما كان من عمرو سوى أنْ قالَ :

- بقولك هات الدهب وإلا هرميهم من هنا !

فأبى والده فتركَ هلالٌ الطفلين ، ليسقطا من الطابق السابع جثثاً مهشمةً ، في مشهدٍ اقشعرتْ له جميعُ الأبدان ، وبكتْ من أجله الرجال قبل النساء .. نعم بكتْ من أجله كلُّ العيون التي رأتْ ، وكل الآذان التي سمعتْ ، وهنا أطلقتْ الأمُّ وزوجةُ عمرو صرختين اقشعرتْ من أجلهما الأبدان أيضاً ، وانتفضتْ لها الأجساد .. كانتا صرختين مؤلمتين بحقٍ ، تعبِّرُ عن الطفلِ والطفلةِ اللذين تهشَّم جسدهما ، وأيُّ ألمٍ أصعبُ من هذا ، وأيُّ حزنٍ أصعبُ من حزن الأم ، وبعد صرخةٍ زوجة عمرو الباكية ، فقدتْ وعيُّها لتسقطَ

ميتةً بأمرِ الله حزناً على صغيرها الوحيد .

أخرج الأبُّ من ملابسه مسدساً نارياً وأطلق النار على ابنه الحبيب ، ليسقطَ قتيلاً وهو يبكي ، والأمُّ تبكي وتتأوه وتصرخُ صرخاتٍ لو كانت الجبال تسمعُ مثلنا ، أو تشعرُ لتهدَّمت الجبال من وقعها ، والأبُّ يبكي هو الآخر يتأوه ، ويمسك بالمسدس ويوجهه نحو رأسه ويطلق النار على نفسه ، ويسقط جثةً هامدةً هو الآخر، وكلُّ هذا على مرأى ومسمعِ الكثيرين من الجيران ، وتصرخ الأم صرخةً أخرى كانتْ أشدَّ من ذي قبل ، ولكنَّها كانتْ الأخيرة ، فالمسكينةُ لم تتحملْ فقدانِ كل الأحبة دفعةً واحدةً ، ومنْ يتحمل ؟ فسقطتْ الأخيرةُ ميتةً بجانبِ الأبِّ والأبنِ وزوجة ابنِها وتحتِهم بسبعةِ طوابقِ ابن ابنِها الأول والوحيد وابنتِها بنِت السبع سنواتٍ ، ومن يتحمَّلُ كلَّ هذا الألم ويصمد ؟!

وفجأة استطاع المسكين عمرو أنْ يصعدَ بالمصعد ، ليرى إنْ كان كلُّ ما يسمعه من صرخاتٍ حقاً نابعٌ من شقتهم ؟! وأقصى وأصعبُ ضروبِ الألمِ بالنسبة له أنْ يفقدَ أمَّه التي جاء من أجلها المسكين على شقته المزدحمة ، فيدخلَ من بينهم ليرى جميع أفراد عائلتِه جثثاً هامداتٍ ، فما كان له من رد فعل سوى أنَّه ضحك .. نعم ضحك بجنونٍ ضحكاً هستيرياً ، وسقط فاقداً الوعي ، ومنذ أنْ أفاقَ ولمْ يعرفْ للكلام مجالاً ، ولا للضحك أو الفرح سبيلاً ، وفقد المسكين عقله ، ومَنْ يتحملُ مثل هذه الأحداث دفعةً واحدةً !!

حتى الأقلام والكلمات التي تقالُ ، بكتْ من أجل هذا الموقف ، كان الله في عونِ المسكين !! وكلُّ هذا كان بسبب المخدرات ، ولِمَ يتجهون إليها إلا لانعدام المبادئ والأخلاق .. حقاً عقول تبعت الأهواء ، فضلَّ سعيُها وخابُ رجائُها !!

انتهى مصطفى من حديثه بعدما سالتْ دموعه ؛ لتغطي أغلب قميصه ، وبعدما انتهى أجهشَ في البكاء تأثراً بما قصَّ ، ولكنَّه لم يكن الوحيد ، فعبد الرحمن أيضاً أجهشَ في البكاء وهو يقول :

- في أيِّ زمانٍ نحن ؟! ما هذا الذي يحدثُ ؟! أسرةٌ كاملةٌ كانتْ الضحيةَ !!

الفصل السادس

-الأمر لله يا حبيبي ، اقعد .
قالها الأستاذ محمود لمحمد وهو يبتسم ، فجلس محمد مترقباً أن يْتحدثَ الاستاذ محمود ، فقال الأخير:
-بص يا محمد موضوع الدروس الخصوصية دا أنا بعتبره يعني .. مش عارف أقولك إيه بس هو إن المدرس ميشرحش في الفصل أو إنه يعامل الطلبة وحش علشان ياخدوا عنده دروس سعياً وراء المال ، حرام حرام ، وعمر ما ربنا هيباركله في ماله أو في صحته أو في عياله .
-يعني إيه يا أستاذنا هو موضوع الدروس الخصوصية دا حلال ولا حرام ؟!
قالها محمد في حيرةٍ واشتياقٍ لمعرفة الجواب ، فردَّ الأستاذ محمود قائلاً:
-فكرة حلال ولا حرام دي الله أعلم بيها ، بس كل اللي أقدر أقوله إن المدرس ما يقصرش في أداء عمله وخلاص ، إنما اللي مش بيشتغل بضمير علشان الدروس و الفلوس دا حرام عليه ، وفلوسه

كدا حرام ، وكمان دي قلة أخلاق وإنعدام مبادئ عنده ، يعني تقدر تقول الشيطان بيغويهم ويضلهم وضمائرهم ، وقلوبهم قلوب مضلله .

ازدرد الأستاذ محمود لعابه ثم استطرد :

-أما المدرسين اللي بيأدوا واجبهم على أكمل وجه ، وطلاب من فصول تانية أو مدارس تانية(تطلبه)علشان يديهم دروس ، بس طبعاً وبأكد ميبقاش مقصر في شغله قدام ربنا ، وكمان يتقي الله في العيال اللي رايحه عنده تاخد دروس ، وميتاجرش فيهم أو في فلوسهم فالنوع دا مقبول ، ومعلهوش حاجة ومحدش يقدر يعترض عليه ، ولا حد يقدر يقوله حاجة ، بس هي الفكرة ضمير وأخلاق فقط مش أكتر .

أومأ محمد برأسه موافقاً ومتفقاً مع معلمه ، وطلب الإذن بالانصراف ، فانصرف وهو يقول بينه وبين نفسه :

-يا ريت كل المدرسين زيك يا أستاذ محمود ، إن شاء الله هبقى مدرس وهبقى مدرس زيك بالظبط ، وهشجع أصحابي إنهم كمان حتى لو مش هيبقوا مدرسين إنهم يبقوا زيك .

وأكمل محمد سيره وهو يبتسم في سعادةٍ غامرةٍ ، متخيلاً نفسه وهو في هذه الصورة التي تمناها ، وجميع طلابه يحبونه كالأستاذ محمود حتى قابل صديقه علاء ، فقال له الأخير مبتسماً كعادته:

-إيه يا بطل احكيلي بقا ايه اللي حصل معاك بالظبط أنت

والاستاذ محمود ؟

* * *

وبعد مرور حوالي نصف ساعة أو أكثر ، هدأ مصطفى وعبدالرحمن وقال الأول ؛ ليقلِّل من التوتر الحادث ، ولينسيَّ عبد الرحمن ألمَ القصة التي قصَّها عليه :
-بقولك يا عبده ، أنت قولتلي انك هتقولي أو هتسألني عن حاجة لما نروح فاكر؟
ابتسمَ عبد الرحمن ابتسامةً خفيفةً يشوبها الحزن وقال:
- ذكرتني ، فآلام ما سمعت أتعبتني وأنستني ، المهم أنَّني أردتُ فقط أنْ أسألَكَ بشأن ... .
وازدرد لعابه وصمت قليلاً من شدة الحزن ، فقاطعه مصطفى :
-عن إيه يا صاحبي، عن الدرويش ولا عن إيه !؟!
فقال عبد الرحمن وكأنَّه يستجمع قوته لينطقَ :
-أجلْ ، بشأن الدرويش هذا أو بالأحرى بشأن الشرطة .. أيعقلُ أنَّ الجميعَ فاسدون ؟ ألَا يوجد من هو صالحٌ ممن هم يستطيعون التصرف بمثل هذه الأوقات ؟ رجل يستطيع أن يمنع الفساد ويعاقب المفسدين ، ألَا يوجد ؟!
فقال مصطفى متفهماً :
-أكيد فيه يا عبده ، فيه يا صديقي ، الدنيا لسه فيها خير .

فقاطعه عبد الرحمن فرحاً : من هو هذا الشخص ؟ أو هؤلاء الاشخاص ؟
فابتسم مصطفى وقال : الظابط / ابراهيم خيري .

* * *

أغلقَ حسن مهران رئيس المباحث الهاتف ، وأنهى مكالمته مع الدرويش ، فدخلَ عليه شابٌّ لم يكمل الثلاثين من عمره ، أبيضُ البشرة ، طويلُ القامة ، قويُّ البنية ، بنيُّ العينين ، ألقى التحية العسكرية قبل أنْ يقولَ له الضابط حسن مهران في غضبٍ :
-كنت فين يا حضرة الضابط ، الاجتماع خلص وقولنا فيه على التعليمات ، اتفضل دا ملف بكل تفاصيل العملية ، أتمنى تلتزم شوية يا حضرة الظابط ، لإن المرة دي مش زي كل مرة .
أخذ ابراهيم ملف العملية وأدى التحية العسكرية بعد أنْ قال :
-تعليمات سيادتك يا فندم .
ثم انصرف حاملاً الملف وذهب ؛ ليدرس تفاصيل العملية آملاً أنْ تنجحَ هذه المرة .

* * *

فرح عبد الرحمن ، وقال في شوقٍ:
- نذهبُ له ونخبره بما رأيناه ، وهو يدبِّر أمره وإن كان خيِّراً كما

تقول ، فسيقوم بالصواب وسيمنع هذا الدرويش ، فما رأيك ؟!
-عظيم ماشي فكرة حلوة خالص إحنا نستنى بكرة لما أدهم ييجي ونروح مع بعض .
أومأ عبدالرحمن برأسه موافقاً وقال :
-حسناً ، فكرةٌ صائبةٌ ، والآن قلْ لي ماذا تعرف عن الضابط إبراهيم هذا ؟
قال مصطفى متفاخراً:
- أعرف حاجات كتير يا صديقي ، يعني تقدر تقول عليه ظابط مثالي ، عمره ما شارك في فساد ، وعمره ما قبل رشوة تحت أي ضغط .. قول مافيش قضية بتستعصى عليه ما شاء الله ، وكله بيبعده عن قضية الدرويش ؛ عارفين إنه لو مسك القضية هيحلها وهيوديهم كلهم في داهية .
وجلس مصطفى وعبد الرحمن يتحدثون فيما بينهم عن كلِّ شيءٍ جال بخاطرهم ، وفي اليوم وصلَ أدهم وقصُّوا عليه ما قرروا أنْ يفعلوا ووافق بشدة ، وبالفعل ذهبوا إلى الضابط إبراهيم خيري ؛ ليخبروه بكل شيءٍ عله يساعدهم ، وقابلوه هناك فقال الأخير :
-أهلاً وسهلاً ، مين حضراتكم ؟ ويا ترى أقدر أخدمكم في إيه ؟!
قالها الضابط بكل ذوقٍ واحترامٍ وهنا عرفوه بأنفسهم ، وقصوا عليه ما رأوه ، أخبروه بكلِ شيءٍ حتى عن الضابط المتخفي الذي ذهب هناك وأخذ الرشوة .

فقال لهم الضابط إبراهيم :
-أولاً : احنا بنقدر مجهوداتكم وتعبكم .
ثانيا : وأتمنى متجبوش سيرة لأي حد ولو كان ظابط شرطة .
فقال عبد الرحمن بحزنٍ :
-ألنْ تفعلوا أيَّ شيءٍ ، ستتركون الأمور تمضي هكذا ؟!
فنظر الضابط إلى الأرض ، وصمتَ قليلاً ثم رفع رأسه ونظر إليهم مجدداً ، ثمَّ قال :
-تعالوا معايا .
وأخذهم الى مكتب اللواء / عطية السيد ووصلا الى خارج الممر الذي يكمن به المكتب ، وقال لهم :
-استنوني هنا .
ودخل الى مكتب السيد اللواء وخرج لهم بعد قليل فأخذهم للداخل .

* * *

قصَّ محمدٌ كلَّ ما حدث بينه وبين الاستاذ محمود منذ أن اعتذر له في الفصل وحتى قابله ، وقال له أيضاً :
-أنا خلاص قررت أبقى مدرس إن شاء الله يعني لما أكبر .. هعمل زي الأستاذ محمود كدا ؛ علشان ربنا يكرمني ، وكمان علشان الناس تحبني وأحبب الطلبة في التعليم والمدرسة .

صمتَ محمد بعد أن أنهى ذرف فيض كلماته المعبرة عمَّا يدور في قرارة صدره ، وابتسم وهو شارد الذهن ، وبدوره علاء ابتسم هو الآخر متأمِّلاً كلمات محمد التي قالها ، متخيلاً نفسه هو الآخر معلماً كالأستاذ محمود ، وصديقه محمد أيضاً قد أصبح معلمًا ولا يزالان أصدقاء والناس تحبهم ، ففرح وابتسمتْ معالمُه وقال لمحمدٍ :

-أنا كمان بتمنى أبقى مدرس زي الأستاذ محمود ، ونفضل أصحاب والطلبة يحلفوا بينا زي ما بنحلف بالاستاذ محمود .

فقال محمد مبتسماً :

-إن شاء الله يا صديقي نفضل أصحاب طول العمر ، وربنا إن شاء الله يحقق لنا كل اللي احنا عاوزينه .

-آمين يا رب إن شاء الله يا صاحبي .

ومضى كلٌّ منهما في سبيله عائداً إلى منزله .

* * *

تحدَّثَ الضابط إبراهيم للحظات إلى السيد اللواء عطية السيد ، ثمَّ عاد إليهم وقد كانوا واقفين عند الباب ، وأخذهم إلى حيث يجلس السيد اللواء وقال :

-أحب أعرفكم على سيادة اللوا / عطية السيد من أنجح وأعظم الناس اللي أنا قابلتهم واشتغلت معاهم ، وهو طبعا قبل كل دا

والدنا واستاذنا اللي بنتعلم منه ، وهيفضل يعلمنا إن شاء الله .
ثم اعتدل ناحية السيد اللواء وقدمهم إليه ، ثمَّ أشار إليهم السيد اللواء بأن يجلسوا ، وبعدها اتخذ الضابط إبراهيم وضعيةً تدل على أنَّه سيوضح شيئاً ما ، ثمَّ اعتدل ناحيتهم وأخذ نفساً عميقاً ، ثمَّ أخذ يقول :
-أنا وسيادة اللواء كنا شاكين من زمان في الظابط حسن مهران ، لكن للأسف مش عارفين نمسك عليه حاجة ، وزاد شكنا فيه لما كل شوية سيادة اللواء يعرض عليه إني أتابع القضية معاه ، فكان بأي صورة بيبعدني عنها ، ودا طبعا خلاني أشك فيه ، وكمان ييجي كل مرة الدرويش يفلت ويبقى المبرر حاجة تافهة ، دا طبعا يخلينا نشك وقلت لسيادة اللواء عن شكي وربطتله الأحداث مع بعضها واقتنع إلى حد ما ، وأنتو جيتوا النهاردة وأكدتم شكنا وعلشان كدا قولتلكم متجبوش سيرة لحد ، علشان لو عرفوا مش هيترددوا لحظة إنهم يقتلوكم .
نظر الثلاثة الأصدقاء إلى بعضهم البعض في تعجبٍ ، فقال عبدالرحمن في حزمٍ :
-حسناً ، وهل وضعتم خطةً محددةً أو محكمةً ، أو أخذتم أيَّ خطوةٍ للأمام للقبض على هذا الدرويش وهذا الضابط الفاسد ؟
ازدرد إبراهيم لعابه وزفر ثم قال :
-المعلومات دي مش المفروض تعرفوها ، دا بس علشان سلامتكم

، بس عامةً أنا وسيادة اللواء عملنا خطة إن شاء الله بيها هنوقع الدرويش متلبس وكمان حسن مهران معاه .
فقال عبد الرحمن فَرِحاً:
-حسناً ، وفقكم الله وساعدكم وأكثر الله من أمثالكم ، وعلى كلٍّ إنْ احتجتم أيَّ مساعدةٍ من أيِّ نوعٍ ، وكان بمقدورنا فعلُها ، فنحن موجودون في أيِّ وقتٍ ، وإن احتجتمونا للشهادة ، لا تترددوا بأن تتصلوا بنا .
بادله الضابط إبراهيم بابتسامةٍ خفيفةٍ قائلاً :
-إن شاء الله ، ومتشكرين جداً على مجيئكم وعلى كلامكم ، ويا ريت وبأكد ماتجبوش سيرة لحد حرصاً على سلامتكم .
أومأ الجميع موافقين ، وصافحوا الضابط والسيد اللواء بحرارةٍ ، متمنين لهم التوفيق واستأذنوا بالرحيل .
وفي طريق العودة بسيارة مصطفى .. جلس مصطفى على مقعد السائق ، وجلس أدهم وعبدالرحمن في المقعد الخلفي
وهمسَ عبدالرحمن في أذنِ أدهم :
-بالأمس ونحن عائدون أنا ومصطفى من عند مخزن الدرويش بالسيارة رأيتُك .
ازدرد أدهم لعابه متظاهراً بعدم الفهم ، وقال وهو يبتسم ابتسامةً خفيفةً :
-إمتى ؟! وبعدين أنا امبارح كنت مع واحد صاحبي شفتونا فين

؟!
ابتسم عبدالرحمن وقال وهو يهمس في أذنه :
- أتقصد تلك الفتاة التي كنتَ تسير معها ؟!
ضحك أدهم واحمرَّ وجهه خجلاً ، ولما سمع مصطفى صوت الضحك التفت نحوهم وقال :
-إيه بتضحكوا على إيه من غيري ، طب ضحكوني معاكو .
نظر عبد الرحمن إلى أدهم الذي بدوره همس في أذن عبد الرحمن وقال له :
-على فكرة مصطفى عارف كل حاجة .
نظر إليه عبد الرحمن مندهشاً ثم قال :
-إذن تقصُّ لي كلَّ شيءٍ عنها وعن طبيعة علاقتك بها .
فقال أدهم مستسلماً :
- يا عم عبده ، هحكيلك على كل حاجة بس لما نروح وناكل ونرتاح شوية ، وبعدين أحكيلك كل اللي أنت عاوز تعرفه .

* * *

تقابل محمد وصديقه وهما يتجهان لحظةَ الدرسِ الخصوصي عند الأستاذ علي ، فقال الأول :
-ازيك يا علاء، عامل إيه ؟
فردَّ علاء :

-الحمد لله تمام ، ازيك أنت يا محمد أخبارك ايه ؟
محمد :
-الحمد لله تمام ، بقولك هو إحنا هنخلص النهاردة صح ؟
فردَّ علاء :
-المفروض إننا نخلص النهاردة ، بس مش عارف الأستاذ علي إيه رأيه .
-أنا مش عارف الأستاذ علي إيه ده يا جدع ، الامتحانات خلاص ودا ماشي معانا بسرعة السلحفا في أم المنهج دا .
قالها محمد غاضباً ، ورأى أمامه حجراً صغيراً فركله بقدمه تعبيراً عن اشمئزازه ، و تعبيراً عن عدم الرضا .
عندما وصلا إلى منزل الاستاذ علي حيث المكان الذي كان يدرِّسُ لهم فيه فدخلوا إليه ، وشرح الأستاذ علي الدرس ببراعةٍ لم يشهدوها منه في المدرسةِ ، أمَّا على مستوى الدرس الخصوصي فيمكنكَ أنْ تقولَ كالعادة ، وفي نهاية الدرس قال :
-إحنا كدة خلصنا المنهج ، ومن الحصة الجاية هنبدأ مراجعات إن شاء الله .
وفي اليوم التالي دخل الاستاذ عليٌّ الفصل للطلاب ، وشرح لهم الدرس الأخير أيضاً ولكن سبحان الرحمن ، فارقٌ كبيرٌ بين شرح الأمس في البيت وشرح اليوم ، وبعد الدرس قال :
-من النهاردة اقعدوا في بيوتكم ذاكروا .. محدش ييجي المدرسة

تاني وريحوا دماغكم .
ثم خرج وانتهت الحصة ، والحصة التالية هي حصة الاستاذ محمود حيث سيشرح أيضاً الدرس الأخير ، وبالفعل دخل الأستاذ محمود وألقى السلام بوجهه البشوش كالعادة ، والابتسامة التي لا تفارق وجهه طالما هو بداخل الفصل ، أو يتحدث إلى أحدهم ، وردَّ الطلاب السلام في فرحٍ أيضاً وتلقوا الدرس باسمين من معلمهم المفضل .
كان الدرس قصيراً ؛ لذا أنهاه في وقتٍ قصيرٍ وأجاب كل أسئلة الكتاب كالعادة وسألهم وقال :
-في أي حاجة صعبة في الدرس ، أو فيه أي جزئية مش مفهومة ، أو أي سؤال مش فاهمينه .
حرك الطلاب رؤوسهم يميناً ويساراً ، فأضاف المعلم :
-طيب عظيم من بكرة إن شاء الله هنبدأ مراجعة ، هنحل الكتاب تاني وهنحل امتحانات السنين اللي فاتت ، فلو أي حد فيه أي جزئية في المنهج مش مفهومة ممكن نشرحها تاني إن شاء الله .
قالها وانتهت الحصة فرحل عنهم .
اجتمع طلاب الفصل كله واتفقوا على شيءٍ واحدٍ بينهم ، ثم أرسلوا محمداً وأربعةَ عشرَ آخرين إلى الاستاذ محمود ، وبالفعل ذهبوا ، وهناك قادهم محمد واستهلَّ الكلام بالسلام ، وجعل طالباً آخر يقول :

-أستاذ محمود بعد إذن حضرتك عايزينك في موضوع كدا .
فقال له أستاذه محمود :
-اتفضلوا ، إيه فيه حاجة مش مفهومة ولا إيه ؟!
فقال آخر :
-لا لا يا أستاذنا حضرتك فهمت غلط ، مش كدا خالص .
فقال الأستاذ محمود متعجباً ، وظهرتْ عليه الحيرة :
-أمال إيه ؟!
فقال آخر:
-حضرتك إحنا مش عاوزين نيجي المدرسة تاني .
المعلم :
-طيب والمراجعة !! دي أهم حاجة المراجعة وحل الامتحانات ، خاصةً إن خلاص الامتحانات على الأبواب .
فقال محمد :
-ماهو دا اللي إحنا عاوزين حضرتك فيه .
فقال المعلم :
-إيه هتراجعوا في بيوتكم يعني ، مفيش مشاكل عامةً أنا موجود لحد يوم الامتحانات اللي يعوز أي حاجة أنا تحت أمره .
-لا حضرتك الفصل كله اجتمع وبعتونا لحضرتك ، علشان حضرتك تراجع معانا بس برة كمدرس خصوصي .
المعلم بغضبٍ :

-انتوا عارفين رأيي في الموضوع دا ، آسف يا شباب ، أنا مستعد أراجعلكم هنا في الفصل حتى لو لحد يوم الإمتحان .
فقال محمد :
-يا استاذنا حضرتك الفكرة إن إحنا لو جينا المدرسة هنضطر نحضر اليوم كله ، ودا هيأثر علينا في المذاكرة ، لكن لما يبقى في الدرس الموضوع مختلف؛ لأنه هيبقى وقت الدرس بس ، وبكدا هيبقى فيه وقت كبير للمذاكرة .
الاستاذ محمود:
-أنا آسف يا شباب مش هينفع .
فقال محمد :
-معلش يا استاذنا ، وبعدين حضرتك الفصل كله بيترجى حضرتك وبعتونا ليك .
وأخذ كل الطلاب الموجودين يترجُّون الأستاذ محمود ويستعطفونه بشتى الطرق ، فشهقَ الاستاذ محمود وساد الصمتُّ قليلاً ، ثمَّ قال :
-خلاص ماشي موافق .
قالها ثم ابتسم ، ومن ثمَّ فرح الاطفال فرحاً شديداً ، وأحدثوا ضجيجاً عالياً من شدة الفرحة ، ثمَّ ناقشهم المعلم بشـأنِ الموعدِ ، ومن ثمَّ أعطاهم الميعاد الذي يلائم جميع الأطراف .

* * *

-أنت متأكد إن الخطة دى هتنفع وهتجيب نتيجة ؟!
قالها اللواء/ عطية ثم سادَ الصمتُّ التامُّ قليلاً ، قبل أنْ يقولَ إبراهيمُ :
-إن شاء الله يافندم .
قال السيد اللواء :
-إن شاء الله ربنا يوفقك ونخلص بقى من الدرويش والدوشة بتاعته ، وكمان من الخونة الأندال اللى معانا فى المديرية .
فردَّ إبراهيم :
-إن شاء الله يافندم ، أستأذن حضرتك علشان الظابط حسن عاملنا اجتماع .

* * *

وصلَ كلاً من مصطفى وعبد الرحمن و أدهم إلى المنزل ، وبعدها زفروا جميعهم بعد أنْ جلسوا ، وقد بدأ الليلُ يهيمن سلطانه على الأفق الذي اسودَّتْ بشرته في ساعات الليل الأولى .. استحمم كلٌّ منهم وجلسوا معاً ، وتناولوا الطعام ، ثمَّ نهض مصطفى ، وقال بعد أنْ أنهوا طعامهم :
-ياشباب استأذنكم أنا بقى علشان عندي مشوار ، بس ممكن أتأخر شوية ، حد عايز حاجة من تحت ؟

قال عبد الرحمن :
-لا شكراً جزيلاً لكَ .
وقال أدهم :
-تسلم يا بطل .
فقال مصطفى وهو يمشي :
-عامةً لو حد عايز أي حاجة من تحت ، أو افتكر حاجة عاوزها ، اتصلوا بيا .
وأغلق الباب وراءه ورحل ، وهنا اعتدل عبد الرحمن وأدهم ونظرا إلى بعضهم البعض ، وابتسما فقال الأخير :
-أدينا قعدنا واستريحنا ولوحدينا بالرغم من إن مصطفى عارف ولو حكينا قدامه عادي ، بس عامةً أنا تحت أمرك ، عاوز تعرف ايه بالظبط عن الموضوع .
- كل شيء.

الفصل السابع

-بص يا سيدي ، أنا هحكيلك على كل حاجة من أول عرفتها ازاي لحد دلوقتي ، تمام ؟!

قالها أدهم ثم أخذ نفساً عميقاً ، فردَّ عبد الرحمن قائلاً :

-حسناً ، قلْ ما عندك وإنِّي سامعك .

زفر أدهم ثم استطرد :

-أولاً : اسمها شهد وهي اسم على مسمى ، صحيح أنت شوفتها .. صح ؟!

قال عبد الرحمن مبتسماً :

-نعم رأيتها معك ، وكانت النظرة الأولى يا صديقي ، ولكنَّني عندما رأيتُك تفاجأتُ ، وأعدتُ النظر وعلى ما أتذكر .. .

صمتَ قليلاً ، ثمَّ قال :

-طويلةُ القامةِ ، تقصرك بقليلٍ ، رشيقةُ الجسدِ ، بيضاءُ البشرة ، خضراء العينين ، وعيونها واسعة ، و ... .

- ايه يا عم عبده كل دا ، دا أنت جبتها من فوق لتحت ، دا أنت فصصتها يا جدع .

قالها أدهم مقاطعاً إياه وهو يضحك بشراهة فضحك عبد الرحمن ، فاستطرد أدهم :

- هي فعلاً زي ما أنت بتقول كدا .. فعلاً زي القمر، دا طبعا بالإضافة لأخلاقها العالية ، لأني بصراحة مشفتش أخلاق زي كدا .. المهم عاوز تعرف اتعرفت عليها ازاي .. صح ؟!

- نعم .

أدهم :

-هقولك ، شهد يا سيدي أصغر مني بسنتين ، يعني عندها دلوقتي بتاع عشرين .. واحد وعشرين سنة ، وهي دلوقتي في سنة تالتة كلية و.... .

قاطعه عبد الرحمن قائلاً :

-أرجوك ، قلتُها لمصطفى وسأقولها لكَ ، حدثني باللهجة الفصحى كي أكونَ أكثر تفاعلاً معك ، وما يتعثر عليكَ فقله بلهجتكم تلك ، ما رأيك ؟! لأنِّي لم أتقنْ لهجتكم بعدُ جيدَ الإتقان .

فقال أدهم مبتسماً :

-ماشي يا عم عبده حاضر، احنا وصلنا لحد فين ؟ ... آه ...

فأكملَ :

-أول مرةٍ أقابلها فيها كنتُ في الثانوية العامة ، وكانتْ هي في الصف الأول الثانوي ، وحين رأيتُها من أول وهلةٍ كأنَّ قلبي اقتُلع من بين ضلوعي .. كانتْ ولا تزالُ أجملَ من ْرأت عيني

، في أعينها جمالٌ بلا حدودٍ ، زمنٌ توقَّف عنده الزمن ، ذبتُ في إيقاع خطوتها ، كنتُ أسيرَ عينيها منذُ النظرةِ الأولى .. كانتْ البسمةُ تطلُّ من صبح وجهها المشرق ، فكأنَّها تبعثر السعادة في أراضي القلوب الخصبة ؛ لكي تنبت البسمةُ منعكسةً على وجوهنا الحيْرى ، واخضرار عينيها الذي فاق جمال خضرةِ العشبِّ ، يبعثُ الطمأنينةَ في كلِّ عينٍ تبصرها ، وما كادتْ عينٌ تبصرها حتى تتعلقَ بها فيُهَلْهِلَ القلب فرحاً باشتياقٍ ، عيونُها فاتكةٌ بكل ما يراها ومَنْ يراها .. أمَّا قوامها فكأنَّها إحدى حور الجنان ، أو مهرةٌ هبطتْ من السماء ؛ لتسبحَ في عالمها الخاص ، فتجذب به وفيه كلَّ مَنْ تمرُّ عليه ، كنتُ أسيرَها وكم أحببْتُ ذلك ، فلقد أحرقتْ قلبي إعجاباً ، حينها حين رأيتها آنذاك ، كانتْ تمشي مع صديقتيها يُغَمْغِمْنَ بالكلمات ووقفتُ مذهولاً ، شاردَ الذهنِ ، وحين حدَّثتْ صديقتها التي قالتْ لها :

-شهد هتروحي الدرس النهاردة ؟!

فردتْ شهد :

-إن شاء الله .

فقالتْ صديقتها :

-طيب ، و امتحان بكرة هنعمل فيه إيه ؟!

شهد :

-إن شاء الله هنذاكر له بس أنتِ أنوي و ... .

والتقتْ عينُها بعيني فشعرتُ بالخجل ، فصمتتُّ إلى أنْ مررْنَ بعدي بمسافة فسمعتها تكمل كلماتها ، شعرتْ هي بالخجل ، أمَّا أنا ففقدتُ ذاتي .. دخلتُ حالةً من اللاوعي ، شعوراً من اللاشعور، فما شعرتُ به هو حالةٌ من غياب الوعي بما حولي ، فلا أعي ولا أبصر سواها ، وأمَّا وَقْعُ صوتِها على أذني وأسماعي فصوتُها كان دافئاً ، رقيقاً ، أطربَ قلبي قبل مسمعي ، وظللّْتُ طوال هذا اليوم لا يتردَّد بأذني إلَّا صوتها ، فما عدتُ أسمع إلَّا إياه ، ولمْ تعدْ عيني ترى إلَّا صورتها ، وصرتُ أرى أيَّ فتاة أو أنثى بملامحها هي وشكلها هي ، فظللّْتُ هكذا حتى نمتُ بعد أنْ طالَ ليلي كثيراً وأنا أفكر بها ، وأراها أمام عيني وأسمع صوتها العذب في آذاني ، فاستغرقتُ في نومي فإذْ بي أراها في الحلم ، وقد جلستُ معها أحدثها عن نفسي ، وأسألها عن نفسها واستمتع وتَطربُ آذاني بسماع صوتها ، ويضاء كوني وشعلة عيني برؤياها ، ولو كان ذلك في أحلامي .. من بعدها استيقظتُ فقررتُ أنْ أسألَ عنها ، فسألتُ وسألتُ وما سمعتُ عنها إلَّا ما زادني تعلقاً بها ، وجدير بالذكر أنِّي قبلها لم أكن أعرف للفتيات سبيلٌ ، وظللّتُ أياماً كُثر لا أراها ، ولكنَّني كنتُ ومازلتُ أراها كلَّ يومٍ في أحلامي ، وأحدثها وتحدثني إلى أنْ أصحو من نومي صباحاً ، فأحببتُ النوم لأجلها ؛ لكي أحدثها وتحدثني ، فأسمعُ صوتَها وأراها ، ولكنَّني وجدتُ الأمرَ يشغل حيزاً كبيراً من تفكيري ، فقررتُ أنْ أجتهدَ في الثانويةِ

العامة وفي حياتي كلها لأجلها فقط ، نعم لأجلها كي أكون في مكانةٍ مرموقةٍ فأستطيعَ أنْ أتزوجَها وأسعدَها في حياتنا ، وأكثر ما أدهشني أنا ، أنَّ كلَّ هذا حدث عندما رأيتها مرةً واحدةً ، وسمعتُ صوتها مرةً واحدةً فقط ، ولم تكن تحدثني بلْ سمعتها وهي تحدِّثُ صديقتها ، وظللّت طوال عامي ذاك في الثانوية العامة أجدُّ وأجتهدُ من أجلها ، فلقد صارت هي الآن هدفي ، والطريقة الوحيدة للحصول عليها وإسعادها هي بالتفوق ؛ كي أكون إنساناً يافعاً ، وأكونَ الشخصَ الذي تحلم به أيَّ فتاةٍ ، لكنَّني لم أكنْ أريد أيَّ فتاةٍ بلْ كنتُ أريدها هي ، مع العلم أنَّني من عائلةٍ ثريةٍ ، لكنْ يا صديقي ما أجمل أنْ تكونَ ذاتك ، ومنذ ذلك الوقت إلى أنْ انتهتْ تلك المرحلة تضاعفَ جهدي ، وكلَّما تقاعستُ تذكرتُها ، بل إنَّني والله لم أنسَها ولم تغبْ عن جفوني قط ، وكنتُ ألجأُ للنوم كي أراها وأسمعها ، وهي تشجعني وتقولُ لي اجتهد لنكونَ معاً ونكون لبعضنا ، فكنتُ أستيقظُ من نومي مشتعلاً بالنشاط والحيوية والطاقة والعزيمة ، فأتوكلُ على الله وأجدُّ .

وكنتُ أراها من حينٍ لآخر من بعيد ، فأشعر بروحي وأشعر بالحياة ، ولكنَّني لم أفكرْ قط في أنْ أصارحها بحبي لها أو أخبرها ، وما فعلتُ ذلك إلَّا خوفاً عليها .. نعم فأنا لا أريد لها إلَّا الخير وإن لم يكن معي ، وأريدها أنجح وأفضل فتيات الكون ، فخشيتُ

أنْ يحدثَ معها ما يحدثُ معي ، فقلتُ لنفسي أنا رجلٌ وقويٌّ أستطيع أنْ أكتمَ ، أمَّا هي فما يدريني !! وذات يومٍ رأيتُها في حلمي كالعادة ، ولكنَّها كانتْ حزينةً ، فقلتُ لها وأنا على وشكِ أنْ أبكي ، فلم يسبقْ لي رؤياها حزينةً خاصةً في حلمي :

-مالِك يا شهد حزينة ، زعلانة ليه ؟!

فبكتْ وقالتْ وهي تبكي :

-أنا خايفة عليك يا أدهم ، أنت مش بتصلي وبعيد عن ربنا .

فبكيتُ بدوري لبكائها ، وقلبي غمرته سعادةٌ بالغةٌ لم أذقْها إلَّا معها ، فتلكَ هي المرةُ الأولى التي يوجهني فيها أحدهم إلى الله ، ومنذُ ذلكَ الوقتِ وبدأتُ أصلي ، وبعدها بدأتْ امتحانات الثانويةِ العامةِ وما أدراك وإياها ! وكنتُ لا أستطيعُ النوم من شدة القلق ، فأقومَ وأصلي وأنام لأراها في الحلم وهي تشجعني وتطمئني وتهدأَ من روعي ، والغريب أنِّي أستجيبُ لها بشكلٍ تلقائيٍّ كما لو أنَّني آلةٌ مسخرةٌ لها ، توجهها حيث تريد وقتما تريد وأينما تريد !!

بعدها حان يوم نتيجة الثانوية العامة ، وظهرتْ النتيجة وقد وفِّقْتُ الحمد لله وحصلتُ على درجة عالية والتحقت بكلية الهندسة ، وكلُّ ذلك لم أبُحْ بحبي لها ، ومرَّت سنةٌ كاملةٌ أخرى وأصبحتْ في الصف الثاني الثانوي ، وكلُّ يومٍ ازداد ولعاً بها ، ولا أرضى أنْ أبوحَ لها بحبي خوفاً عليها لا على نفسي ، بالرغم من

أنَّني أرى فتياتٍ كثيراتٍ في الجامعة إلَّا أنَّ أيَّاً منهن لم تَرُقْ لي ، وصرتُ أرى ملامحها في كلِّ فتاةٍ في الجامعةِ ، مرَّ عامان وكلُّ يومٍ تفكيري بها يزداد ، وأراها ولكنْ من بعيدٍ ومستواي التعليمي استهلَّ في التراجع يوماً بعد يومٍ وهي تزورني في أحلامي ، ولكنْ بدأتْ زيارتها تقلُّ بعد أنْ كانتْ تزورني كلَّ يوم ، وأنهتْ شهادة الثانوية العامة ، بعد أنْ قضتْها في عامين ، وأنا الآن على أبواب إنهاء العام الثالث لي في الجامعة ، فتزورني شهد في الحلم بوجهها البشوش ، والذي ترتسم عليه ابتسامتها الفاتكة ، فينشرحُ لها صدري وهي تنصحني بالجدِّ والاجتهاد وتقول :

-أدهم ، شدّ حيلك مش معنى إنك دخلت الكلية اللي أنت عاوزها أو بالمعنى الأصح كلية عالية إن أنت كدا خلاص نجحت أو وصلت لنهاية الطريق ، لا أنا عاوزاك أنجح راجل في العالم فشد حيلك علشان خاطري .

قالتها باستعطافٍ وترجٍ ، واستطردت :

-كمان أنت بعيد عن ربنا يا أدهم لا ، قرب من ربنا وإن شاء الله ربنا هيكرمك .. يلا بقى مع السلامة وقوم صلي الفجر ، قومْ متكسلش .

واستيقظتُ من نومي مع آذان الفجر ، فصليتُ واجتهدتُ حتى فرغتُ من الامتحانات وكانتْ هي أيضاً أنهتْ امتحانات الثانوية العامة .

والآنَ قرَّرتُ أنْ أبوحَ لها بحبي وأرى ما رأيها ، وبالفعل حصلتُ على رقم هاتفها وقرَّرتُ أنْ اتصلَ بها فأخبرها ، وحينها أمسكتُ هاتفي وأدخلتُ رقم هاتفها وضغطتُ على زر الاتصال بأصابعَ مرتعشةٍ ، فسمعتُ صوت الجرس فازدادت رعشةُ أصابعي ، وسمعتُ صوتَها تقول :

- ألو، السلام عليكم .

حتى غمرتْ الرعشة والقشعريرة جسدي كله ، فسقط الهاتف من يدي فأُغْلِقَ وانتهتْ المكالمة ، فانتظرتُ قليلاً حتى هدأتُ واستجمعتُ قواي مرةً أخرى ، فاتصلتُ مجدداً وهذه المرة كنتُ أنا البادئ وقلتُ :

-السلام عليكم .

شهد :

-عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، مين معايا ؟!

- أنا أدهم العربي يا شهد ، عارفاني ؟

فقالتْ بلهجةٍ صارمةٍ :

- أيوة ، وحضرتك عاوز ايه ؟ وبتتصل برقمي ليه ؟! وجبته منين أصلاً ؟!

-شهد ! باختصار أنا معجب بيكي جداً جداً ، لا دا مش إعجاب دا ح... .

فأغلقتْ الهاتف في وجهي ، ضحكتُ قليلاً ثم حاولتُ الاتصال

مرةً أخرى مؤخراً ، فلم تردّْ فحاولتُ وحاولتُ حتى ردَّتْ وحينها قالتْ وبدون أيِّ مقدماتٍ :

-حضرتك أنا مش بتاعت الكلام الفاضي دا ، ويا ريت حضرتك متتصلش هنا تاني بعد إذنك !

وكانتْ على وشكِ أنْ تُغلقَ الهاتف ، ولكنَّني قلتُ مسرعاً :

- شهد ، لو سمحتي اسمعيني الأول وبعدين اعملي اللي أنتِ عاوزاه .

- أنا آسفة حضرتك مش هينفع .

- لو سمحت يا شهد .

قلتُها بهدوءٍ شديدٍ واستعطافٍ فصمتتْ قليلاً ، ثمَّ قالتْ :

- اتفضل حضرتك قول اللي عندك .. بس يا ريت تقول اللي أنت عاوزه باختصار وبسرعة .

-أنتِ عارفة كويس إني برضو مليش في الكلام دا زيك ، بس بجد والله العظيم اللي أنا هحكيهولك دا بجد وحقيقي ، ويا ريت تحسيه !

ثم قصصتُ عليها كلَّ ما حكيته لكَ منذ قليل ، ومن بعدها أغلقتْ الهاتف في وجهي بدون أنْ تنطقَ بكلمةٍ واحدةٍ ، وطوال حديثي لم تقاطعني أو تظهر أيَّ رد فعلٍ ، مما جعلني أَشكُّ بأنَّها لم تسمعْني ولم تعِ كلماتي .. ومرَّتْ أيامٌ وحاولتُ الاتصال بها فلم تردْ حتى شعرتُ بنوباتِ اليأسِ تنتابني .

* * *

- اندهلي الظابط إبراهيم وكل ظباط المديرية بسرعة ، اجتماع عاجل يلا يا عسكري .

قالها الضابط حسن مهران بصرامة للعسكري الذي أدى التحية العسكرية وانصرف بعدما قال :

- تحت أمر سيادتك يا افندم .

ابتسم حسن بخبثٍ ، وجلس يحدث نفسه ويقول :

- من دلوقتي بقى والمغامرات هتبدأ .

وأطلق ضحكةً شريرةً لكنَّها مكتومةٌ ، ومن ثمَّ بدأ الضباط يأتون ويجلسون على منضدة الاجتماعات واحداً تِلْوَ الآخر ، حتى نهض الضابط حسن مهران وذهب إليهم ، ونظر إليهم جميعاً ثم قال :

- فين الظابط إبراهيم مش شايفه يعني هو دايما كدا .. .

قاطعه صوتُ إبراهيم قائلاً :

- موجود يا افندم .

ودخل الأخير وجلس بجوار زملائه الضباط وبدأ الاجتماع .

* * *

-بعد مرور عدة أيام وجدتُ هاتفي ، يعلو رنينه ، مفصحًا عن مفاجأةٍ ما كنتُ أبداً أتوقعها .

قالها أدهم مبتسماً ثم أردف :
- إنَّها شهد ، لم أتمالكْ نفسي من المفاجأة المختلطة بالسعادة مع القلق ؛ خوفاً من أنْ يكونَ الأمرُ ساء أكثر ، أمْ أنَّ الأمرَ تحسَّنَ ، وسمعتْ كلماتي التي قلتها وشعرت بي ! وإذ بي أجيب وأقول :
-السلام عليكم .
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
قالتها بنفسِ الدفئ الذي كانتْ تحدثني به في أحلامي ، فشعرتُ بأنَّني أحلم وأنَّني بعيدٌ عن الواقع ، فأخذتُ أقولُ :
- ازيك يا شهد ، عاملة ايه ؟
- الحمد لله تمام ، أنت عامل ايه ؟
فكأنَّني أحسستُ قلبي يذوبُ بين أضلعي ، وإلى الآنَ لا أكادُ أصدقُ ، وإذْ بي أقول :
-الحمد لله كويس ، طول ما أنتِ كويسة .
شهد بخجل :
-الحمد لله ربنا يخليك .
-عارفة أنا لغاية دلوقتي مش مصدق نفسي ، حاسس إن أنا بحلم لأنك بتتكلمي بنفس الدفئ اللي بتكوني بيه في أحلامي ، فهل أنا فعلاً بحلم ولا ايه ؟!
-لا يا أدهم أنت مش بتحلم أنا شهد !
وعندما قالتْ لي يا أدهم – ضاحكةً - ، شعرتُ بأنَّ الدنيا كلَّها

والبشريةَ جمعاءَ ترقصُ أمامي ، وشعرتُ وكأنَّ قلبي يرقصُ بين ضلوعي من شدة الفرحة .. كيف لا ؟! وهي المرة الأولى التي تنطق فيها اسمي بعيداً عن أحلامي .. هذا اليوم لن ينساه قلبي أبداً ، فوجدتُ نفسي أقول:

- شهد ! على فكرة الكلام اللي قولتهولك المرة اللي فاتت ، أقسم بالله صحيح وحقيقي والله مفيهوش أي كدب .

ثم صمتتُ منتظراً إياها أنْ تقاطعَني ، وبالفعل تحدثتْ بعد قليل وكأنَّها تود لو تسمع أكثر ، أو لا ينقطعُ حديثي هذا ، لكنْ والله ما صمتتُ إلَّا لأنِّني أود لو أسمع صوتها .. لا أريد لحديثها أنْ ينتهي فقالتْ :

-أنا عارفة يا أدهم ومصدقاك ، وعلى فكرة أنا .... .

- أنتي إيه ؟

-أنا .... مضطرة أقفل السكة دلوقتي وهبقى أكلمك تاني .

وأطلقتْ ضحكةً جميلةً مثلها ، فأطلق أدهم بدوره ضحكته التي خرجت عفويةً منه وأردف :

- بتهزري !! عامةً يا ستي ماشي مع السلامة يا أحلى وأرق شهد في الدنيا.

-مع السلامة يا أدهم .

قالتْها برقةٍ بالغةٍ مستْ أعماق قلبي المشتاق ، وظللّت أكثرَ من ساعتين غيرَ مصدقٍ نفسي ، وكلُّ دقيقةٍ أفتح هاتفي لأتأكدَ

أنِّي كلمتها فأجد نفسي قد حدثتها بالفعل ، وظللّتُ سعيداً طوال اليوم ولم يستطعْ عائقٌ أنْ يعكِّرَ صفوِّي من شدة سعادتي .

كانتْ هذه هي بداية تعارفنا يا صديقي ، ومن بعدها مرَّت الأيام وصرنا نهاتف بعضنا أكثر من مرةٍ في اليوم الواحد ، وتعرفتُ عليها أكثر وأكثر ، وعرفتُ كلَّ تفاصيل حياتها تقريباً وكانتْ المفاجأة أنها ... .

قال عبد الرحمن متسائلاً :

-أنَّها ماذا ؟! ليستْ كما توقعتْ ؟!

أدهم مبتسماً:

- بل كانتْ كما تخيلتها .. كانتْ كما تبدو لي بالحلم في كلِّ شيءٍ ، وهذا ما أثار دهشتي ، إنَّها فتاةُ أحلامي يا صديقي .. وبدأتُ أحدث أمي عنها آنذاك وكان حديثناً عادياً ؛ إذْ كنتُ أذكرها أمام أمي كأنَّها فتاةٌ عابرةٌ ولا أعرفها ولكن أسمع عنها فقط ، ولم أكن أسميها أمام أمي ، وإلى الآن لا أفعل وكنتُ على وشك إنهاء الدراسة الجامعية إذْ كنتُ في الفرقة الثالثة وتبقَّى لي عامان على التخرج ، وحدثتها يوماً وقلتُ لها :

-عاوز أقابلك وأقعد معاكي شوية ، عاوز أتعرف عليكي أكتر.

-مش هينفع يا أدهم للأسف .

- ليه ، أنا مبخفش من حد ، أنتي خايفة ليه أو مش عاوزة تقابليني ليه ؟!

_ معلش يا أدهم مش هينفع .
_ ماشي يا شهد براحتك ، مع السلامة .
قلتُها وأنا غاضبٌ ثمَّ خَلَيْتُ إلى شيطاني وراجعتُ الأمر ووجدتُها على صوابٍ ، وأنَّه من الحماقة لو خرجنا معاً ورآنا أحدهم ، فأنا رجلٌ ولن يعيبني هذا ، أمَّا هي فتاة وسيعيبها هذا وسيُساء الفهم وستمتلئ أفواه الحاقدين عنها بظن السوء والكلام المَشِيْنَ ، وكان رأيُها هو الصواب ، وما زادها ذلك يا صديقي إلَّا إكراماً في قلبي ، فقرَّرْتُ أنْ أتصلَ بها مجدداً وقلتُ :
- شهد ، أنا كنت عاوز أقولك إن أنتي كان معاكي حق ورأيك كان هو الصح ، وأتمنى متكونيش زعلتي .
- لا يا أدهم متقلقش أنا مش زعلانة .
- ماشي ، خلي بالك من نفسك .
قلتُها مبتسماً وردتْ هي الأخرى بنفس الابتسامة التي شعرتها في نبرة صوتها وكلماتها :
-إن شاء الله ، وأنت كمان خلي بالك من نفسك .
ومن بعدها تقابلنا مراتٍ معدوداتٍ في الجامعة ، ولكنْ كلُّ هذا عن غير قصدٍ ولكن على مرأى ومسمع الكثيرين ، وكنَّا نحدِّث بعضنا بالهاتف ومازلنا ونشجع بعضنا ونساند بعضنا دائماً ، حتى عندما ظهرتْ نتيجتُها في إحدى سنوات الجامعة ولم تكنْ كما توقعتْها ، ساندتُها وأخبرتُها أنَّها ليستْ نهاية العالم ، وأنَّ المستقبلَ

ينتظر ولا يجبُ أنْ نظلَّ في الماضي وآلامه .. ومرَّتْ هذه الأزمة ومن بعدها ، ولطالما نحفزُ بعضنا فأنا أريدها أفضل فتاة في الكون ، وهي تريدني أنجح وأفضل رجل في الدنيا ، فكنتُ أتميَّزُ وأتفوَّقُ من أجلها كما كنتْ أفعلُ مسبقاً ، ولكن هذه المرة لم أكن أسمعها وأراها في أحلامي بل على أرض الواقع ، وبالفعل تخرجتُ الآن منذ عامٍ واحدٍ وأعمل الآن في شركة من أنجح الشركات بمصر، وهناك العديد من الشركات اللاتي يردن التعاقد معي ، وكلُّ ذلك بتوفيقٍ من الله بالطبع ثم بسببها وبسبب وجودها بحياتي ، يسعك القول يا صديقي أنَّها كلُّ حياتي .

هكذا تعرفتُ عليها ، وهكذا سارتْ ولا زالتْ تسيرُ علاقتُنا .. تشجعني تارةً وأشجعُها تارةً .

وكلُّ هذا وأنا لم أقابلها عن قصدٍ أو أحدثها وجهاً لوجهٍ وإنَّما هاتفياً ، وبعض المرات في الجامعة ودائماً ما تكون مع صديقاتها فما يكون حديثي معها إلَّا إنْ سألتُها إنْ كانتْ ينقصها شيءٌ أو تريدُ شيئاً ، وكلُّ هذا على مرأى ومسمع صديقاتها واللواتي شكَّكْن في أمرنا لكنَّهن يعرفن صديقتهن ويعرفنَنِي جيداً ، والمرة الأولى التي قررنا أنْ نتقابلَ بحجةِ أنَّني أريدها في أمرٍ هامٍ كانتْ المرة التي رأيتنا فيها ، ولكنَّنا توتَّرنا ولم تزِدْ مقابلتُنا أكثرَ من نصفِ ساعةٍ ، وكانتْ كالآتي :

-ازيك يا شهد ، عاملة ايه ؟

- ازيك يا أدهم ، أنا الحمد لله كويسة ، أنت إيه أخبارك ؟!
-أنا الحمد لله تمام ، اقعدي يا شهد .
وجلستْ على المقعد المقابل لمقعدي ، وبدا عليها التوتر عندما جلستُ أنا الآخر والتقتْ عيني بعينها ، لكنَّ توترها واضطرابها لم يكن يضاهي توتري واضطرابي ، حتى أنَّني جلستُ قرابة العشرِ دقائقَ صامتاً وأنا أنظر إلى الأرض وإليها وحولنا ، ومن ثَمَّ صوبتُ عيني إلى وجهها البشوش ، ووجنتيها التي تغمرهن حمرةُ الخجل التي تزيدها جمالاً على جمالِها ، وأخيراً نطقتُ وقلتُ :
- ا... تتشربي ايه يا شهد ، ولا تحبي ناكل حاجة ؟!
- لا لا نشرب عصير .
قالتْها بخجلٍ شديدٍ وهي تضع وجهها أرضاً فناديتُ على النادل وقلتُ له :
-هاتلنا اتنين عصير .
وانصرف النادلُ وعاد بعد قليلٍ بالمشروب ، وكل هذا وأنا وهي لم نفعلْ سوى أنَّنا ننظر إلى الأرض تارةً وننظر لبعضنا تارةً أخرى ، وبعدها قلتُ لها :
-ايه أخبار الدراسة معاكي يا شهد ؟
-الحمد لله تمام .
-تمام يعني ؟
فأومأتْ برأسها فاستطردتُّ :

-طيب الحمد لله شدي حيلك ، عاوزينك حاجة كبيرة إن شاء الله .
قلتُها مبتسماً ، فنظرتْ إليَّ مبتسمةً وقالتْ في خجلٍ والذي لم يفارق أيّاً منّا إلى الآن :
-إن شاء الله ، وأنت كمان يا أدهم شد حيلك .
ثم رشفتْ من كأسها رشفةً ، ثم قالتْ :
- أمشي أنا بقا يا أدهم علشان الوقت اتأخر .
-ليه ؟ طيب اشربي العصير .. أنا مشبعتش منك يا شهد ، ودي أول مرة اقابلك فيها .
-معلش يا أدهم ، أنا ماشية .
- طيب استني أوصلك .
-لا لا ، خليك أنا همشي لوحدي .
- لا ، إزاي استني بس هحاسب وهوصلك .
وناديتُ النادلَ ودفعتُ له ثمنَ ما طلبنا ، ثمَّ مشيت معها حتى ركبتْ سيارةً أجرةً إلى منزلها ، ولمّا ركبتْ لوَّحْنا لبعضنا متمنياً أنْ ألقاها مجدداً وأنْ أحظى بها أبدَ الآبادِ .
عبد الرحمن:
- لِمَ لا تتزوجها ؟! إنْ كنتَ تحبُّها هكذا وهي تحبُّك .
أدهم :
-أنت عارف إيه الموضوع اللي كنت هفاتحها فيه .

-ماذا ؟!

- إني أتقدملها وأخطبها بس .

ثم ازدرد لعابه وقال:

-مش عارف مقدرتش أتكلم معاها المرة اللي فاتت مع إن الموضوع في نيتي والله وإن شاء الله تكون ليا .. أنا هفاتحها في الموضوع المرة الجاية إن شاء الله .

عبد الرحمن مبتسماً:

-إن شاء الله يا صديقي ، أسعدكم الله ورزقكم السلالةَ الصالحةَ ، وجعل منكم وأبنائكم شيئاً ينتفع به الإسلام والمسلمون .

أدهم بسعادةٍ:

-آمين يا رب ، شكراً يا صاحبي ربنا يخليك .

وعانقا بعضهم البعض ، وأردف عبد الرحمن:

-سأسألك المرة القادمة إنْ كنتَ قد أخبرتَها أمْ لا !! وأتمنى أنْ يكونَ الجوابُ نعم .

ابتسم عبد الرحمن بعدما قالها وكذلك أدهم ، وقال الأخير:

-إن شاء الله يا صديقي .

وتعانقا مرةً أخرى سعيدين .

الفصل الثامن

- دلوقتي احنا على أبواب الامتحانات ، اللي هي بقيلها كام يوم واحنا الحمد لله خلصنا ، وأتمنى ميكنش حد وقع منه أي حاجة في المنهج ، وعامةً أي حد يحتاج أي حاجة تبع المنهج أو برة المنهج أنا تليفوني وباب بيتي مفتوحين في أي وقت ، يلا شدوا حيلكم وبالتوفيق ليكم جميعاً .

قالها الاستاذ محمود مودِّعاً تلاميذه بعد آخر حصة لهم في هذا المنهج بعدما نفَّذوا ما اتفقوا عليه ، وراجع لهم الاستاذ محمود منهجهم بإتقان ، وبالفعل بعد أيام بدأت فاعليات امتحانات نصف العام الدراسي للطلاب ، وامتحن الطلاب امتحاناتهم وقضوا إجازاتهم ، كأيِّ طلابٍ قضوها في اللعب تارةً والجدِّ تارةً أخرى إلَّا محمداً الذي قضى معظم إن لم تكن كلَّ إجازته في العمل مع والده في مزرعته التي كان يزرعها في بلدته الريفية ، لكنَّه كان يذهب إلى مدرسته في المدينة بعيداً عن الريف ؛ لذا لم يكن يحكي لأصدقائه عن هذا إلَّا البعض منهم الذين هم من نفس بلدته الريفية ، أو الذين حالهم كحاله ، حتى انقضتْ الإجازة وحان

وقت العودة إلى الدراسة ومعرفة نتيجة الامتحانات ومقابلة معلميهم المحببين .

وكان محمد من أكثر المتشوقين لمعرفة نتيجته ؛ حيث أنَّه طوال الفصل الدراسي الأول وهو يجدُّ ويجتهد ويريد أنْ يرى ثمرة جهده ، وهو يعلم يقين العلم أنَّ الله لنْ يضيعَ مجهوده سدى ، وكان محمد قنوعاً متواضعاً غيرَ كذَّابٍ أو لئيماً ، بلْ كان صادقاً مجتهداً يدعمُ جميعَ أصدقائه ، ودائماً وأبداً يشجعهم وينصحهم بالجدِّ والمثابرة ، وإذا لاحظَ تراجعَ مستوى أيِّ أحدٍ من زملائه كان له بالمرصاد فيشجعَه ويدعمَه حتى يعودَ لسابق عهده ، وها نحن غداً على وشكِ بدأ الجزء المفضل من حياة محمد وهو و جزء أو فترة الدراسة ، الفصل الدراسي الثاني .

* * *

وقف الضابط حسن مهران أمام الضباط أجمعين ، وقال في حزمٍ :

-الاجتماع دا علشان موضوع الدرويش .. اللي احنا أصلا مورناش غيره ، ها يا بشوات حد وصل لأي حاجة ؟!

نظر الضباط إلى بعضهم البعض ومن ثم إلى الأرض ، ثمَّ قال أحدهم :

-يا فندم إحنا مراقبين البيت والمخزن أربعة وعشرين ساعة ومفيش أي حاجة كدا ولا كدا ، ولا أي شيء يدل على عمل خارج

.

فقال حسن مهران بعصبيةٍ :

-يبقى أنتو نايمين يا حضرة الظابط ، أنتو مش شايفين شغلكم كويس ، وبالطريقة دي عمركم ما هتقبضوا على الدرويش .

بدتْ معالم الضيق والغضب على وجوه الضباط قبيل نظرهم إلى الأرض خجلاً ، ولم يتفوَّه أحدُهم بكلمةٍ واحدةٍ ، ومِنْ ثمَّ التفتَ حسن مهران ناحية الضابط إبراهيم وقال له :

- وأنت يا إبراهيم موصلتش لحاجة ، علشان سألت عليك أكتر من مرة هنا في المديرية مش بلاقيك ، وكمان واخد جنب بعيد عن زمايلك وتواصلك معاهم قليل بخصوص العملية دي .

قاطعَه إبراهيم محاولاً تجاهل العبارة الأخيرة :

-أنا يا فندم شغال على القضية بكل ما أوتيت من حيلة وقوة ، والحمد لله قدرت أوصل لمعلومات مهمة جداً بخصوص العملية

.

ازدرد إبراهيم لعابه ثمَّ أردف :

-وإن شاء الله هنقبض على الدرويش .

قالها ثم اعتدل ناحية زملائه الضباط وأردف:

-ونوصل للخاين اللي ما بينا قريب .

بدتْ علاماتُ الاضطراب تظهر بين الضباط قبل أنْ يقولَ الضابط حسن مهران :

- بالظبط يا حضرة الظابط ، وإن شاء الله الخاين دا أنا هوريه المرّ، هندمه إنه في يوم من الأيام فكر مجرد تفكير إنه يخونّا أو إنه دخل شرطة أصلا !
ثم اعتدل ناحية إبراهيم وقال :
- إيه اللي أنت عرفته يا إبراهيم جديد بخصوص العملية ؟!
- قدرتْ يا فندم أعرف من خلال مصادرنا ميعاد تنفيذ العملية واللي هو هيبقى بعد يومين ، بس امتى بالظبط وإزاي هيتم لسة يا فندم ، بس أوعد حضرتك إن كل دا هيتم قريب .
أومأ حسن مهران برأسه ثم قال :
-النهاردة إحنا وصلنا كل المعلومات دي يا إبراهيم ، ميعاد العملية يوم الإتنين اللي جاي يعني بعد يومين بالظبط وهتتم إزاي وباقي المعلومات موجود في الملف دا ، اتمنى نركز شوية وإن شاء الله بكرة لينا إجتماع تاني هنحط فيه الخطة اللي بيها إن شاء الله هنقبض على الدرويش .
فقال إبراهيم :
-إن شاء الله يا فندم .
حسن مهران :
-شدوا حيلكم يا رجالة ، وربنا يوفقنا .
وانصرف الضباط ، وقبيل انصراف الضابط إبراهيم ناداه الضابط حسن مهران وقال :

-إبراهيم أنا عارف إنك ذكي وعلشان كدا مش عاوز العملية دي تخلص زي كل مرة ، لا .. عاوزين نقبض على الدرويش وكمان عاوز الخاين اللي بين الظباط ، سامعني يا إبراهيم أنا اخترتك أنت لأني بثق فيك وعارفك ما شاء الله ذكي ومجتهد .
ابتسم إبراهيم وقال :
-إن شاء الله يا فندم أكون عند حسن ظنك ، والعملية تتم على خير .
ربَتَ حسن مهران على كتف إبراهيم وقال :
- إن شاء الله ، وربنا يوفقك .. يلا روح ادرس الملف كويس علشان بكرة إن شاء الله هنحط الخطة .
انصرف إبراهيم بعد أنْ أدى التحية العسكرية وابتسم حسن ابتسامةً خبيثةً ، وكتم ضحكةً شريرةً في قرارة نفسه ، ودَّ لو أخرجها .

* * *

اليومُ هو أولُ يومٍ في الفصل الدراسي الثاني ، وقد عاد محمد لرؤية أصدقائه من جديد ، وقد شهد يومهم سعادةً غمرتْ كلَّ الوجوه والقلوب إلَّا القليلين مِمَّنْ لا يحبون الدراسة والمدرسة ، لكنَّهم فرحوا لرؤية أصدقائهم وزملائهم من جديد ، وهكذا غطتْ السعادة كل الوجوه من معلمين وطلابٍ ، وحان الآن وقت

العودة إلى الفصل حيث استئنافِ الدراسةِ من جديدٍ ، وكانتْ الحصةُ الأولى لفصل محمد مع استاذهم المحبب والمفضل دائماً وأبداً .. الاستاذ محمود الذي دخل إلى الفصل بابتسامته المعتادة التي لا تفارق وجهه ، وألقى من التحيات أرقَّها وأجملَها مُرَحِّبَاً بتلاميذه ، وبعدْ أنْ ردَّها التلاميذ قال:

- كل سنة وأنتم طيبين يا ولاد .

فردَّ الطلاب:

-وحضرتك طيب يا استاذنا .

قالها الطلاب بصوتٍ واحدٍ مسرورين فقال الاستاذ محمود:

-وحشتونا والله ، وأهلاً بيكم من تاني بعد غياب أكتر من اسبوعين ، أتمنى تكونوا استمتعتم بالأجازة ، علشان نكمل وإياكم الترم التاني .

فأومأَ الطلابُ ، فأردف الاستاذ محمود :

- النهاردة أول يوم فيدوب هناخد فكرة بسيطة عن منهج الترم التاني ، وهناخد كام ورقة بس كدا من أول درس ، يلا بسم الله .

ثم شهقَ بعمقٍ وقال:

- منهج الترم التاني مفيد جداً جداً في حياتك العملية واليومية ، وكمان مهم جداً للسنين الجاية للي ربنا هيكرمه ويكمل ثانوية عامة ، وأتمنى يا ولاد إنك تتعلم العلم للعلم مش علشان الإمتحان ، يعني مثلاً منهج زي اللي إن شاء الله هندرسه مع بعض مفيد

جداً لحياتكم زي ما قولت ، فأتمنى من كل قلبي نستفيد بيه وهو دا الهدف من العلم مش إنك تجيب درجات وأنت حمار مش فاهم حاجة .. فاهمين ؟!

وأخذ يعطيهم بالفعل فكرة عن منهجهم وهو يشعل رغبتهم في التعلُّمِ ، وكان الاستاذ محمود له طريقته الخاصة في جذب الانتباه وتشويق الطلاب لمعرفة منهجهم ودراسته ، كما شرح لهم بعض الصفحات إلى أنْ انتهى وقتُ الحصة وانصرف الاستاذ محمود واعداً إياهم بإعادة الجزء الذي شرحه ، واستكمال ما بقي من الدرس وحل التمارين كما اعتادوا أنْ يفعلوا مسبقاً .

انصرف الطلاب أيضاً إلى ساحة المدرسة ، وهناك التقى محمد بصديقه الصدوق علاء ، وتعانقا فَوْرَ رؤياهم لبعضهم البعض ، فقال علاء مبتهجاً :

- صاحبي يا صاحبي ، ليك وحشة والله أخبارك ياد ، رغم إننا بنتكلم في التليفون كل يوم إلا إنك واحشني خالص والله .

فرد محمد بنفس الابتسامة :

-صاحبي الغالي ، أنت اللي واحشني أكتر أقسم بالله .. عامل ايه ، وإيه دنيتك ؟! آه يا صديقي اسبوعين أهم أو أكتر بشوية لكن والله بعيد عنك مروا كأنهم سنوات .

علاء ضاحكاً :

-متكسفنيش بقى ، والله يا صديقي شعور متبادل بل ويزيد ،

تعالى نتمشى ونتكلم وإحنا ماشيين .
ومضوا معاً وأخذوا يتحدثون ويتحدثون عن كل ما جال بخواطرهم ، حتى جاء حديثهم عن النتيجة وكان علاء أيضاً طالباً مجتهداً متفوقاً ، وقال محمد :
-النتيجة بكرة يا علاء ، والواحد خايف والله وقلقان .
- يا عم خليها على الله هنقلق على إيه مش فاهم أنا ، إحنا تعبنا وذاكرنا والنتيجة بتاعت بكرة دي بإيد ربنا وعاجلاً أم آجلاً هتبان ، فعلى إيه نقلق نفسنا ، يا عم سيبها على الله بس ومتقلقش .
وكان علاء بالإضافة إلى عقله الرصين وثقافته العميقة وتميزه بين أقرانه وتفوقه ، لديه قدرةٌ هائلةٌ على الإقناعِ والتهدئةِ من روع الآخرين ، فكان كلامُه مقنعاً صحيحاً ، أراح محمد وهدأ من حدة قلقه الذي مازال يسري في أوردته ، فابتسم الأخير وقال :
- والله عندك حق يا علوة ، وأكتر حاجة عجباني فيك هدوء أعصابك وثبات انفعالك ، وكمان حكمك وكلامك الموزون والمقنع دا .
فابتسم علاء وقال:
-حبيبي يا صاحبي والله .
وكانت هذه آخر كلماتهم معاً فبعدها ألغيتْ باقي الحصص ، وعاد الطلاب إلى منازلهم ، وودَّع محمدٌ وعلاء كلاً منهما الآخر ، ومحمد مازال القلق يغمره ؛ لأنَّ النتيجة ستعلن غداً ، وكم

يتمنى أنْ ينقضي هذا اليوم لتطلعَ شمسُ الغدِ بما تحمله من أنباء .

* * *

وقف الضابط حسن مهران أمام جميع الضباط وقال :
- بكرة هو ميعاد تنفيذ العملية وأنا رسمت خطة محكمة جداً ، إن شاء الله هتكون القاضية اللي بيها هنقبض على الدرويش ونخلص منه .
ثم أخرج قلماً من جيبه وعلى بعض الورق بدأ يخطُّ بالقلم بعض الخطوط التي لا معنى لها ، وقال :
- بالمعلومات اللي وصلتلنا واللي معاكم مفيش طريقة محددة الدرويش هينفذ بيها العملية ، بس كل حاجة بتقول إنه هيطلع بيها من بيته ، وعلشان كدا إحنا هنحاصر البيت وخاصة البوابة بتاعت البيت اللي المفروض إحنا مراقبينها من ساعة ما سيادة اللواء وكْلنا للعملية دي آخر مرة ، فإحنا هنراقب كل العربيات اللي هتخرج وأكيد واحدة منهم هي اللي هتبقى فيها البضاعة ، بس خلو بالكم إحنا مش هنهجم إلا عند ميعاد التسليم ؛ أنا عاوز أجيب الدرويش واللي بيشتغل معاهم .. فاهمين ؟!
أومأ الضباط برؤسهم إعجاباً بهذه الخطة التقليدية ، لكنَّها الأكثر فاعليةً في موقف كهذا ، عدا إبراهيم الذي قال :

- بعد إذن حضرتك يا فندم ، أنا عندي ملحوظة صغيرة بس على الخطة .
قضب الضابط حسن مهران جاجبيه وقال :
-إيه هي الملحوظة دي ، اتفضل يا إبراهيم إحنا سامعينك .
- خلال فترة مراقبتي للبيت عرفت إن فيه باب تاني خلفي مصمم بطريقة ممتازة ، بحيث إنك لو شفته متقدرش تميز إنه باب بل بالعكس هتلقيه جزء من الحيطة ، والباب دا واسع كفاية إنه يعدي عربية نص نقل ، فمن خلال دراساتي للقضايا اللي فاتت ملقتش غير إن الباب دا هو المنفذ الوحيد للدرويش إنه يطلع منه البضاعة ، ودا بيقلل احتمال وجود خاين وسطينا ، فعلشان كدا لازم الباب يتراقب كويس ، ومعتقدش إن حد يعرف مكان الباب دا .. علشان كدا يا فندم أنا هستأذن حضرتك آخد قوة واتنين ظباط من زمايلي ونراقب الباب دا من بعيد ، وفي حالة حصل اللي أنا توقعته نبقى جاهزين ونقبض على الدرويش .
نظر الضباط بعضهم لبعضٍ متبسِّمين ومعجبين بإبراهيم ذاك الضابط الرائع المجتهد ، في حين قضب حسن مهران حاجبيه مستنفراً ، فهو يعتقد أنَّه الأفضل وأنَّه أفضل العقول المفكرة بين جميع ضباط القسم وقال :
- أحسنت يا حضرة الظابط ، كويس إنك مركز وملحوظة قوية وجميلة فاعمل اللي أنت بتقول عليه .

-شكراً يا فندم ، بس بعد إذن حضرتك يا فندم في حاجة كمان .
حسن مهران بغضبٍ مكتومٍ ، بعد أنْ شهق :
- إيه كمان يا حضرة الظابط ، قول كل اللي عندك .
- حضرتك من شوية قولت لازم نقبض على الدرويش وهو بيسلم البضاعة ، طيب يا فندم هو الكلام دا تحت أي ظرف ولا إيه ؟!
- آه فهمت ، أيوة يا حضرة الظابط تحت أي ظرف ، لازم نقبض عليه وهو بيسلم البضاعة .
- تمام يا فندم .
تنهَّدَ إبراهيمُ قليلاً ثم قال:
- بعد إذن حضرتك يا فندم ، يا ريت من دلوقتي لحد ما تخلص العملية كلنا وبلا استثناء نسلم موبيلاتنا ، علشان نضمن إن محدش يعرف خطتنا ، وكمان نضمن إن محدش يبلغ الدرويش بأي حاجة .. وأنا أول واحد .
وأخرج إبراهيم هاتفه ووضعه في صندوق على المنضدة ، فقضب الضابط حسن مهران حاجبيه غضباً وقال موجِّهاً كلامه لجميع الضباط :
- طلعوا موبيلاتكم وسيبوها هنا لحد العملية ما تخلص .
فأخرج جميع الضباط هواتفهم ، ووضعوها كما فعل إبراهيم وكذلك فعل الضابط حسن وأخرج هاتفه وقال :
- أرجو الالتزام بالخطة وربنا يوفقنا ، تنفيذ الخطة هيبدأ من

النهاردة بالليل ، علشان كدا كل الظباط تتجمع هنا الساعة عشرة .. مفهوم ! ربنا يوفقنا .

- تمام يا فندم .

قالها جميع الضباط وانصرفوا بعدما أدوا التحية العسكرية ؛ ليستعدوا للعملية .

في المساء اجتمع الضباط في مديرية الأمن اجتماعهم الأخير قبيل موعد تنفيذ العملية ، وقال الضابط حسن مهران:

- شكري .

- تمام يا فندم .

قالها شابٌ في الثلاثينيات من عمره ، طولُه قرابةَ الخمسةِ أقدامٍ ، ليس شديدَ البياض ، أسودُ العينين ، معروفٌ عنه الصرامة والأمانة في عمله ، فاستطرد حسن :

- أنت هتروح مع إبراهيم .

- تحت أمرك يا فندم .

-عزيز .

-نعم يا فندم .

ردَّ شاب في عقده الثالث أيضاً ، لكنَّه أبيضُ البشرة ، بشوشٌ ، وأيضاً يُعْرَفُ عنه الذكاء والقوة والإخلاص وتفانيه في العمل .

-أنت كمان هتروح مع إبراهيم .

فقال عزيز مبتسماً :

-تحت أمرك يا فندم .
ثم نظر إلى إبراهيم وهو يبتسم ، فبادله الآخر بابتسامةٍ وأردف الضابط حسن مهران:
-أما باقي الضباط هييجوا معايا ، كله كدا عارف إيه دوره ومكانه ؟! في أي حد عنده سؤال ، أو أي تعليق ؟!
فلمْ يُجبْ أحدٌ فاستطرد :
-وانت يا إبراهيم ، انت وشكري وعزيز خدوا القوة اللي أنتو عاوزينها ، واتوكل على الله ودايما على اتصال مع كل خطوة ، بالتوفيق .
- تمام يا فندم .
وانصرف إبراهيم ومعه شكري وعزيز، وقال حسن لباقي الضباط :
-واحنا كمان يا رجالة يلا بينا .
فانصرف جميعهم ، واتخذوا أماكنهم التي اتفقوا عليها في خطتهم أمام بوابات بيت الدرويش في انتظار الصباح وما يحمله من خبايا وأحداث .

* * *

في صباح اليوم التالي أُعلنتْ نتيجة الفصل الدراسي الأول للمرحلة الإعدادية ، ويذهب محمد إلى المدرسة على عَجَلٍ فهو

يريدُ أنْ يعرفَ درجاته ، وذهب بالفعل إلى حيث تكون الدرجات ؛ ليجدَ نفسه حاصلاً على المركز الثاني بين طلاب مدرسته ، ليس هذا ما أحزنه بَلْ درجتُه في مادة العلوم - التي يدرسها لهم الاستاذ محمود - لم تكنْ كما توقَّع بل كانتْ - على حسنها - مخيبةً للآمال بالنسبة له ، وبينما هو يسير وتكاد الدموع تنهمر على وجنتيه من شدة أسفه ، قابل صديقه علاء الذي حصل بدوره على درجاتٍ رائعةٍ وقال له علاء:

- مالَك يا ابني ، شوفت النتيجة ؟

فأومأ محمد برأسه دون أنْ ينطقَ ، فقال له علاء في قلق :

-طيب ، وعملت ايه ؟

صمت محمد قليلاً كأنَّه يستجمع قواه ليلفظَ :

-الحمد لله ، المركز الثاني .

- طيب يا عم ما شاء الله ، ألف ألف مبروك ، امال زعلان ليه ؟!

-علشان درجة العلوم درجة مش حلوة ، انا كنت متوقعها تكون أحسن من كدا بكتر .

- يا عم الحج سهلة إن شاء الله ، الترم التاني أهو قدامنا وعوض ، وإن شاء الله الترم التاني تطلع الأول .

ابتسم محمد ابتسامةً خافتةً وأومأ برأسه ، ثمَّ سأل علاء :

- وانت عملت إيه صحيح ؟

- الحمد لله ، طلعت الخامس .

- ألف مبروك يا صديقي ، وإن شاء الله الترم دا أحسن لينا كلنا .
-إن شاء الله يا صاحبي .
وتعانقا الصديقان ومضى كلٌّ منهما في سبيله إلى فصله ، حيث يكملان يومهما الدراسي أو لنقل ليستهلّا يومهما الدراسي .
وبعد الانتهاء من بعض الحصص ، اجتمع مع بعض زملائه في الفصل وأخذوا يسألون بعضهم عن درجاتهم ويتبادلون التهنئة ، وكان هناك بعض الطلاب الذين يكرهون محمداً كثيراً بالرغم من أنَّه قدَّم ويقدِّم لهم العديد من المساعدات إلَّا انَّهم يكرهون كونه متفوقاً ، بالرغم من أنَّ البعض منهم لا يبذلون أيَّ جهدٍ للتفوق ، والبعض الآخر يجدُّ ويجتهدُ ، ولكنَّ محمداً أكثر تفوقاً وتوفيقاً منهم ، وهم غير قنوعين ؛ لأنَّ الحقد ملك قلوبهم وأعمى أبصارهم عن رؤية الأشياء الجيدة ، أو بالأحرى بمنظورٍ جيدٍ ، وبينما يجلسون مع بعضهم - محمد وزملائه - في الفصل ، قال أحدهم ويسمى جمال ، وهو طالبٌ مجتهدٌ ، لكنَّه يكره محمداً كثيراً مع أنَّهم زملاء منذ المرحلة الابتدائية :
-عملت إيه يا محمد في النتيجة ؟
فردَّ محمد:
- الحمد لله تمام طلعت التاني ، بس درجة العلوم كانت وحشة شوية .
جمال والحقد يأكل كُنْهَهُ :

-التاني وزعلان !! همّا الناس الدحيحة كدا ، لكن الغلابة اللي زيينا بنحبي على درجة .
محمد :
- أنا مش زعلان ، وبعدين أنا أول كلمة قولتها الحمد لله ، بس الفكرة إن الواحد بيتطلع للأفضل ، امال أنت عملت إيه ؟
- أنا جبت درجة كويسة ، بس مرتبتش ضمن العشرة الأوائل .
قالها في لا مبالاةٍ وضيقٍ واضحيْن ، فقال محمدٌ :
- طيب يا صديقي ألف مبروك ، إن شاء الله الترم التاني يكون أحسن لينا كلنا.
-أحسن إيه يا عم ، على العموم الله يبارك فيك .
ورحل الأخير عنهم ، فقال أحدُ الطلابِ:
-يا أخي غريب الواد دا ، دحيح وربنا مش بيكرمه علشان قلبه الأسود ونيته الزفت ، الواحد نفسه .... .
قاطعه محمدٌ قائلاً :
- يا عم ملناش دعوة بحد ، أصلنا كدا هناخد ذنوب على الفاضي .. وعلى إيه واحنا في غنى عن كل دا ، كل اللي نقدر نقوله ربنا يصلح الحال والله المستعان .
فأومأ الباقون برؤوسهم متفقين مع كلام محمد ، ثمَّ انصرفوا جميعهم كلٌّ إلى شأنه .

* * *

-ألو، السلام عليكم .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

-ازيك يا شهد ، عاملة ايه ؟!

- الحمد لله تمام ، ازيك أنت يا أدهم وإيه أخبارك ؟!

- والله الحمد لله تمام ، طول ما أنتي كويسة .

شهد بخجلٍ :

- الحمد لله .

- واحشاني قوي يا شهد ، ومشتاقلك جداً .

شهد وقد ازداد خجلها قالتْ :

- يا أدهم إحنا لسة مكلمين بعض أول امبارح ، وكمان شوفنا بعض من كام يوم .

هذا ما قالته لأدهم ، أمَّا في أعماق قلبها وفي بالها تقول :

- وأنا كمان والله يا أدهم ، مشتقالك وواحشني أوي .

وما منعها من قول ذلك إلَّا حياؤها ، فقال أدهم وقد بدا عليه الاستياء :

-شهد ، أنا ليه بحس إنك مش حاسة بيا ، مش بتقدري مشاعري ، ليه دايما ردودك مش بتبقى حتى قريبة من نفس إحساس كلامي ونوعه !!

شهد بقلبٍ مجروحٍ ، وصوتٍ يأبى الخروج من كثرة ما تراكم بسرعة البرق في صدرها وعينها من دموع ، وبصوتٍ أشبَهُ بالبكاء :
- معلش يا أدهم ، اقفل دلوقتي وهكلمك بعد شوية .
وأغلقت شهد الهاتف وأجهشت في البكاء ، ولا تعرف أتلوم نفسها أمْ تلومه هو ! فما يمنعها عن قول ما بداخلها إلَّا حياؤها ، أيعقل أنَّ أدهمَ لا يقدِّر ذلكَ !! أيعقل أنَّه كهؤلاء الشباب الذين يتلاعبون بالفتيات ومشاعرهن !! أهو مِنْ مَنْ يهتمون بالكلمات وحسب !! لا لا .. ليس منهم ، ما عرفتُ عنه ذلكَ ولكنْ هنالكَ خطبٌ ما .
أخذتْ شهد تحدِّث نفسها بمثل هذه الكلمات ، ويجول بخاطرها مثل هذه الأفكار ، وكل هذا ولم تكفّْ عيناها الخضراوان الجميلتان عن البكاء ، ولم تجف دموعها الساخنة الحزينة التي تسيل على وجنتيها المحمرتين حُمْرَةِ الزهور وسط أرضٍ خصبةٍ مغطاةٍ بالثلج .

الفصل التاسع

بدأتْ السماء تتخلى عن معطفها الأسود ، مودِّعةً قمرها المبتسم ، ومؤنس العشاق والساهرين ؛ لتزفَّ الشمس الباسمة كعروسٍ ، فجاء العرس مسبوقاً ببعض الهواء الرطب الجميل ، وبعض قطرات الندى على أوراق النباتات ، ومتبعاً ببعض خيوط النور كأحبالٍ تتدلى من قلب السماء ، غير محجوبةٍ بسرب السحاب المبتهج ، ورويدًا رويدًا يزداد بريق ورونق هذه الحبال وكثافتها ، حتى تُطِلُّ كستارٍ أحاط الأفق ؛ ليحجب ظلمة الليل الحزين ، فتهبُّ علينا شمسنا العروس باسمةً معلنةً تجلي الأمل والبهجة ، وابتداء العمل وكسب الأرزاق .

ذلك المشهد البديع الذي يتكرر كل يوم ؛ ليظهر لنا شيئاً أو بعض شيءٍ من عظمة الخالق سبحانه وتعالى ، فهنيئا لمن يهنأ برؤية مشهدٍ كهذا كل صباح ويستنشق ذاك النسيم الهادئ الرطب ، وبينما إبراهيم يتأمل هذا المشهد الذي قلَّما يراه نظراً لظروف عمله ، وتَجُوْلُ بخاطره كل هذه الأفكار فيأتيه صوت يناديه ليقطعَ عليه تأمله واستمتاعه بهذا المشهد الخلاب ، وإذا

بالصوت ينبعث من بين يديه ويقول:
-إبراهيم ، إبراهيم أنت سامعني ، فيه أي جديد ؟!
لقد نسي أو تناسى إبراهيم من سحر المشهد مهمته التي أتى من أجلها ، وبعد برهةٍ والصوت يكرِّرُ النداء ، يردُّ إبراهيم ويقول :
-أيوة يا فندم ، سامعك كويس مفيش جديد كل حاجة تمام لغاية دلوقتي ، ومفيش أي حركة غريبة تدل على أي شيء .
- تمام ، لو فيه أي حاجة بلغني علطول .
-تمام يا فندم .
وإبراهيم يجول بخاطره ويقول لنفسه :
-سبحان الله .. فعلاً سبحان الله ، ومنظر زي دا وشوية الهواء النقي اللي على الصبح دول يساووا الدنيا وما فيها .
صمتَ قليلاً ، ثم نظر إلى الباب الذي يراقبه وقال :
- نهايتك قربت يا درويش ، كلها ساعات وهتبقى تحت إيدي في القسم و الكلبشات في إيدك .

قالها ثم أعاد النظر إلى الباب ذو التصميم العبقري ، الذي لا يستطيع أيُّ أحدٍ كشفه بسهولةٍ مهما بلغت قوة ملاحظته ، ينظر إليه إبراهيم في ترقُّب وهو على بُعدٍ لا بأسَ به ، بحيث لا يستطيع الداخل أو الخارج من هذا الباب رؤيتهم أو الشعور بحركتهم ، وهذا من عبقرية الضابط إبراهيم أن يراقبَ كل هؤلاء الرجال من بعيد دون أن يشعر به أحد ، وها هم الآن

يترقبون ويترقبون .

* * *

أسند أدهم رأسه على الحائط من خلفه بعدما اعتدل وجلس على سريره ، يفكر فيما قاله لشهد وأخذ يتحدث إلى نفسه ويرد عليها كأنَّه شخصين ويقول :

- مكنش لازم أزعق فيها كدا ، انا عارف إن شهد إنسانة رقيقة وخجولة جداً ، وكمان محترمة وبنت ناس وأكيد بتحبني زي ما بحبها ، بس خجلها هو اللي بيمنعها إنها تقول كدا ، بس أنا برضو مكنش يصح اللي أنا عملته ، يا ترى إيه حالها دلوقتي !

-أنا هتصل بيها واعتذرلها وأقولها مش قصدي .

-لا لا لحسن تكون بتتقل عليا وبعدين تعملها حكاية ، وكل شوية تعمل فيها زعلانة وأنا اللي أروح أصالحها !

-بس أنا اللي غلطان .. يااااه كل يوم يا شهد بتثبتيلي إني عرفت أختار حاجة صح ، خلاص هي قالت هتصل بيك بعد شوية ، أنا هستناها لما تتصل وأشوف إيه مبررها ، ولو لقيت اللي أنا حاسبه صح .. أعتذرلها .

- لكن دي كانت منهارة وقفلت علشان متعيطش قدامي .

-طظ فيا ، والله واحدة زي شهد دي خسارة فيا .

وراح أدهم يفكر ويوبخ نفسه تارةً ويختلق لنفسه الأعذار تارةً

آخرى حتى غلب عليه النعاس .
وفي المقابل ظلتْ شهد تبكي ، ومازالتْ دموعها لم تجفْ ، وهي لا تعرف .. أتلوم نفسها ، أم تلومه !! حتى أخذت تحدث نفسها هي الآخرى وترد على حديثها وتقول:
- هو المفروض عارف إنه بحبه وإن كل الكلام دا جوايا ، بس مش لازم أقوله .
- بس انتي أساسا مقولتلوش ولا مرة إنك بتحبيه أو حتى معجبة بيه .
- ولا هو قالها ، مفيش غير مرة اللي هي أول مرة قال إنه معجب بيا .
- بس هو كان على وشك إنه يقولك بحبك وأنتِ منعتيه لما قفلتي السكة في وشه .
- ولو، بعدين أنا لو مش بحبه هكلمه ليه يعني من أصله ، وهو عارف إني مليش في الكلام دا .
- أنتِ بتكلميه ليه أساساً ، هل فعلاً حباً فيه ؟ ولا دا كلام بتصبري نفسك بيه .
- لا طبعاً حباً فيه ، بس يا ترى هو كمان بيحبني زي ما بحبه وزي ما هو بيقول ولا مشاعره اتغيرت ، ولا كل دا كان كدب !
- مش عارفة .. بس هو لو بيحبني مجاش ليه خطبني لغاية دلوقتي .

-صح ، بس هو يمكن بيتعرف عليا ؛ علشان يتأكد من أخلاقي وإني الإنسانة المناسبة ليه .
-عادي هو كان ممكن يعمل كل دا في فترة الخطوبة ، ولو متفقناش كل واحد يروح لحاله .
- بس أكيد ربنا عارف بالنوايا ، وبعدين إحنا مش بنتكلم كتير مع بعض زي الشباب ما بيعملوا .
- متقارنيش نفسك بحد ، مش منطق ولا عقل إني أبرر أخطائي بأخطاء حد تاني ، وبعدين ربنا اللي عالم بالنوايا .. احنا بنعصيه دلوقتي .
- بنعصيه !
- أيوة كل كلامنا مع بعض دا أكيد بناخد عليه ذنوب ، فلو فعلاً ناويين على جواز يبقى على ما نتجوز نكون أخدنا تلاتة أربعة خمسة مليون ذنب وسيئة ، وبعدين هو لغاية دلوقتي مافتحنيش في موضوع الجواز من أصله ولا جابلي سيرة !
- تصدقي معاكي حق ، استغفر الله العظيم يا رب ، يا رب سامحني ، أنا هكلمه المرة الجاية وأقوله على الكلام دا ، وهو لو بيحبني وعاوزني في الحلال أكيد هييجي ويطلب إيدي .
وظلتْ شهد هكذا طوالَ الليلِ تتحدثُ إلى نفسها ، حتى غلب عليها النعاس هي الأخرى .

* * *

-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا ولاد .

قالها رجلٌ طويلُ القامة ، رشيقُ الجسدِ ، يبدو في الأربعينيات من عمره ، بعد أن دخل عليهم بوجهه البشوش ، فوقف الطلاب مندهشين وردوا السلام ، ومن ثُمَّ أشار إليهم بالجلوس ثم أردف :

-ازيكم يا ولاد أخباركم إيه ! اتمنى تكونوا كويسين ، وأخبار الدراسة معاكم إيه ، ونتيجة الترم الأول ؟!

رد بعض الطلاب :

-الحمد لله .

وجميعهم تغمرهم مشاعرٌ مختلطةٌ ، فمنها الرهبة ومنها الدهشة ، فأدرك الأول ذلك من ملامحِ وجوههم ، وأدرك أنَّه نسيَ أنْ يقدِّمَ لهم نفسَه ، وكلُّ ذلك ولم تُزَحْ البسمة من على وجهه ، فأردف :

- آه نسيت أعرفكم بنفسي ، أنا الاستاذ نبيل معلم اللغة العربية الجديد في المدرسة ، واللي إن شاء الله هنكمل مع بعض الدراسة الترم التاني .

ويظهر من طلَّته الوقار والاحترام وشعره الأسود الذي يزينه بعض الشعر الأبيض ، ما زاده ذلك إلَّا وسامةً واحترامًا ، ويبدو من وجهه المبتسم دائماً أنَّه شخصٌ بشوشٌ ، صارمٌ في عمله ، وذو خلقٍ حميدٍ ، فانشرح صدر الطلاب حينما سمعوا كلماته ، ليس

فقط لأجل ما ينعكس من مظهره وحسب ، وإنَّما لأنَّه سيحل محل الاستاذ علي الذي كان على وشك أنْ يجعلَ المدرسة دار عذاب للطلاب مما يرونه منه ، ولكنَّه رغم ذلك بعث الوحشة إلى صدر محمد ، الذي سأل زملائه بعد رحيل الاستاذ نبيل الذي شرح حصته ببراعةٍ وقال لهم :

-امال الاستاذ علي ، راح فين ؟!

فزمجرَ بعضهم وقال أحدهم :

- يا عم الاستاذ علي ايه وبتاع ، دا الاستاذ نبيل دا شكله راجل محترم ، وشرحه حلو .

محمد :

-لا بجد يا رجالة ، رغم كل دا إلا إنه واحشني والله ، والغريب إننا من ساعة ما بدأنا الترم التاني مشفتوش ولا مرة ، فهل حد فيكم يعرف عنه حاجة ؟!

فحرك الطلاب رؤسهم يميناً ويساراً فقال أحدهم :

-يا عم يروح مكان ما يروح ، دا كان ... .

فقاطعه محمد بصرامةٍ :

-لا يا رجالة ، دا مهما كان استاذنا مهما حصل بلاش غلط ، مهما حصل الله يسامحه .

قال محمد ذلك ؛ ليهدِّأَ من روعهم ولأنَّه يقدِّس مكانةَ ومهنةَ المعلم مهما كان سلوك الشخص ، ولم يكتفِ بهذا بل قرَّر أنْ يسألَ

عن معلمه بالرغم من أنَّ هذا المعلم قد جعل محمد يعاني كثيراً في الفصل الدراسي الأول ، لكنَّه اشتاق إليه ؛ لأنَّه ببساطةٍ معلمُه وهذا حقه عليه ، هكذا دوماً يقول محمد لنفسه ولأصدقائه المقربين ، ثم استأذن أنْ ينصرفَ ، وبعد أنْ رحل قال أحد الطلاب:
- يا أخي بص رغم إن الاستاذ علي ورّاه المر وشربهوله بمعلقة قبل ما يروح عنده درس ، إلا إنه لما غاب بيسأل عنه ، الواد محمد دا محترم قوي ، وبصراحة أنا مشفتش زي كدا أبداً !
سمع هذه الكلمات جمال ، والمعروف عنه كراهيته الغير مبرَّرة لمحمد ، فقال باستهزاءٍ بعد أنْ قضب حاجبيه :
-يا عم دا عيل بيموت في الزيطة ، والتباهي ، يموت في الكدب والفشخرة ، كل دا علشان يتباهى ويبين إنه يعني مفيش زيّه .
فردَّ زميله الذي تحدَّث منذ قليل :
-والله أنت يا جمال يصلح حالك ربنا ، مش عارف يا أخي الحقد لو سابك يروح فين !! دا ميلقيش صدر حنين يضمه !!
قالها بغضبٍ ومن ثم انصرف إلى شأنه ، أمَّا جمال فشعر بالإحراج بين زملائه فنظر إلى الأرض ، بعد أن احمرَّ وجهُه حمرةً شديدةً وانصرف بدوره .

* * *

- إيه اللي أنتي بتقوليه دا يا شهد ؟!

قالها أدهم بحزنٍ وقلبٍ منفطرٍ، كأنَّ أحدهم يقتلع روحه من جسده أو أكثر .

- أيوة يا أدهم انا ضميري بيأنبني ، وحاسة إني كدا بخون ثقة أهلي فيا ، وكمان كل كلامنا دا حرام .. أنا آسفة يا أدهم أنا حبيتك من قلبي وأتمنى تكون أنت كمان حبيتني ، بس دي آخر مرة هتشوفني أو تسمع صوتي فيها .

- يا شهد ، اسمعيني أنا مكنش قصدي المرة اللي فاتت أزعلك والله ، والله .. .

وإذ بشهدٍ تقول ويبدو أنَّها أخذتْ قرارَها، وأحكمتْ دائرةُ تفكيرِها وأغلقتها :

- الموضوع ملهوش علاقة بكلامنا آخر مرة يا أدهم .. الموضوع متعلِّق بربنا ، ومتنساش لو فعلاً بتحبني إن شاء الله هنكون مع بعض وهنكون لبعض !

وهمتْ بالرحيل ، وتركتْ أدهم غارقاً في بحر حزنه وحيرته ، وإذا بالأخير يصرخُ ويقول :

- شهد ! لا متسبنيش يا شهد أنا والله العظيم بحبك .. بحبك !

وشهد مُكْملةٌ مسيرتَها ، وتنظر إليه بعيونٍ باكيةٍ حزينةٍ دون أنْ تتكلمَ ، وأدهم مازال يصرخ ويتأوه ويقول :

-أنا بحبك يا شهد متسبنيش ، شهد لا !

استيقظ أدهم من نومه مادًا يدَه ، فينظر حوله فيجدُ نفسه نائماً

على سريره ، وقد استيقظ بعد أبشع حلمٍ ، وأسوء كابوس رآه منذ سنوات ، أو بالأحرى منذ رأى شهد ، التي دائماً وأبداً تزوره في أحلامه بوجهها البشوش وكلامها الناعم الدافئ ؛ لتخفِّف أو لتزيل عنه أيَّ عبءٍ يحمله ، أو أيَّ مشكلة يواجهها ، ولكن ها هي هذه المرة تأتيه باكيةً وتقول له أنَّهما يجبُ أنْ يفترقا ، كيف طاوعها قلبها ؟! لابدَّ وأنَّ هناك شيءٌ ما أو ربَّما هي إشارةٌ أو دليلٌ لشيءٍ ما .. فما هو يا تُرى ، أيكون ما يجول بخاطري حقاً ، أَمْ ماذا ؟!

لم يستطع أدهم النوم باقي هذه الليلة ، وكيف له أنْ ينامَ وأجمل وأغلى هبةٍ او أمنيةٍ في حياته كلها إلى اليوم على وشك أنْ ترحلَ عنه ، وتترك قلبه المشتاقَ المحبَ العاشقَ وحيداً ذليلاً !! من أين يأتيه النوم ؟! من أيِّ سبيل يمكن للراحة أو السكينة أن تعرف له موضعًا !! وبعد أن أشرق الصباح قرَّر أنْ يقابلَ صديقه عبد الرحمن ، ويقصَّ عليه حلمه هذا ؛ علَّه يطمئنه ببعض الكلمات التي تعيد لذهنه صفوه ، وتعيد لباله الراحة من جديد ، فيطمئن قلبه وتستقر عينه ، وليطمئنَ أنَّ هذا لا يعني شيئاً بينه وبين شهد ، وأنَّ كلَّ هذا هي أحلامٌ من الشيطان اللعين ليس إلَّا !!

* * *

قابل محمد صديقه علاء ، وقال له بعد أنْ صافحَه:

-علاء صديقي ، أخبارك ؟!
- الحمد لله يا صديقي ، أنت عامل إيه ؟!
- الحمد لله تمام ، بقولك .. .
- اتفضل .
- ما تعرفش حاجة عن الاستاذ علي ؟!
- الاستاذ علي !
- أيوة الاستاذ علي بتاع العربي ، أصل دخلنا استاذ جديد النهاردة ، وقال إنه هيكمل معانا.
_لا والله يا محمد يا صديقي معرفش عنه أي حاجة ، حتى من ساعة ما بدأنا الترم التاني مشفتوش ولا مرة .
- وأنا كمان ، علشان كدا بسأل عنه .
- خلاص نبقى نسأل الاستاذ محمود عليه يمكن يعرف .
- صح ، أنت صح يا علوة ، تعالى نسأله .
- يا عم خليها لبكرة إن شاء الله ، المهم طمني عليك ، وإيه أخبار الاستاذ الجديد دا .
-تمام ، باين عليه ابن ناس ومَرح كدا وبشوش .
- الله يسهلكم يا عم محمد ، يلا اسيبك أنا دلوقتي علشان ورايا مشوار كدا ، سلام .
- سلام ، أشوفك بكرة .
ولوَّحَ كلٌّ منهما بيديه للآخر، وانصرف محمدٌ متجهاً لبيته ، ولكنَّه

آثرَ أنْ يطلقَ العنان لقدميه قليلاً في هذا الطقس رغم حرارته .
وبينما محمدٌ يسير شاردَ الذهن ، يُفاجأ بصوتٍ يأتيه من خلفه ويقول له :

-ماذا يشغلك يا فتى ؟!

التفتْ محمد ليجدَ عبد الرحمن من خلفه وموجِّهاً حديثه إليه ، فتعجَّب محمد وسار ناحيته قبل أنْ يقولَ :

-هو حضرتك بتكلمني أنا ؟!

- نعم .

- واضح إن حضرتك مش من هنا !

-هذا صحيح ، لستُ من أبناء هذا البلد ، ولستُ أقطنُ في هذه المنطقة أو هذا الحي .

- امال حضرتك هنا بتعمل ايه هنا ؟!

- أنا أعيش بمصر الآن ، ولكنَّني شعرتُ بالملل مؤخراً ، فآثرت أنْ أخرجَ ؛ لأعرفَ شيئاً جديداً عن بلادكم هذه .

- إن شاء الله بلدنا تعجبك .

- لنأملَ ذلك .

قالها للفتى ولكنَّه بباله يقول ومن لا تعجبه مصر، لكنَّني أخشى من أهلها أو بالأحرى على أهلها وما يفعلونه بأنفسهم .. ثمَّ أردف قائلاً للفتى :

-قلْ لي يا فتى ، ما اسمك ؟!

- أنا اسمي محمد ، وحضرتك ؟!
- اسمي عبد الرحمن .
- تشرفنا يا استاذ عبد الرحمن .
ومدَّ يده ليصافحه ، فتصافحا الاثنان والابتسامة تعلو وجه كلِّ واحدٍ منهم ، وأحس محمد بالراحة ناحية عبد الرحمن بالرغم من أنَّها المرة الأولى التي يتقابلون فيها ، وأحسَّ عبد الرحمن بالراحة تجاه الصبي ، وبالرغم من صغر سنه إلَّا أنَّه أحس من ذكائه وكلماته أنَّه أكبر من سنه ، فجلسا معاً وأخذا يتبادلان أطراف الحديث ، فقال عبد الرحمن :
- ما يشغلك يا فتى ؟ لم تخبرني !
فقال محمد مبتسماً :
- مفيش حاجة بس .. .
سادَ الصمتُ بينهما قليلاً ، ثم قصَّ عليه محمد كَّل شيءٍ عن الاستاذ علي منذ عرفه حتى هذه اللحظة ، وقال أن هذا يشغله قليلاً فقط ليس إلَّا ، وأنَّه يمشي شارد الذهن يفكر في حاله وحال هذه البلاد والمستقبل وهكذا ، فتأثَّرَ عبد الرحمن مما حكاه الولد عن الاستاذ عليّ ، وأخذه الفضول بل والحسرة لأن يسأله عن أحوال التعليم ونظام التعليم في مصر والمراحل التعليمية المختلفة ، وما وجد من الفتى إلَّا كل ما يريد أن يعرفَ فلقد كان الفتى مثقَّفاً ، واسع الاطلاع ، سريع البديهة ، له نظرةٌ على المدى

البعيد ، وله نظرةٌ ناقدةٌ أيضاً ، فقال له الفتى :
-النظام التعليمي بتاعنا إحنا ! ماشي أنا هقولك كل حاجة عنه .
ثم ازدرد لعابه وصمتَ قليلاً ، ثم قال :
-أولاً : مراحل التعليم عندنا في مصر، عندنا أولاً : حضانة – سنتين - ودي بقى كله بيدخلها دلوقتي ، وبعدين ابتدائي ودي ست سنين ، وبعدها مرحلة إعدادي ودي تلات سنين ، وبعدها ثانوي برضو تلاتة ، وبعدها الجامعة دي بقى حسب الكلية اللي هتدخلها .
وأخذ محمد الصغير يحكي له عن النظام التعليمي بأدقِّ تفاصيله ، وعن المعلمين وعما يفعلونه ، فيبرِّر لهم أخطائهم تارةً ويعيب على بعضهم تارةً أخرى ، ثمَّ قال له رأيه في نظامنا التعليمي ، ثم قال :
-وأنت يا استاذ عبد الرحمن ، إيه النظام عندكم ، ألَّا صحيح انت منين بالظبط ؟!
- يلا بينا يا عبده .
قالها مصطفى الذي أتى من خلفهم فَوْرَ انتهاء محمد من سؤاله الأخير ، ثم نظر إلى محمد وابتسم ثم قال :
-مين دا يا عبده ؟!
فقال عبد الرحمن مبتسماً وهو ينظر إلى محمد :
-هذا محمد - الرجل الصغير- ما شاء الله مثقفٌ ، واعٍ ، متفوقٌ .. ما شاء الله وذو عقلٍ فَطِنٍ !

فابتسم مصطفى ، ومدَّ يده ليصافحَ محمد قائلاً :
- أهلاً وسهلاً يا استاذ محمد ، تشرفنا .
- الشرف ليا حضرتك .
- نستأذنك إحنا دلوقتي ، وإن شاء الله لينا لقاء تاني .
قالها مصطفى ، ومضى ومعه عبد الرحمن الذي ظلَّ شاردَ الذهن ، يفكِّرُ فيما سمع من محمد الرجل الصغير .

الفصل العاشر

- إلى جميع الضباط ، بدأت العربيات تخرج من بيت الدرويش الآن .

قالها الضابط حسن مهران إلى جميع الضباط الذين انتشروا ببراعة في مواقع شتى ، بحيث لا يمكن لأحد ملاحظتهم ، وفي نفس الوقت على مسافاتٍ متباعدةٍ ، بحيث يغطون حيزاً كبيراً من المساحة كسلسلةٍ متصلةٍ ، قريبين جداً من بعضهم ، فتلقَّى الجميع الإشارة ومن بينهم الضابط إبراهيم الذي تبسَّم ابتسامةً مخفيةً وتوجَّه نحو من معه من ضباط وعساكر ، وقال :

-استعدوا يا رجالة ، الدرويش طلع من الباب التاني فهو أكيد هيطلع باقي عربياته من هنا دلوقتي ، فكله يستعد وياخد حذره .

فأومأ الجميع وقالوا :

-تمام يا فندم .

والتفَّ إبراهيم ناحية البوابة مرةً أخرى ونظر في ترقبٍ ، بعدما أشعل سلاحه الناري وأمسكه بيده استعداداً لما سيحدث ، ووضع

سماعةً ممتدةً من جهازه اللاسلكي في اذنه ؛ كي لا يعيقه ذلك فأتاه من الضابط حسن مهران:

- إيه يا ابراهيم إيه الأخبار عندك ؟!

- لسة مفيش جديد يا فندم .

- طيب ، باشرني بأي حاجة جديدة ، خطوة بخطوة مفهوم !

- تمام يا فندم ، وأنت إيه الأخبار عندك ؟!

- مفيش ..عربيتين نص نقل طلعوا وواقفين قدام باب الڤيلا ، وبرضو هتابعك بكل جديد .

وبعد مرور بعض الوقت .. بدأتْ السيارات تتحرك من أمام باب بيت الدرويش ، الذي هو كبيرٌ إلى حدِّ الكفاية ؛ ليخصِّصَ منه جزءاً ليس منعزلاً كلياً ليجعله مخزناً ضخماً ، فاندهش الضابط حسن مهران لِمَا رأى ، فلقد رأى قرابة الست سيارات لنقل البضائع ، وسيارة ملاكي تحوي الدرويش وسائقه وأحد حراسه الشخصيين ، وهذا ما لم يتفقوا عليه في الخطة التي وضعوها .. فلقد اتفقوا على خروج سيارتين من كل باب ، فتعجَّب حسن مهران وهم أنْ يُخرجَ هاتفه ليحادثَ الدرويش لكنَّه تذكَّرَ أنَّ جميعها قد أخذت منهم في المديرية ، فقال حسن مهران لنفسه :

- يا درويش يا ابن ال... .. هتودينا في داهية يا غبي ، يا حمار هتبوظ الخطة يا غبي !

ثم تحدَّث إلى إبراهيم عن طريق الجهاز اللاسلكي ليتأكدَ أنَّ

الدرويشَ ملتزمٌ بباقي الخطة ، وأنَّه اخترق هذا الجزء فقط فقال :
-أيوة يا إبراهيم ، فيه أي جديد عندك ؟!
- لا يا فندم مفيش جديد كل حاجة زي ما هيه .. أنت عندك جديد ؟!
- أيوة الدرويش اتحرك هنا بعربيته ، ومعاه ست عربيات نص نقل .
فتفاجأَ إبراهيم قائلاً :
- إيه ست عربيات ! طيب إزاي ؟! واضح إن الدرويش دا فعلا مش سهل زي ما توقعنا ، يا إما إنه غبي جداً ، بس على حسب تاريخه دا مش غبي أبداً .. طيب وهتعمل دلوقتي يا فندم ؟!
- هنمشي على الخطة زي ما هية .. أنت هتفضل عندك بالقوة اللي معاك ، وأنا بالقوة اللي معايا هنتابعه وهنقبض عليه عند التسليم .
- تمام يا فندم ، وأنا هتابعكم مع كل خطوة .
قالها الضابط إبراهيم وهو في ذهنه يقولُ :
-الموضوع فيه إنة ، معقول يكون الدرويش بالغباء دا ، أكيد فيه حاجة ، يا رب استرها !
وفي المقابل تحرَّك الضابط حسن مهران مع القوة حسب الخطة وراء سيارات الدرويش ، منتظراً مكان التسليم فيقبض على

الدرويش والتجار، كما زعم في خطته مع إبراهيم وباقي الضباط .. يتحرك ويجول بخاطره ألف تساؤل ، وكل ذلك يغمره القلق والاضطراب ، وبعد مرور بعض الوقت بدأ حسن يضطرب أكثر وأكثر ، وفجأة جحظت عينا الضابط حسن مهران ، وأمسك جهازه اللاسلكي وقال في اضطرابٍ :

- إلى جميع الضباط .... .

* * *

ركب عبد الرحمن ومصطفى السيارة عائدين إلى المنزل بعدما أتوا إلى هذه المنطقة ؛ ليقضي مصطفى أمراً ما فأشار على عبد الرحمن أنْ يأتيَ معه ، وبعد قليل وصلوا إلى المنزل حيث شقة مصطفى ، وجلسوا وقد بدَّل كلٌّ منهم ملابسه وجلسوا ، وبينما عبد الرحمن همَّ أنْ يبادرَ مصطفى بالتحدُّث ، سمعا جرس الباب يصيح ، فقام مصطفى ليفتح الباب فوجد أدهم الذي دخل وقال :

-السلام عليكم .

ثم صافح مصطفى وعبد الرحمن اللذان ردا السلام ، وقال مصطفى :

-ازيك يا أدهم ، عامل ايه ؟

- الحمد لله تمام ، انت عامل ايه ؟

- والله الحمد لله .. تمام .
- وأنت يا عبده عامل ايه ؟! واحشني والله .
- نحمد الله بخير حال ، فكيف أنت ، وكيف حالك يا أدهم ؟!
- الحمد لله تمام ، بقولك كنت عاوزك في موضوع كدا !
قالها في اضطرابٍ بعدما انصرف مصطفى إلى الداخل ؛ ليأتي إليهم ببعض المشروبات ، فرد عبد الرحمن مبتسماً:
- من دواعي سروري يا صديقي ، وكلي آذانٌ صاغيةٌ ، ولكنْ أتحبُّ أنْ نتحدثَ وحدنا أم أمام مصطفى ؟!
- أنا معنديش مشكلة أنتوا الاتنين أصحابي وأكتر، وكمان مصطفى عارف كل حاجة ، يعني عادي نتكلم قدامه مش مشكلة .
ثم أتى مصطفى من الداخل حاملاً زجاجة من المشروبات الغازية كبيرة الحجم ، وثلاثة أقداح فارغة ، ثم وضعها أمامهم على الطاولة وسكب فيهم المشروب ، وتناول واحدة وأسند ظهره إلى الوراء حيث جلس على الأريكة ، فقال عبدالرحمن:
- قل ما عندك ، فنحن نُنْصِتُ !
فشهق أدهم بعمقٍ وزفر ثم قال:
« أنا كلمت شهد امبارح ، وتقريباً زعلت مني؛ لأني زعقت فيها علشان ... .
صمت قليلاً وبدا عليه الأسى ، فقاطعه مصطفى قائلاً :
-أنت قولتلها إيه بالظبط ، وهي قالتلك إيه ؟!

فصمتَ أدهم قليلاً ثم قصَّ عليهم المكالمةُ كاملةً كما حدثتْ ، فقال مصطفى :

-لا يا أدهم أنت اللي غلطان ، والمفروض تكلمها تعتذرلها .

فأومأ أدهم برأسه فأردف مصطفى :

- بس أنا مش شايف إن دا اللي يخليك جاي زعلان قوي كدا ، يعني أنا شايف الموضوع عادي .

كل هذا وعبد الرحمن يجلس صامتاً ، ينصتُ وحسب ولم يتفوه إلى الآن ولو بكلمةٍ واحدةٍ ، فقال أدهم :

-انت متعرفش شهد .. شهد إنسانة رقيقة وحساسة جداً جداً و محترمة جداً ، وعندها كرامة مش زي بنات اليومين دول اللي بتهين نفسها لا ، وكمان ... .

زفر الأخير ، ثم استطرد :

-أنا شفت شهد في الحلم النهاردة ، ودا طبعاً مش جديد أنا علطول بشوفها في الحلم كل يوم تقريباً ، بس المرة دي مكنتش زي كل مرة ، لأول مرة بشوفها حزينة وبتعيط ، وكمان طلبت مني إننا .. إننا نسيب بعض وإننا كدا بنعصي ربنا ، وإن لو ربنا رايدلنا نكون لبعض هنكون ، بس دي آخر مرة هنكلم بعض فيها وكلام زي دا ، المهم إنها قالتلي نسيب بعض وأنا حاولت أعتذرلها عن اللي حصل وبقولها مش هيحصل تاني ، بس هي كانت بتعيط وزاد عياطها ، وقالتلي إن الموضوع ملهوش علاقة باللي حصل ،

علشان كدا أنا قلقان ومضايق على الآخر .
قال أدهم كلماته وكاد يبكي من شدة حزنه ، فربت مصطفى على كتفه وقال له في شفقة :
- متخفش يا صاحبي ، شهد بتحبك وأنت بتحبها ومش ممكن تسيبك .. دا انت بس علشان كنت زعلان وقلقان فعقلك الباطن صورلك مشاعرك الداخلية ، اللي هي القلق والخوف والضيق والزعل فخلاك تشوف كابوس زي دا .
فابتسمَ أدهم بعدما شعر بشيءٍ من الراحة والاطمئنان ، بعدما سمع كلمات مصطفى وأومأ برأسه ثم توجَّه إلى عبد الرحمن بنظره ، فوجده جالساً صامتاً فقال له :
- إيه يا عبده ! مسمعناش صوتك يعني ، أنا عاوز أسمع رأيك ، أو لو عندك حاجة عاوز تقولها !
شهق عبد الرحمن بعمقٍ ثم زفر وقال :
- أخشى أنَّ كلماتي لن تعجبَكما ، وأنَّها ربَّما تكون قاسيةً بعض الشيء ولكنَّها الحقيقة ، وهي الحل الأمثل للأمر .
- قول يا عم اللي عندك واحنا سامعين !
قالها أدهم قَلِقَاً ، فأكمل عبد الرحمن :
-اتركها .
جحظتْ عينا أدهم وكذلك مصطفى ، وكلاهما مصدومان ، فاستطرد عبد الرحمن قبل أنْ ينطقَ أيٌّ منهم :

-نعم اهجرها ، فما رأيته في حلمك صحيح ، فكونكم هكذا بدون زواج يُعدُّ عصيانًا لله ، ولن تجنوا إلَّا الذنوب والمشاكل ، ولهذا طلبتُ منكَ مسبقاً أنْ تفاتحَها في أمر الزواج ، لكنَّك لمْ تفعلْ ، فهلْ لأنَّك لا تثقُ بها ؟! أَمْ لأنَّك ترى أنَّها لا تصلحُ لكَ ؟! فأيَّاً كان .. إنْ كنتَ تثقُ بها وتراها تصلحُ أنْ تكونَ زوجةً صالحةً لك وأماً صالحةً لأولادكَ وستأخذ بيدك إلى الجنة إن شاء الله ، فتوكَّلْ على الله وتزوجها ! وإن كنت ترى غير ذلك فاتركها على الفور !

-يا عم الكلام دا كان زمان ، مفيش الكلام دا دلوقتي .

قالها مصطفى محاولاً أنْ يهدأَ روع أدهم ، الذي بدا عليه القلق والاضطراب فقضب عبد الرحمن حاجبيه ، وقال:

- إذنْ فما آخر كل هذا ؟! ما نهاية هذا الحب ؟ أم أنَّه حبٌّ زائفٌ وأظنُّه لم يحبها ، أو أنَّه لا يثقُ بها .

فقال أدهم مسرعاً :

- لا والله ، أنا بحب شهد جداً وحب حقيقي ، وبثق فيها جداً ، بثق فيها أكتر من نفسي بس .. .

-لكن ماذا ؟! فإن كنت كما تزعم فلِمَ لَمْ تتزوجها إلى الآن ؟! أجب !!

صمتَ أدهم وطَأْطَأَ رأسه ، فهو لا يعرفُ ماذا يقول .. ليس لديه ما يقوله فقال مصطفى :

-خلاص .. خلاص يا رجالة ، بصراحة أنا مش عارف أقول إيه ،

بس أنا زهقت من الموضوع دا ، بس ابقى كلمها أعتذرلها علشان متفضلش شايل هم موضوع الحلم دا ، وكمان علشان لو هتعملو حاجة أو هتقولها حاجة ميبقاش فيه خلاف .
نظر إليه أدهم مطوَّلاً ومن ثمَّ أومأ برأسه وذهنه مشغولٌ ، بل إنَّه غارقٌ في دوامة أفكاره ، لا يدري ماذا يصنع ، فوقف واستأذن بالانصراف إلى منزله وهو شاردُ الذهنِّ في بحر أفكاره .

* * *

قاطعه صوت إبراهيم وهو يقول :
- يا فندم ، يا فندم فيه تلات عربيات خارجين من الباب اللي أنا مراقبه دلوقتي ، ومتحركين بسرعة غريبة يا فندم .
جحظتْ عيني حسن أكثر ، وقال :
-إيه تلات عربيات طلعوا من عندك دلوقتي !
- أيوة يا فندم ، واحنا ماشيين وراهم من بعيد .
- طيب را... .
-الحق يا فندم ، دول جم عند طريق وكل عربية راحت في طريق ، العربيات بتتفرق يا فندم .
- إيه ؟!
ثم نظر إلى السيارات الست الذين يتابعهم فوجدهم يتفرقون أيضاً ، كلُّ سيارةٍ تسير في طريق مختلف من السيارات الست في

نفس الوقت التي تتفرق فيه السيارات الثلاث هناك ، فقال في قلق :

-إبراهيم اهجم عليهم دلوقتي ، وفتشهم يلا بسرعة .

-تمام يا فندم .

- إلى جميع الضباط .. حاصروا العربيات من كل جنب مش عاوز عربية تفلت ، وكل العربيات تتفتش .

وحسن يقول في ذهنه :

-واضح إن الدرويش عاوز يلعب ، بس على مين !! أنا هوريه !

ثم انطلقتْ سيارات الشرطة تحاصر سيارات الدرويش من كل جانب ، وفي غضون لحظاتٍ انتشر الضباط والعساكر في كل جانب ، وأبقتهم في دائرة نصف قطرها صغير ، فنزل الدرويش من سيارته الخاصة ، وقال بغضبٍ وبصوتٍ عالٍ :

-إيه دا فيه إيه ، إيه اللي بيحصل بالظبط .

فقال حسن بصرامةٍ :

-أمر بالتفتيش يا درويش ، فتشوا كل العربيات !

وأشار إلى الضباط بتفتيش السيارات ، بعد أنْ أخرجَ من جيبه ورقة وأعطاها للدرويش .

* * *

في المقابل قام إبراهيم بالمثل ، حيث حاصر السيارات الثلاث ،

وقدم نحوهم بعدما أشعل سلاحه ، وقال :
-انزل يلا أنت وهو، وارفع ايدك لفوق !
فحدق الرجال في بعضهم ، فصاح بهم إبراهيم في غضبٍ ، وقال :
-يلا ياد انت وهو بدل ما اخلص عليكم .. يلا !
وأطلق طلقة في الهواء فاضطرب الرجال الذين كانوا يركبون في السيارات ، حيث كان يركب رجلين في كل سيارة بالإضافة إلى السائق ، ونزل جميعهم وأشار إبراهيم إلى الضباط والعساكر بأن يفتشوا السيارات بدقةٍ شديدةٍ .
وبعد مرور بعض الوقت ، جاء إليه الضابط شكري وقال له :
-مفيش حاجة يا إبراهيم .
صُعِقَ إبراهيم مِمَّا سمعه ، وقال مضطرباً :
-إيييه ؟! فتشوا كويس يا رجالة !
-إحنا مسبناش أي حاجة والله يا إبراهيم ، فعلاً مفيش حاجة .
غضب إبراهيم كثيراً لكنَّ حزنه كان أكبر، واعتدل ناحية الرجال الذين يعملون لحساب الدرويش وقال لهم :
-يلا يا ابني أنت وهو ، امشوا من هنا.
فقال أحدهم :
-أنت فاكرنا هنسكت ، احنا شغالين مع الدرويش ، وهيخرب الدنيا .
- طيب يلا من هنا يا روح أمك .

قالها شكري بغضبٍ ، فصمتَ الرجل ورحل مع باقي الرجال بالسيارات .
غضب إبراهيم كثيراً ، وأخذ يضربُ السيارة بقدمه بقوةٍ وهو يغَمْغِمُ :
-إزاي ؟! إزاي ! طيب يا درويش الكلب .
وأخذ يتحدث عبر جهازه اللاسلكي ، ويقول :
-أيوة يا فندم ، ملقناش أي حاجة .
- إيه ؟! طيب طيب .
في اللحظة ذاتها تلقى الدرويش اتصالاً ، فسمع أحد رجاله يقول له عبر الهاتف عمّا جرى فردَّ الدرويش:
- طيب ما بلغتنيش من ساعتها ليه !! يلا ماشي أنا هتصرف .
وأنهى اتصاله ، وأمام كل سيارة يتولى تفتيشها أحد الضباط ومعه العديد من العساكر، وأمناء الشرطة ، وبعد قليلٍ بدأ الضباط يُقْبلون على الضابط حسن مهران وقال أحدهم :
-مفيش حاجة يا فندم .
وقال آخر :
-مفيش أي حاجة يا فندم .
فرد حسن بحزنٍ وتفاجأ مصطنعين :
- إيه ! فتشوا كويس !!
فردَّ أحد الضباط :

- يا فندم إحنا مسبناش خرم إبرة ، وكمان استخدمنا الكلاب علشان تدلنا على أي أثر للمخدرات ، لكن برضو مفيش حاجة .
فقال الدرويش في غضبٍ :
- أنا هوريكم ، أنا هقدم فيكم شكاوي للوزارة .. سمعة الناس مش لعبة ، أنتو حاولتو كتير تشوهوا صورتي وأنا بعديها ، لكن المرة دي مش هعديها على خير وهتشوفوا .
واتجه ناحية رجاله وأمرهم بالتحرك والرحيل ، واتخذتْ كلُّ سيارةٍ طريقًا مختلفًا ، وقبل أنْ يرحلوا نظر الدرويش إلى الضابط حسن مهران وابتسم له ابتسامةً خفيةً ، أدركها حسن فبادله بمثلها وفي داخله مستاءٌ لما فعله الدرويش من هذا التعديل في الخطة ولو كان طفيفاً دون الرجوع إليه ، أو إخباره بما يحدث ، فماذا لو كان الدرويش معه المخدرات الآن ؟!

* * *

عاد أدهم إلى منزله ، وأخذَ يفكِّرُ في كلام عبد الرحمن وهو يعلم يقين العلم بصحته ، وأنَّه كلامٌ منطقيٌّ ولا يختَلف عليه اثنين ، وتوجَّه إلى نفسه بالسؤال :
- صحيح أنا ليه مجوزتهاش لغاية دلوقتي ، مع إن أبويا راجل غني ، وكل الأمور تمام .
- لأ بس عاوز أكوّن نفسي ، عاوز أبني نفسي بنفسي ، مش عاوز

أبويا هو اللي يبنيني .
- بس أنت ما شاء الله مهندس وشغال في شركة من أكبر الشركات في مصر ، ومرتبك يعيشك عيشة مرتاحة ، وميخلكش محتاج والدك .
- بس أنا معنديش بيت مشتريه لنفسي ، بس أنا كدا كدا لو اتجوزت ماما مش هتوافق ، ولا هتستحمل أشتري بيت وأقعد فيه أنا ومراتي ، والڤيلا بتاعتنا كبيرة جداً .
- امال ايه اللي مانعك ، فعلاً مبتحبهاش زي ما عبده قال !!
- والله بحبها .. هي بالنسبالي الدنيا بحالها .
- امال ايه مش بتثق فيها ؟!
- اووف والله بثق فيها أكتر من نفسي ، وهي سندي ودايماً الدافع والسبب اللي بيخليني أعمل أي حاجة وأطلع لقدام .
- امال بتتهرب ليه ، بتتهرب من إجابة السؤال ليه ؟!
- خايف لميحصلش نصيب ، وهي أو أهلها ما يوافقوش عليا .
-أنت بتضحك على نفسك ، أنت عارف كويس إن شهد محترمة جداً وبتحبك ، وعمرها ما هترفضك ، وكمان أهلها ناس طيبين ومش هيرفضوك .. صح ؟!
- عارف عارف كل دا ، بس أنا والله مش عارف إجابة السؤال .
- خلاص سيبها زي ما عبده قال .
- أسيبها !! دا أنا روحي فيها ، واللحظة الوحيدة اللي ممكن أفكر

مجرد تفكير إني أسيبها فيها هي لحظة موتي ، علشان كدا أنا لو سبتها كأني باحكم على نفسي بالموت .

- يوووه امال ايه ؟! حيرتني معاك ودلوقتي لازم تختار حاجة من اتنين ملهمش تالت ، ودا مصير أي علاقة مهما طالت مدتها .. يا إما تتجوزها يا إما تسيبها ، اختار حياتك ومصيرك معاها أو من غيرها .

- أنا مقدرش أتخيل حياتي من غيرها ، معرفش أنا من غيرها هبقى عامل ازاي ، مقدرش .. مقدرش ، بس أنا قبل ما آخد أي قرار هتصل بيها أصالحها ، علشان أفكر وأنا مرتاح .

وأفاق أدهم من أحلام اليقظة هذه ، وأمسك هاتفه المحمول واتَّصل بشهد فلم يجدْ رداً ، فقال ربَّما لم تسمعْ هاتفها ، واتصل ثانياً فلم تردْ ، فقال ربَّما مستاءةً مني إثْرَ ما حدث ، فقرَّرَ أنْ يكرر مجدداً فردتْ شهد ، فقالتْ :

- السلام عليكم .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ازيك يا شهد ، أخبارك .. عاملة ايه ؟!

- الحمد لله .. أدهم !

- أيوة يا شهد ، على فكرة أنا بتصل علشان أعتذ ... .

- لو سمحت يا أدهم أنا عاوزة أقولك إن احنا لازم نسيب بعض .

فصُعِقَ أدهم وشعر وكأنَّ قلبه انتُزع من بين ضلوعه ، بلْ وكأنَّ

روحَه تُصرع ، والكلمات تأبى الخروج من حلقه ، فقال بصعوبةٍ بالغةٍ والدموع تسيل على وجنتيه بعد صمتٍ دام للحظات ، وكأنَّه يستجمع قواه ليلفظَ حروفاً خرجتْ من فِيْهِ تشكو حزنها :

- ايه اللي أنتي بتقوليه دا يا شهد ، أنا والله مكنش قصدي حاجة بكلام المرة اللي فاتت ، وأنا بتصل أهو علشان أعتذر ، أرجوكي يا شهد !

وازداد تدفق الدموع من أحداقه على وجنتيه ووجهه الذي فقد بريقه فجأةً ، فردتْ شهد هي الأخرى والدموع تملأُ كلماتها ، وصوتُ بكائِها يعلو شيئاً فشيئاً :

-الموضوع ملهوش علاقة باللي حصل المرة اللي فاتت يا أدهم ، بس أنا حاسة بتأنيب الضمير؛ لأننا بنعصي ربنا يا أدهم !

وشرد أدهم وهو يسمع شهد تقول كلماتها ، ويسمع معها صوت بكائها والدموع تملأ عينيه .. تذكَّر حلمه ليلة أمس ، وكأنَّ الأحداث تعيد نفسها ولكنْ على أرض الواقع ، وتذكَّر كلمات عبد الرحمن التي قالها له ، ولم يفق إلَّا على صوت شهد وهي تقول :

- معلش يا أدهم ، لو لينا نصيب ربنا هيجمعنا في الحلال ، أشوف وشك بخير يا أدهم ، دي آخر مرة هتسمع صوتي فيها .

وأغلقتْ الهاتف وكأنَّها أغلقتْ أبواب الدنيا في وجه العاشق المسكين ، بلْ أغلقتْ كلَّ أبواب الراحة ، وجفَّتْ بُنُوْكُ العطاء حتى لم يعد بها ما يسر ، فمنذُ ذلك اليوم ولم يعرف أدهم للراحة

سبيلاً ، ولم يعرف للنوم ملجأً ، ولم يعرف إلَّا فراش المرض خليلاً ، وظل هكذا لأيامٍ .. وكلُّ يومٍ يحاول الاتصال بشهد مئات المرات في اليوم الواحد ، ولا يجد رداً تارةً ويجده مغلقاً تارةً أخرى ، وكانا صديقيه الحميمين عبد الرحمن و مصطفى يهاتفانه كلَّ يومٍ للاطمئنان عليه ، فلقد انقطع عنهم منذ أيامٍ بعدما كان يلتقيهم كل يوم ، وفي أوائل الأيام كان يتظاهر بعدم وجود أيُّ تعبٍ أو أيٌّ مرضٍ ، لكنَّهما سرعان ما اكتشفا أمره وعلما بمرضه ، وها هم الآن ذاهبون لزيارته .

الفصل الحادي عشر

- طبعاً مش محتاجين كلام بعد اللي حصل ، الدرويش سلم البضاعة ونفذ العملية يا حضرات الظباط .

قالها اللواء / عطية السيد في غضبٍ شديدٍ في وجه الضابط حسن مهران والضابط إبراهيم خيري ، وباقي ضباط المديرية الذين اشتركوا في حملة القبض على الدرويش ليلة أمسٍ ، فصُعِقَ كلُّ من سمع وكان أكثرُ مَنْ صُعق هما الضابط حسن مهران ، والضابط إبراهيم خيري ، فقالا في نفس اللحظة بصوتٍ مصدومٍ مندهشٍ يغمره القليل من الحزن من قبل حسن مهران والكثير من الحسرة من ناحية إبراهيم :

-إيه ؟! إزاي يا فندم !

-إزاي دي متسألونيش أنا عليها .. اسألوا نفسكم يا بهوات ، لما تبقى كل القوة دي وفي الآخر العملية تتم برضو، يبقى إيه ؟! يبقى إيه ؟!

قالها لهم اللواء عطية السيد في غضبٍ شديدٍ لدرجة أنَّ أوردَتَه كادتْ أنْ تقفزَ من جسده ، فطأطأ الضباط رؤسهم قبل أن يقول

الضابط حسن مهران بصوتٍ منخفضٍ جداً ، قريبٍ من الهمس :
-يا فندم إحنا فتشنا كل العربيات كويس ، ومسبناش فيها شبر واحد من غير ما يتفتش .
فقضب السيد اللواء حاجبيه في غضبٍ وزفر ، ومن ثمَّ قال :
- امال ايه يا حضرة الظابط ، الدرويش هرَّب البضاعة ازاي ؟ ايه التفسير غير إنكم مهملين في شغلكم ، وإنكم مأدتوش عملكم على أكمل وجه !
ساد الصمتُ قليلاً ولم يُسمعْ إلَّا صوتُ شهيق وزفير اللواء عطية السيد الثائر ، فقال الأخير :
-اتفضلوا يا حضرات الظباط .
معلناً أنَّ الاجتماع قد انفضَّ ، فأخذ الضباط هواتفهم المحمولة التي كانتْ موضوعةٌ أمامهم على منضدةِ الاجتماعات في مكتب السيد اللواء معلنين انتصاراً آخر للدرويش .

* * *

الآنَ مرَّ قرابة الشهر على بدء الفصل الدراسي الثاني ، ومحمد مازال ومازال يسأل ويسأل عن معلمه الاستاذ علي ؛ علَّهُ يجده أو يسمع عنه أيَّ خبرٍ ، فما دفعه لذلكَ إلَّا أنَّه قَلِقَ عليه وأراد أنْ يطمئنَ عليه لا أكثر، فهو أولاً وأخيراً معلمه ويدين له بكل الولاء والاحترام أبد الآباد ، وكلَّما سأل أحدهم كانتْ الإجابة :

-لا أعلم .. لا أدري .

فقرَّرَ أنْ يسألَ أحدَ المعلمين عنه ، فمن عساه يسأل إلَّا أعزَ المعلمين لديه وأقربَهم إلى قلبه ، ألَا وهو الاستاذ محمود ، فقرَّرَ أنْ يتوجهَ إليه ويسأله عن استاذه الاستاذ عليّ ، فقرَّرَ أن يذهب إليه بين الحصص ، وبالفعل ذهب إليه محمد بين الحصص وقابله فصافحه ، ثمَّ قال محمد :

-ازيك يا استاذ محمود ، أخبار حضرتك ؟!

- الحمد لله يا حبيبي ، أنت إيه أخبارك وإيه أخبار الدراسة معاك ؟!

- والله الحمد لله يا استاذنا تمام ، لو سمحت يا استاذنا عاوز أسأل حضرتك عن حاجة ؟!

-اتفضل يا حبيبي تحت أمرك ، فيه حاجة مش فاهمها في المنهج ؟!

- لا لا يا استاذنا ، بس حاجة كدا برة الدراسة .

- اتفضل يا محمد قول ، واسأل على اللي أنت عاوزه .

- الاستاذ عليّ ؟

- الاستاذ عليّ ! ماله ؟!

- مشي من المدرسة ولا ايه ؟! علشان مشفنهوش من أول الترم ؟

- لا ممشيش هو بس واخد أجازة ، وجاي قريب .

- آه ، بس هو جاي قريب ؟!

- أيوة ، يعني ممكن أول الأسبوع ييجي على هنا .
- تمام شكراً يا استاذنا ، بعد إذن حضرتك .
- اتفضل يا حبيبي ، وشدّْ حيلك .
- إن شاء الله .
وانصرف محمد وهو يفكِّرُ، وقد اطمئن أنَّ معلمه سيأتي الأسبوع القادم ، ولقد كاد أن يسأل الاستاذ محمود عن أحوال الاستاذ علي ، لكنَّه آثرَ أنْ يسألَ الاستاذ علي نفسه عندما علم أنَّه سيعود قريباً ، وفي أثناء سيره في المدرسة التقى كالعادة بصديق عمره علاء ، وقال له :
- علاء ! عارف .. سألت الاستاذ محمود عن الاستاذ علي وقال إنه ممشيش من المدرسة وإنه في أجازة ، وكمان راجع على أول الأسبوع اللي جاي .
فاندهش علاء ضارباً كفيه كفاً بكفٍ متعجباً ، وقال :
-أنت ياد ، مش هو دا الاستاذ اللي كنت بتشتكي منه ، وبتتمنى ميكنش فيه منه تاني علشان هو اللي مبوظ التعليم في بلادنا ، وكمان أمثاله همّا اللي هيكرهوا ولادنا في التعليم ، مش هو دا ؟!
-يا أخي بقى .. بس والله واحشني رغم كل دا ، ومش عارف لقيت نفسي بسأل عنه وعاوز أشوفه .
ضحك علاء ومعه محمد ، وسارا معاً كعادتهما وأخذا يتحدثان ، يتجادلان ، يختلفان تارةً ويتفقان تارةً أخرى ، فلدى كلٍّ منهما

رأيُّه ونظرتُه الناقدة الخاصة به فكلاهما مثقفان ، ويقرأ كل منهما في شتى المجالات .

* * *

وفي أثناء ذهابهم إلى بيت أدهم بالسيارة ، سألَ عبد الرحمن مصطفى وقال :
- مصطفى هلا حدثتني عن العلم ، أقصد التعليم في بلادكم هذه ، أتذكُر ذلك الولد محمد .. حدثني باختصارٍ عن التعليم هنا ، فهلّا أفضيت عليَّ بتفاصيلٍ أكثر ؟!
- أنت جيت على الجرح ، دا التعليم فمصر أصبح ... بصّ لما نروح هقولك كل حاجة بالتفصيل .
- حسناً ، موعدنا إذنْ في المنزل عند العودة .
وبعد قليلٍ وصلوا إلى منزل أدهم ، ودخلا إليه وعندها قال مصطفى :
- السلام عليكم يا صاح ... احم يا صاحبي .
صُعِقَ مصطفى وكذلك عبد الرحمن عندما شاهدا أدهماً ، وكان راقداً على فراشه ، شاحبَ الوجه ، حزينَ الملامح ، مكسورَ القلب والخاطر، يبدو وكأنَّه فقد الدنيا وما فيها ، كأنَّه حيٌّ ميتٌ وسط الأحياء ، فبعد أنْ ردَّ أدهم عليهم السلام ببطءٍ وبصوتٍ خافتٍ يعكسُ ضعفَ صاحبه ، وسوءَ حالته البدنية والصحية ، ظلُّوا

جميعاً صامتين .. لا أحد يعرفُ من أين يبدأ ، فلقد صَعقتْ سوء حالة أدهم الحالية كُلَّاً من مصطفى وعبد الرحمن ، اللذان لا يصدقان عيونهما ، وبعد أنْ سادَ الصمتُ لبعضِ الوقتِ نطق أخيراً مصطفى وقال :

-وأنت عامل ايه دلوقتي يا صاحبي ؟!

-والله الحمد لله تمام .

- امال مالك يا عم ايه اللي تعبك وايه اللي جرالك .

- شوية إرهاق ، وهبوط في الدورة الدموية بس مش أكتر .

- لا يا صديقي ألف سلامة عليك .

- الله يسلمك يا صاحبي .

- عافاكَ الله ، وشفاكَ يا صديقي .

- أمين يا رب ، ربنا يخليك يا عبده .

سادَ الصمتُ قليلاً ، ثمَّ تفوَّه أدهم بصعوبةٍ :

- شهد سابتني ... .

صمتَ قليلاً وهو يحاول أنْ يمنعَ دموعَه من أن تتدفق من جفونه القريحة من كثرة البكاء ، وظهرتْ في المقابل علاماتُ الدهشة على وجوه صديقيه ، واستطرد الأول :

-كانت مكالمتنا الأخيرة مطابقة بالظبط للي كانت في الحلم ، وكلامها كان شبه كلامك يا عبده ، علشان كدا وهي بتتكلم أنا افتكرت كلامك علطول ، ومن ساعتها وأنا بحاول أكلمها بس مش

بترد عليا .
وبدأتْ الدموع تنهمرُ على وجنتيه ، وبعد قليلٍ أردف :
-أنا بحبها جداً ، وبجد مش متخيل حياتي من غيرها ، هي كل حياتي .. هي كل حياتي .
قالها ومازالتْ دموعه الحارة الحزينة تنهمرُ على وجنتيه ووجهه الشاحب ، وكاد عبد الرحمن ليعلِّقَ لكنَّه آثرَ الصمتُ لكي لا يزيد الأمرُ تعقيداً على ذلك المسكين ، ولكنَّه تحدَّثَ بعد برهةٍ وقال :
- يا صديقي تالله ما رأيتُ منك وما عرفت عنك إلا القوة والأدب ، فما بالك اليوم ضعيفاً لا تقوى أنْ تواجهَ أمراً كهذا ، لا يا صديقي أنت أقوى من ذلكَ بكثيرٍ .
وابتسم له وربت على كتفِه فبادله أدهم بابتسامةٍ ، فقال مصطفى محاولاً إحياءَ تلك الروح في نَفْسِ أدهم :
-أيوة يا صاحبي أنت أقوى من إنك تتأثر بحاجة زي كدا ، يلا قوم وشد حيلك ، على فكرة أنت مش تعبان ولا حاجة ، أنت بس بتوهم نفسك إنك تعبان ، وكمان أكيد مبتكلش علشان كدا جالك هبوط ، يلا يا عم بقى بطل دلع .
فابتسم أدهم وكذلك عبد الرحمن ، وأومأ كلٌّ منهما برأسه ، وعادتْ روح المرح أو على الأقل البسمة إلى وجه أدهم ، تلك البسمة التي غابت عنه كثيراً حتى كاد ينساها او يتناساها .

* * *

تقابل علاء ومحمد في الصباح قبيْلَ باب المدرسة بقليلٍ ، فتصافحا ودخلا معاً المدرسة وكان محمدٌ مبتسماً :

-النهاردة أول الأسبوع والاستاذ علي هييجي و... .

- يووه ! يا ابني ارحمني ، دا هييجي يطلع عنيك أنت وباقي العيال زي الترم الأول ، وبعد كل دا واللي حصل معاك الترم الأول عاوزه ييجي ، هه سبحان الله .

- يا ابني والله ... أنا مش عارف أقول إيه ، بس مش عارف لقيتو واحشني ، أنا بس عاوز اطّمن عليه مش أكتر.

- ماشي يا عم أهو جايلك واطّمن عليه زي ما أنت عاوز ، بس يارب متجيش تشتكي منه !

ضحك محمد من قول علاء وطريقة تحدثه الساخرة ، وقال مداعباً إياه :

- خلاص ياد .. مش شايف إن الموضوع كبر شوية وخد حجم أكبر من حجمه ، كل الموضوع عاوز أشوفه وأسلم عليه ، يلا خلينا نلحق الطابور والإذاعة المدرسية .

وانصرف كلٌّ منهم إلى حيثُ يقفُ .

* * *

يجلس عبد الرحمن ومصطفى في المنزل على الأريكة يشربون مشروب البرتقال الذي يعشقه مصطفى ، فيبادره عبد الرحمن قائلاً :

- مصطفى هلّا خبّرتني عن نظم التعليم في مصر، وفي الدول العربية الأخرى ولكن ببعض التفاصيل ؟!

فقال مصطفى بعدما شرب آخر شربةٍ في كأسه :

-نظام التعليم في مصر ! والله من وجهة نظري من أفشل نظم التعليم في العالم ، وكلامي بتجسده الأرقام والحقائق .. إحنا بفضل الله المركز ما قبل الأخير في الترتيب ..

- ترتيب ! أيُّ ترتيب ؟!

- آه ، الترتيب دا هو ترتيب أفضل ١٥٠ دولة في العالم في التعليم ، أما باقي دول العالم باستثناء ال١٥٠ دول يعتبر تعليمهم بدائي وميعترفش بيه ، ولو كملنا على نظامنا دا أوعدك إننا قريب جداً هنخرج برة الترتيب دا .

صوَّب مصطفى نظره للأرض كأنَّه يشعر بالخزي ، وزفر زفرةً معبرةً عن حزنٍ عميقٍ ، وألمٍ شديدٍ ، وحسرةٍ كبيرةٍ يحملها في صدره ، ثمَّ رفع بصره مرةً أخرى موجهاً إياه إلى عبد الرحمن واستطرد :

-سمعت من كام يوم فيديو على النت لقيته بيتفق تماماً مع وجهة نظري ، وكان بيتكلم عن نظام التعليم السائد في أغلب دول العالم إلا ما رحم ربي .. أنا هحكيهولك باختصار بالإضافة إلى

وجهة نظري ، وعلى فكرة مش بتكلم غير عن واقع وبإنصاف ، مش بتكلم من وجهة نظر عابثة أو ميول زائف .

وازدرد لعابه وقد أحسَّ بالحماس لمواصلة الحديث ، أمَّا عبد الرحمن فكاد يحترق شوقاً للاستماع ، فمصطفى شخصٌ طليقٌ ، لبقٌ ، وحلو اللسان ، مقنعٌ ولا يتحدث عمَّا لا يفقه فيه ، و عند حُكمه يكونُ منصِّفاً إلى أقصى الدرجات بدون ميول لأي طرف ، حتى ولو كان هذا الطرف هو «نفسه» ، فمبدأه في هذه النقطة (الاعتراف بالحق فضيلة) ؛ فهو لا يخشى الاعتراف بالخطأ إن أُثبتَ خطأه ، فأردف :

-في الفيديو بدأ كلامه بحكمه قالها أينشتاين العالم الفيزيائي المشهور ، بل أذكى عقلية في القرن العشرين واللي بتقول (الجميع أذكياء ، ولكنَّك إذا حكمتَ على سمكةٍ بقدرتها على تَسَلُّقِ الشجرة ، ستعيش طول عمرها تعتقد أنَّها غبية) ، ودا يا صاحبي اللي بيعمله نظامنا التعليمي ، والكثير من الأنظمة الأخرى .. أنهم إلى اليوم لا يدركون إن لكل واحد فينا موهبة معينة .. مجال معين يبدع فيه ، وهتكلم بقى على نظامنا على وجه الخصوص ، اللي بيحصل عندنا مهزلة بالمعنى الحرفي للكلمة ، الحاجة الوحيدة اللي بيقيسها نظامنا هي الذاكرة (قدرتك على الحفظ) مش بتقيس ذكاء ، أو بقدر ما بتقيس قوة الذاكرة يعني تقدر تقول بنجبر السمكة إنها تتسلق الشجرة ، علشان كدا أغلب الطلبة بيحسوا

إنهم فاشلين ، أغلب الطلبة عايشين دور السمكة ، وعلشان كدا نظامنا التعليمي متخلف ومتأخر، وكمان مفيش احترام للمواهب ، مش بنقدس إن كل واحد فينا مبدع في شيئ معين ، وكمان المناهج اللي بيحطوها أساساً ناس سياسيين أكتر ما هم ناس في التعليم أو لازم يمر على الجهات السياسية .
السياسيين اللي هما ما اشتغلوش في المدارس أصلاً ، دا كمان اللي بيحصل عندنا مهزلة ، كام مدرس في مدارسنا غير مؤهلين أساساً للتدريس ! وكمان موضوع الدروس الخصوصية اللي يعتبر سبب رئيسي في تخلف التعليم ، الناس دلوقتي أصبح اعتمادهم الأول والأخير على الدروس الخصوصية مش المدرسة ، وكمان المدرسين مبقوش بيشرحوا في المدارس .. كله في الدروس الخصوصية ، وطبعاً نظامنا التعليمي بيجبروا إنه يعامل كل الطلبة أو بالأحرى كل العقول بشكل موحد ، دون اعتبار لتنوّع الفكر، بس إزاي والكل متفق إن مفيش عقلين زي بعض !!

إحنا عاملين بالظبط زي الدكتور اللي بيصف نفس الدوا لكل المرضى باختلاف حالاتهم ، تخيل كدا لما دكتور يوصف نفس العلاج لكل المرضى !! أكيد النتيجة هتكون مأساوية ، دا اللي كان بيحكيه الفيديو ، بس علشان نكون منصفين ، بصراحة المدرسين رغم الدور العظيم اللي بيقوموا بيه ومهنتهم تعتبر أعظم مهنة في العالم والتاريخ ، إلا إن رواتبهم ضعيفة جداً جداً بصراحة ،

لدرجة إنها متعيشوش عيشة محترمة ، عيشة محترمة إيه دي متأكلوش عيش ، وعلشان كدا قلما لما تلاقي مدرس مش بيشتغل شغلانة تانية بعد المدرسة ، علشان كدا بيلجأ للدروس الخصوصية كنوع من الشغلانات التانية دول ، منهم اللي بيفتح سوبر ماركت ، ومنهم اللي بيشتغل في صيدلية وغيرهم كتيير .. وحتى اللي بيراعي ضميره في الشغل برضو بيشتغل على قد ما متاح له من امكانيات .. أنا مش بأبرئ المدرسين ؛ لأن اللي عاوز يعمل هيعمل تحت أي ظرف ، بس علشان نكون منصفين الذنب مش ذنبهم مية في المية ، لأنه لو عيشته مرتاح وعملتله اكتفاء أكيد مش هيفكر في موضوع الدروس الخصوصية ، ودا اللي كان بيحصل زمان أيام أبويا واللي قبله .. كان المعلم مرتبه محترم بعيشه عيشة محترمة وزيادة ، علشان كدا ساعتها كنا متقدمين !!

زفر مصطفى كانه يرتاح أو كأنه سئم الأمر، وحرك رأسه يمينا ويسارا ثم اردف :

-للاسف كل الناس لما تيجي تحكم بتغلّط المدرسين ، مع إن الذنب مش ذنبهم ، ولا العيب عيبهم بقدر ما هو عيب النظام ، نظام أعمى ، نظامنا يا صديقي نظام بيدمر العقول ، نظام بيجبر السمكة إنها تتسلق الشجرة ، نظام مش بيقدر مواهب ، نظام بيجبر الطلبة على التنافس مش التعاون ، نظام مش مقتنع إن لكل واحد فينا مجال معين يقدر يبدع فيه ، نظام مش مقتنع

إنه لو أطلق العنان لكل موهبة ولكل عقل إنه يفكر ويطلع اللي عنده هتكون النتائج مبهرة ، فقط حقق لكل طالب حلمه ولن تصدق ماذا سيحدث ! تعرف أنا لو وزير التربية والتعليم .. هلغي الإمتحانات وهدور على طريقة تانية أختبر بيها الطلبة .

يسمع عبد الرحمن كلام مصطفى وهو مذهولٌ ، ولكنْ ليس بقدر ما هو حزينٌ مِمَّا يسمع ويجول بخاطره الكثير .. كيف استحال الأمر إلى هذا الوضع الراهن الذي يحكي عنه مصطفى؟! فأخذ يسأله و الحزن يملأُ قلبه ، لدرجة أنَّه يمنعُ الكلام من الخروج من بين شفتيه ، لكنَّه أبى إلَّا أنْ يسألَه فقال :

-وهلْ كل الدول هكذا ، أو بالأحرى هلْ كل الدول العربية هكذا ؟!

قالها والقلق يملأُ عينيه وبداخله يحترقُ شوقًا لمعرفة كيف تجري الأمور، وفي الوقت ذاته انتابه خوفٌ من الجواب ، وأخذ يقول لنفسه هيهات ! إن كانتْ مصر هكذا فما بالُّ باقي الأمة العربية والإسلامية ، وبعد برهةٍ ردَّ مصطفى قائلاً :

- أكيد لا ، فهناك دول في العالم نظامها التعليمي لا يعاب ، وعلى سبيل المثال دولة « فنلندا « بتعمل عكس كل دول العالم .. فعدد أيام الدراسة بتاعتها أقل ، وكمان عدد ساعات الدراسة في اليوم الواحد برضو أقل ، وبيهتموا جداً بالرياضة والأنشطة و المواهب ، وكمان مفيهاش مدارس خاصة ، كل مدارسها حكومي

، والمفاجأة الأكبر إنْ فنلندا نظامها التعليمي أفضل نظام في العالم وهي الدولة رقم واحد عالمياً في التعليم ، وماليزيا وأمثلة تانية كتير تحترم ، لأنهم بيسعوا للتعاون مش للتنافس ، على أساس إن كله يكمل بعضه مش ينافسوا بعض .

عرفت بقى ايه وضع نظامنا التعليمي ، وعرفت إنه بيجبر السمكة على تسلق الشجرة ، ومستنيين إنه ينجح !! طيب ازاي !!

يسمع عبد الرحمن كلمات مصطفى وهو في قمة الأسى ، كيف استحال حالنا ! وقبل أنْ يتفوَّه ببنت كلمة ، سمعا صوت رنين الهاتف يعلو بإلحاحٍ كأنَّما يقول لهم اجيبوا ، فأقبل مصطفى نحو الهاتف ليجيبَ ، وإذْ به يقرأ اسم المتصل فيجده صديهما أدهم فيجيبَ مصطفى متبسِّماً ، ويجول بذهنه ويقول أخيراً تعافى أدهم مجدداً ، فقال :

-ألو ، السلام عليكم .

فردَّ أدهم :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. .

- أدهم صديقي أخبارك يا حب !! وحمد الله على السلامة ، انا مبسوط جداً جداً إني سمعت صوتك .. واحشتنا يا راجل .

- حبيبي يا درش الله يسلمك ، أنا اللي مبسوط اكتر إني سمعت صوتك .. بس بقولك عاوز منك طلب !

- يا باشا من عيوني ، تحت أمرك يا صاحبي .

- حبيبي ، هات عبده وتعالى عندي دلوقتي .
- عيني يا غالي ، مسافة السكة وهنكون عندك .
- ماشي ، سلام .
- مع السلامة .
أنهى مصطفى المكالمة مع أدهم ، ثم اعتدل ناحية عبد الرحمن قائلاً له ما طلبه منه أدهم فوافق عبد الرحمن برحابةِ صدرٍ، فرحا أنَّ أدهم بدأ يتعافى أو لنقل تعافى ، متمنيان له اطيب الأمنيات بالتعافي والسرور ، وقررا الذهاب إليه .. فيا تُرَى ماذا يريدُ أدهمَ ؟!

الفصل الثاني عشر

انفضَّ الاجتماع وخرج كلٌّ منهم من مكتب السيد اللواء والضيق يكاد ينفجر من وجوههم ، بل يشتعلون غضبًا مما حــدث ، وفي نفس كلٍّ منهم أحاديثٌ تدور نتيجة ما حدث ، فأمَّا الضابط إبراهيم فأقسم أنْ يجعلَ الدرويش يندم أشدَّ الندم ، وأخذ يفكر مراراً وتكراراً فيما حدث وهو يشتعل غضباً مِمَّا حدث ، وأخذ يقول في نفسه ويفكر كيف حدث ذلك ؟! وكيف استطاع الدرويش تسليم البضاعة ، وتنفيذ العملية !! مع أنَّهم لم يرتكبوا أيَّ خطأ ، فجميع السيارات فتشوها كما ينبغي أنْ تُفتشَ ، ويقول في نفسه لا تفرح كثيراً أيُّها الدرويش ، فإنَّ خسارة معركة لا تعني مطلقاً نهاية الحرب ، ونهايتك قريبةٌ أيُّها الدرويش وستكون على يدي .. هكذا كان يفكر ، وهذا ما يجول بخاطره بعدما خرج من مكتب السيد اللواء وعزم أنْ يفعلَ ما يمنِّي نفسه به قريباً .

أما الضابط حسن مهران فلا يقل غضبه عن غضب إبراهيم ، فاتجه الضابط حسن مهران إلى مكتبه وهو يستشيط غضباً ،

ويقول في نفسه كيف فعل ذلك ؟! هلْ حقاً سلَّم المخدرات ونفذ العملية ؟! وكيف له أن يُطرأ مثل هذا التعديل في الخطة ولا يخبره به !! استاء الضابط حسن مهران كثيراً مما حدث ، ويقول في نفسه ألمْ نتفقْ أنْ نأجِّلَ تنفيذَ العملية الفعلية ، وأنَّ كلَّ ذلك سيكون من باب التمويه لا أكثر، وكيف استطاع من الأساس تنفيذ العملية رغم ما فعلناه ؟! وعزم أنْ يهاتفَ الدرويش ويوبخَه في الهاتف على ما حدث ؛ لأنَّ هذا لم يكن اتفاقهما الذي عليه اتفقا ، ويعرف منه المزيد من التفاصيل ، قال في نفسه أنَّه سيفعل في وقتٍ لاحقٍ لكنَّه لم يطقْ صبراً وآثر أنْ يفعلَ ذلكَ الآنَ ، وأخرج هاتفه الخلوي الذي استلمه تواً من السيد اللواء ؛ ليهاتفَ الدرويش وما يتملكه سوى الغضب الشديد ، وغضبه يزداد أكثر فأكثر كلَّما طال وقت رنين جرس الهاتف ، بلْ وكلما تأخر وقت الرد وحسن يتوعده أكثر، حتى ظنَّ في قرارة نفسه أنَّه سيقتل الدرويش من شدة الغضب ، إلى أنْ ردَّ الدرويش أخيراً ، وهنا قال الضابط حسن مهران وقد بلغ ذروة الغضب :

- ألو ، أيوة يا درويش .. صحيح الكلام اللي أنا سمعته دا ؟!

ردَّ الدرويش بكل غرورٍ ونرجسيةٍ بعدما زفر ، وابتسم ابتسامةً خبيثةً مليئةً بالغرور :

- أيوة اللي أنت سمعته صحيح ، إيه رأيك بقى في دماغ الدرويش ، وإيه رأيك في الحركة دي !!

وهنا كاد أنْ ينفجرَ الضابطِ حسن مهران من شدة الغضب ، وهنا ارتفع صوته وقال :

- رأيي في إيه ؟! إحنا مش متفقين على خطة وقولت كله تمام !! امال بتغير في أمها ليه ، ولما عندك اعتراض على الخطة مقولتش ليه من الأول ، وبعدين مقولتش على التعديل ليه قبل التنفيذ ، أنت خليتني عامل زي الأهبل و ... .

هنا قاطعه الدرويش وقال له بكل هدوءٍ وثقةٍ أثارتْ اشمئزاز حسن مهران :

- اهدى بس يا حسن واسمع السبب وبعدين هتعرف أنا مقولتلكش ليه ، وهتعرف إني كان عندي حق .

وهنا رد حسن المُستشاط غضبًا وهو يبذل قصارى جهده ؛ ليكتم هذا الغضب :

- قول يا باشا وأنا سامع أهو ، ومش هقاطعك وهات كل اللي عندك .

هنا ابتسم الدرويش الذي ظلَّ محافظاً على هدوئه رغم عصبية حسن مهران ، لكنَّه قدَّر سببَ غضبِه وردَّ قائلاً :

-موبيلاتكم كانت مسحوبة منكم يعني مقدرش أتصل بيك ، وأغلب الوقت كنتو في اجتماعات علشان تعملوا خطة يعني برضو مقدرش أتصل على رقم مكتبك ، علشان ممكن حد يشك فيك او يكشفك .. تمام !! دا السبب اللي خلاني متصلش بيك

أبلغك بالتعديل اللي في الخطة ، وأظن سبب وجيه ومقنع وكمان التعديل خطر على بالي بعد ما اتفقنا على الخطة ، يعني مش ساعة ما حطينا الخطة ؛ لأن التعديل لو خطر على بالي ساعتها أكيد كنت هقولك علطول .

-طيب إزاي قدرت تنفذ العملية ، وإيه هو التعديل بالظبط علشان أبقى ملم بالموضوع ؟!

- أنت لو عرفت إزاي نفذنا العملية هتعرف إيه هو التعديل ، وعامةً التعديل كان إننا نسلم البضاعة في الميعاد دا ، وفي طلبية تانية هتتسلم حسب الخطة بتاعتك اللي أنت قولت عليها .

- طيب وليه مسلمتش الطلبيتين في الميعاد دا مادمت أنت واثق إن خطتك هتنجح ، وليه برضو ممشتش حسب الخطة بتاعتي ؟!

- لأن الناس اللي طالبة البضاعة رفضت إن ميعاد التسليم يتأخر ، فمكنش فيه حل غير إننا نسلم البضاعة في ميعادها .. دا اللي مخلنيش أستنى نمشي على الخطة بتاعتك ، أما ليه مسلمتش الطلبية التانية مع دي ، دا لأنها لسة موصلتنيش ، وكمان أنا طلبتها لأنها فرصة متتعوضش ، إن يبقى فيه فرصة زي دي ننزل فيها بتقلنا .

- طيب وإزاي بقى قدرت تنفذ العملية مع أننا فتشنا العربيات كويس ؟! وكمان راقبنا كل العربيات اللي طلعت من بيتك كويس ، وكمان قبل ما تتفرق ، علشان لو كان فيها حاجة ، يعني

معملناش ولا غلطة !! امال إزاي قدرت تنفذ العملية ؟!
هنا أطلقَ الدرويش ضحكةً عاليةً قبيْلَ أنْ يتفوهَ بكلماته التي يملأها الفخر وقال :
-أقولك يا سيدي إيه اللي حصل بالظبط ، بس بقولك أنا بعت واحد من رجالتي قدم كام بلاغ كدا ضد الحكومة وكل الظباط اللي شاركم طبعاً بما فيهم أنت علشان محدش يشك ، وكمان شكوى مخصوص في الظابط المسئول عن العملية .. الظابط إبراهيم خيري بس مش شكوى واحدة ، لا انا قدمت شوية حلويين كدا علشان يتحول تحقيق ، أو يتوقف عن شغله شوية كدا لغاية ما نخلص العملية ، أنا مش بس بعته المديرية لا وكمان بعته على الوزارة يشتكي ... .
- ماشي ماشي ، بس قولي إزاي قدرت تنفذ العملية بعد كل اللي عملناه .

* * *

وصل عبد الرحمن ومصطفى إلى منزل أدهم الذي استقبلهما استقبالاً حاراً بعدما تعافى من مرضه مقارنة بآخر مرةٍ كانا عنده ، لكنَّه مازال متعبًا قليلاً أو بالأحرى تبدو عليه علامات الإرهاق ، ولكنْ هذا لم يقلقهما ؛ لأنَّه من الطبيعي أنَّه بعد فترة طويلة من المرض أنْ يبدو عليه علامات الإجهاد والإرهاق ، وبعد أنْ رحَّبَ

بهما أدهم ، وبادلاه بنفس الحرارة التي استقبلهما بها ، قال عبد الرحمن موجِّهاً كلماته لأدهم بعد أنْ أجلسَهما :

-أدهم صديقي ، كيف حالك الآن ؟! ألست بخير ؟!

فردَّ أدهم بابتسامةٍ هادئةٍ وقال :

-الحمد لله يا عبده ، بخير بحمد ربنا ، المهم أنت ايه أخبارك ؟!

واعتدل ناحية مصطفى وقال:

- وأنت يا مصطفى ايه أخبارك ؟!

فأجابا في وقتٍ واحدٍ:

- الحمد لله .

فابتسم أدهم متمنياً لهما دوام الصحة والعافية وأردف :

- مش عاوزين تعرفوا أنا كلمتكم ليه ؟!

فبادر مصطفى بالردِّ هذه المرة مبتسماً وقال:

-أكيد عاوزين نعرف يا باشا علشان الفضول بياكل فينا .

-ماشي .

وفجأة تحولتْ ملامح أدهم من البهجةِ والسرورِ إلى الحزن والأسى ، ومن ثم استطرد :

- عاوزكم توصلوا رسالة لشهد .

اندهش مصطفى وعبد الرحمن كثيراً ، فلقد ظنَّا أنَّ علاقتهما قد انتهت ، وأنَّ أدهمَ لا يفكر فيها أو بالأحرى لم يعد يريدها منذ أنْ تركتْه ، وهنا قال عبد الرحمن ومازالتْ الدهشة تغمره :

-ماذا ؟! لقد ظننا أنَّ علاقتكما قد انتهتْ وأنَّك لم تعد تريدها ، أو تفكر فيها وكذلك هي لم ... .
وهنا قاطعه أدهم قائلاً وقد استهلتْ الدموع انهمارها من أحداقه الحزينة :
- انا عمري ما نسيتها ولا هنساها ، وهي عمرها ما هتغيب عن بالي أو تفكيري أبداً .. أبداً .
وهنا تدخَّلَ مصطفى قائلاً :
- خلاص خلاص ، إحنا تحت أمرك .. شوف إيه الرسالة اللي عاوز توصلها عن طريقنا ، وإحنا تحت أمرك يا صاحب ؟!
- أنا عاوزكم توصلولها قصيدة شعر ، ومعاها رسالة تانية مكتوبة بخط إيدي قولتلوا إيه ؟!
وهنا ابتسم مصطفى وصاح في اندهاش مداعباً أدهم :
-أيوة بقى .. أنت شاعر بقى وإحنا منعرفش ، ولا علشانها هي بس ؟!
وهنا ابتسم أدهم ابتسامةً عريضةً وخجولةً في الوقت ذاته ، قبل أنْ يقولَ أيَّ شيءٍ .. كان قول عبد الرحمن هو الأسبق حيث قال وهو يبتسم :
-منذ متى وأنت تكتب ونحن لا نعرف ! ولِمَ لَمْ تخبرنا أنَّك تكتب الشعر أو تسمعنا من شعرك ولو القليل ، فأنا من عشاق الشعر يا صديقي .

زادتْ ابتسامة أدهم ، وازداد معها خجلُه وقال :
- والله مش بكتب كتير، ومش ملم حتى بقواعد الشعر .. بس هسمعكم القصيدة دي .

* * *

مرتْ أيامٌ منذُ أنْ أخبرَ الاستاذ محمودُ محمدًا عن مجيئ الاستاذ عليّ ، ولكنَّه لم يأتِ على عكس ما توقع محمد ، وجال بذهنه أنْ يسألَ الاستاذ محمود مرةً أخرى لكنَّه آثر ألَّا يسأل واكتفى بالانتظار لأكثر من يوم وبعدها لم يعدْ ينتظر، بل لقد مسه اليأس من مجيئه ، ومن هنا قرَّر أنْ يستمتعَ بالأسلوب الرائع الذي يتبعه الاستاذ نبيل ، وفي يوم من أيام الأسبوع حان الآن وقت حصة اللغة العربية ، والجميع في انتظار الاستاذ نبيل المدرس الرائع الذي يحبُّه الجميع ويحبون حصته ولا يملون منها أبداً ، وبينما هم جالسون في انتظار معلمهم الاستاذ نبيل يأتي صوتٌ لدى دخوله يقول :
-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
هذا الصوت ليس غريباً على آذان الطلاب ، وهو ليس للأستاذ نبيل فمن يكون صاحب هذا الصوت ؟! سؤال جال بخاطر الطلاب لبرهة لكنَّه لم يدمْ طويلاً ، فسرعان ما علموا الإجابة التي أدهشتهم ، والتي لم يكن أحدهم ليصدق عينيه أو يصدق من

الشخص الداخل إلى الفصل إنَّه الاستاذ عليّ ، نعم هو .. ولقد أدهش الطلاب قدوم المعلم أو لنقل عودة الاستاذ علي إليهم ، فهم أبداً ما كانوا ليتوقعوا عودته بعدما أخبرهم المعلم نبيل أنَّه مَن سيكمل معهم باقي الفصل الدراسي الثاني ، وها قد عاد الاستاذ عليّ ليصدمهم ، ولكنْ ما صدمهم أكثر وزاد من دهشتهم هو هيئةُ الاستاذ عليّ ، فبعيدًا عن أنَّ الاستاذ علي كان يأتيهم عابساً لا يعرف للضحك أو التبسم سبيلاً ، إلَّا أنَّه دخل عليهم هذه المرة متبسِّماً كأنَّه سعيدٌ برؤيتهم مجدداً .

كل هذا لم يحظَ باهتمامهم كثيرًا أو بالأحرى لم يعدْ ؛ لأنَّ هناك ما لفت انتباههم أكثرَ ، ألَا وهو ملامحه .. فلقد كان وجهه شاحبًا ، حزيناً ، كأنَّه خسر أغلى ما يمكن أن يملكه بشري في دنياه ، بلْ كأنَّه خسرها بكلِّ ما فيها ، وكان هناك زرقةٌ تغمر ما تحت عينيه ، كأنَّه في تخاصمٍ مع النوم ، فلم يعرفْ له طعماً منذ الكثير والكثير، وبالرغم من كلِّ هذا فلقد أتاهم بشوشاً متبسماً على غير العادة – كما ذُكر – مِمَّا حيَّر الطلاب كثيراً ، ولقد كانوا في حيرةٍ من أمرهم .. أيفرحون أَمْ لا ؟! أيعقلُ أنْ يكونَ الاستاذ علي قد تغيَّر ؟!

هذه الحيرة لم تستمر كثيراً فكل الطلاب يأملون أن تكشف الدقائق القادمة عما يحيرهم ، وتجيبهم عن تساؤلاتهم التي تجول بخاطرهم ، فما الذي سيحدث في تلك الدقائق ؟!

دخل الاستاذ عليّ فوقف الطلاب كالعادة وردوا التحية كما ينبغي ، فأذن لهم بالجلوس وهمَّ أن يشرح الدرس ، وبدأ الطلاب يقضب كلٌّ منهم حاجبيه ؛ لأنَّهم يعرفون جيدًا كيف سيكون شرح الاستاذ علي للدروس خاصة في المدرسة ، وبدأ الاستاذ علي يشرح الدرس والابتسامة لم تفارق وجهه الحزين ، وشرح الدرس ببراعةٍ غيرِ مسبوقةٍ ، أثارتْ دهشة الطلاب وإعجابهم في الوقت ذاته ، وما إنْ أنهى شرح الدرس قال :

- فيه أي حاجة مش مفهومة في الدرس ؟!

فحرك الطلاب رؤوسهم يميناً ويساراً دون أن يتفوَّه أيٌّ منهم بكلمةٍ واحدةٍ ومازالتْ الدهشة تغمرهم .

فأومأ الاستاذ علي برأسه متفهماً ، ثم قال :

- طلعوا معايا كتاب التدريبات علشان هنحل مع بعض ، وأي حاجة مش مفهومة محدش يتكسف أو يسكت .. ماشي ؟

فأومأ الطلاب برؤسهم ، وبالفعل أجاب كل أسئلة الكتاب وعلى تساؤلات الطلاب التي سألوا عنها بتبسمٍ وسرورٍ ، وبالفعل أجابت تلك الدقائق عن تساؤلاتهم السابقة ، ولكنَّها خلقتْ في أذهانهم أضعاف أضعافها من التساؤلات ، وانتهت الحصة وبدأ الجدال والنقاش بين الطلاب حول استاذهم الاستاذ علي ، ففيه تعددتْ آراء الطلاب ولا يعلم أيٌّ منهم ما الذي حدث له ، وجعله يتغير إلى هذه الدرجة ، وإلى هذه الصورة ؟! سؤال حير الطلاب كثيراً

فما الذي حدث ؟!

* * *

عاد الضابط إبراهيم خيري إلى منزله وهو في أقصى حالات الغضب ، وحين عاد إلى منزله وجلس على الأريكة .. استلقى على ظهره وأخذ يفكر في الأمر مجددًا ، ولكن بعد أن استرخى قليلاً في منزله ؛ ليفكر بالأمر بعقلانية حتى يستطيع وزن الأمور ويعرف أين الخلل فيما حدث ، وكيف استطاع الدرويش أن ينفذ العملية ، و أخذ يتحدث إلى نفسه ويقول :

- طيب إزاي قدر الدرويش ينفذ العملية ؟! مع إننا كنا مراقبين البيت كويس ولفترة طويلة ومكنش فيه حاجة .

رفع حاجبيه من شدة الحيرة ومن ثمّ أغلق عينيه واضعًا ساعده على مؤخرة رأسه ، وزفر بعنف ثم قال :

- استغفر الله العظيم ، طيب إزاي ؟! لا أنا لازم أسترجع كل حاجة كويس تاني من البداية للنهاية بس بتركيز أكتر، يا ابن الإيه يا درويش !! دا مطلعش غبي زي ما كنا فاكرين .. دا طلع عبقري وفي منتهى الذكاء ابن الكلب .

وأخذ يسترجع الأحداث بدقةٍ ثانيةً بثانيةٍ ، كلمةً بكلمةٍ ، منذ أن قرروا مراقبة منزل الدرويش ومخزنه إلى يوم تنفيذ العملية ، بل استرجع أحداث يوم تنفيذ العملية بدقة شديدة محاولاً

الوصول لأي شيء ، أو بالأحرى كيف استطاع الدرويش تهريب المخدرات من بين ايديهم ؟! سؤال بسببه كاد أن يفقد إبراهيم عقله ، وفجأة وهو مستغرق في التفكير في محاولة الوصول ، صاح فجأةً قائلاً :

- صح صح ، هي ملهاش حل تاني ، أكيد هو دا الحل امال هو طلع العربيات مع بعض ليه ! وإحنا كنا فاكرين إنه غبي لما فتشناهم وملقيناش حاجة ، لكن دا كان فخ وإحنا وقعنا فيه بكل سهولة .

ثم أخذ يحرِّك رأسه يمينًا ويسارًا نادمًا على سوء تصرفهم ، وغباءِ التنفيذ أثناء العملية ، وقرر أنْ يهاتفَ السيد اللواء عطية السيد ، وعندما شرع أنْ يمسكَ الهاتف وقد اتجه نحوه ، إذ بالهاتف يعلو صياحه فينظر في شاشته ؛ ليرى مَنْ المتصل ، فإذْ به يرى اسم السيد اللواء عطية السيد هو المتصل ، فيجيب بسرعة وقبل أنْ يتفوَّه بأي كلمة .. جاء صوت اللواء ليقول له في حزمٍ :

- إبراهيم تعالى على مكتبي دلوقتي حالًا .

قال إبراهيم وقد انتابه القلق قليلًا :

- ليه يا فندم فيه حاجة ولا إيه ؟!

اللواء بنفس الصرامة والحزم :

- هتعرف لما تيجي متتأخرش .

- تمام تحت أمر سيادتك .. مسافة السكة وهكون عندك .

ازداد قلق إبراهيم أكثر فأكثر .. فيا تُرَى لماذا استدعاه السيد

اللواء إلى مكتبه ؟! ولماذا طلب منه أن يذهب بهذه السرعة وبهذا الشكل ؟! لا بدَّ من أنَّه أمرٌ بالغ الأهمية ، وإن يكن ففي كل الحالات كان لابدَّ لإبراهيم أنْ يذهبَ إليه ؛ ليطلعه على ما خمنه أو لنقل اكتشفه ، ويخبره بخطته الجديدة السرية ويكسب دعمه ، هكذا كان يفكر الضابط إبراهيم وهذا ما جال بخاطره منذ أن هاتفه السيد اللواء عطية السيد ، فهل هو أمرٌ هامٌ كما توقع أم لا ؟! لنترك ذلك لما هو آتٍ من دقائق .

* * *

تقابل محمد وعلاء في وقت الفراغ بين الحصص خلال اليوم الدراسي ؛ ليقصَّ له ما حدث اليوم في حصة الاستاذ علي ، لكنَّ علاء بادره بالحديث وقال له :

- محمد !! صحيح الاستاذ علي رجع المدرسة تاني ودخلكم النهاردة ؟

- آه ، هو دخلنا النهاردة فعلاً .

- طيب احكيلي يا صديقي إيه اللي حصل ؟ ويومكم كان عامل إزاي ؟

ابتسم محمد على استحياءٍ وقال:

- هه حاضر هحكيلك .

وأخذ الأخير يحكي لصديقه المقرب والمحبب علاء عمَّا حدث

اليوم في الفصل ، أو لنقل في حصة الاستاذ علي ، يحكي وفي عينيه سعادةٌ غامرةٌ أنَّ الاستاذ عاد بشكل جديد وطريقة جديدة ، وتلك الابتسامة التي لم تفارق شفتيه طوال وقت الحصة ، وهذا شيء ليس مألوفًا من قِبَلِ الاستاذ علي ، الذي كان يدخل الحصة مستاءاً دائماً ، ويقضب حاجبيه طوال الوقت, والذي يغضب عندما يسأله أيُّ أحدٍ أيَّ سؤال طالما هو في الحصة ، وبينما محمد يقصُّ على علاء ما حدث ، فإذْ بعلامات الاندهاش تسود وجه علاء وتتمكن منه أكثر فأكثر كلَّما تحدث محمد الذي بدوره تختلط وتتخاصم بداخله علامات الحيرة وعلامات السرور، وما إنْ أنهى محمد قَصَّ ماحدث حتى بادر علاء الذي لا يصدق إلى الآن أن كل هذا حدث ، فقال الأخير :

- ومن وجهة نظرك ، إيه سبب التغير المفاجئ في اسلوبه ؟ ونظامه علشان دا شيء غريب جداً ، فإيه السر في التحول المفاجيء والغير مبرَر دا ؟!

رفع محمد كتفيه وضغط شفتيه وأطبقهما على بعضهما معبراً عن عدم معرفته لسبب التغير الذي طرأ مؤخراً في سلوك وفي طريقة الاستاذ علي .

ساد الصمت قليلاً بينهما وهم ينظران إلى بعضهم تارةً وإلى الأرض تارةً أخرى حتى ابتسما لبعضهما ، وانصرف كل منهما إلى شأنه ؛ حيث كان وقت الراحة بين الحصص كان على وشك

الانتهاء .

عاد محمد إلى الفصل وفي سبيله للعودة كان يسير مبتسماً ، وكلَّما تذكَّر ما حدث يبتسم ويفرح ، وكيف لا والمعلم الذي افتقده قلبه ، عاد بالصورة التي لم يتمنى بأنْ يكونَ أفضل منها ، فمرحباً بالعودة .

* * *

قال مصطفى مبتسمًا عندما هَمَّ أدهم أن يلقي شعره :

- أيوة بقى يا صديقي ، سمعنا واشجينا .

وهنا أخذ أدهم يلقي قصيدته وفي بدايتها كادتْ أنْ تدمعَ عينيه ، لكنَّه عندما استغرق في الإلقاء سالتْ دموعه بغزارة فأجهش بالبكاء ، وأيضاً مصطفى وعبد الرحمن اللذان تأثرا كثيراً بإلقاء أدهم الرائع والمؤثِّر حتى كادا أنْ يبكيا ، فلقد جاء إلقاء أدهم رائعًا إلى درجةٍ يصعب وصفها .. جاء عميقاً كأنَّما يجيئُ من أعماق قلبه المجروح والمنكسر ، ولقد كان إحساسه عميقًا لدرجةٍ تمس القلوب ، وها هي كلمات قصيدته التي كتبها تعبيراً عما في داخله من أشجانٍ وأحزانٍ ، كتبها وكله أملٌ أنْ تفهمَ شهدٌ مشاعره وتقدرها :

كبرى معاناتي

نظرتُ الحبَ مُذْ أولى نظراتي

وكنتِ يومها أبهى الجميلاتِ
بدرٌ تألَّقَ في غسق الدجى
والقلبُ مفتونٌ بأولى الحبيباتِ
ما كنتُ أدري أنَّ الحبَّ قاتلٌ
وها أنا اليوم مقتولٌ بمأساتي
لربَّما بوسع الشعر أنْ يتفوَّه
لكنَّ حبَّكِ أعْجَزَ الأفواهَ والكلماتِ
في كل حينٍ تسكنين مملكتي
وفي كلِ يومٍ تُجمِّلين ليلاتي
أحببتُ النومَ ففيه لقيانا
وهل غبتِ عن خاطري يا حياتي ؟!
تالله ما مرَّ يومٌ يا محبوبتي
إلَّا وكنتِ دوماً أسمى غاياتي
أدعو الله حبيبتي في كلِّ صلاةٍ
بجمعنا وما انقطعتْ يوماً صلواتي
إنِّي أحبُّك من خلال تمردي
وجهاً كوجه القمر في الظلماتِ
إنِّي أحبُّك سأظل أقولها
إنِّي أحبُّك إلى آخر الكلماتِ
فيا حبَّ عمري يا كلَّ كلي

يا نبضَ قلبي يا أقسى الجراحاتِ
ما كنتُ أرغبُ فراقاً قاسياً
لم يَكُ قلبي بلْ كانتْ حماقاتي
وانظرِ جروحي والآلامُ تمزعها
ما جفَّ نزيفها إلَّا أدْمَتْهَا آهاتي
إنِّي أحبُّك لو مزقتي أوردتي
لسال حبُّك نزيفاً من جراحاتي
يا وَمْضَ ما تومض الأشعار من ألقٍ
عودي إليَّ إلى أحلامي الجميلاتِ
قلبي يشتاقُ فأين عهودنا ؟!
أين كلماتنا في أحلامنا البريئاتِ ؟!
لكَ الله يا قلبي قد أسقمتَني
لكَ الله يا قلبي قد زادتْ معاناتي
فيا زمرةَ العشاق هلْ في الحب مغفرةٌ ؟!
أحببتُ ، عانيتُ رغمًا عن إراداتي
أجزاءُ العشاقِ انفطارُ قلوبِهم ؟!
بالله أجيبوا ، أزيلوا الغشاواتِ
قد صرتُ كالطفل أَنِسَ فاجعةً
وفي قلبه يحملُ كلماتِه الحزيناتِ
عودي إليَّ حبيبتي إنِّي آسفٌ

ولكِ أمامَ الكونِ كلَّ اعتذاراتي
أمـا علمتِ أنَّ الحبَّ تضحيةٌ
فأين الحب وأولى محبوباتي ؟!
ألَا تُضَحِّين تارةً لأجل حبيبك
وتضحيتُك عفوُّك عن حماقاتي
أمْ أنَّ الحبَّ قد صار أغنيةً
يغنيها الناسُ ويقتلون الكلماتِ
إنْ هذا حبُّك فلستُ أريدَهُ
أُفَضِّلُ الموتَ على الحروفِ الذليلاتِ
الحبُّ ليس قصيدةً يا حُلْوَتِي
يسمعها الناس وتعجبهم مقولاتِي
إنِّي أحبُّك أهذي معصيتي ؟!
هل يعني الحبُّ مأساتي وأنَّاتِي ؟!
يا فارسُ العشق بالله خبرنِي
مازلتُ ابحث في الحب عن ذاتِي
ما الحبُّ ؟! أهذا ما عهدته ؟!
هل الحب هجرانٌ وفيضٌ من الآهاتِ
يا حبَّ عمري لِمَ القساوةُ بيننا ؟!
ألَا تجدي في الحب ندائاتِي
أوصيكِ بالعاشق المجروح ترفُّقًا

انفطر قلبي وكنتِ كلَّ مسرَّاتِي
سابقًا في الحبِّ كان حديثُنا
وتُحدِّثُك قبل الألسنِ نظراتِي
اليومَ بات الفراقُ حديثَنا
وناب الدمع والحزن عن الكلماتِ
إنِّي أحتضرُ يا مضيئةَ دنيتي
فبالأمس عشنا في الأحلامِ اللقاءاتِ
اليومَ أترك النوم الهني ودِفْئَه
وأطوفُ مجنوناً في الطرقاتِ
أهذي في الدنا نهايةُ حبِّنا
أهذي نهايةُ الأحلامِ البريئاتِ
تالله لنصنعنَّ في الحب أقدارنا
ولأحقِّقَنَّ قطعاً آمالي وطموحاتِي
تمهَّل يا قلبيَ المشتاقُ تمهلاً
فلعلها تفهم مشاعري العميقاتِ
هلَّا شفيتِني يا شمسَ العمرِ
من داءِ الحبِ يا أميرةَ الأميراتِ
فاليوم يموتُ محبٌّ عاشقٌ
أَنِسَ الحبَّ مرةً فكانتْ آخرَ المراتِ
قد جئتكِ طالباً للداء دوائِه

فبخلتِ به فكانتْ آخرَ اللحظاتِ
صُعق الفمُّ والحروفُ حيارَى
مات المحبُ وكانتْ تلك حياتِي
لا تبخلي عليَّ بدعاءٍ يا أميرتِي
سأراقبنَّكِ من فوق هذي السمواتِ
فيمَ يفيدُ الدمعُ يا صويحبتِي
وفي حبِّ المحبوب كان مماتِي
احفظي حبنا هذي وصيتِي
فالحبُّ حبيبتي أغلى معطياتِي
فحبُّنا سيحيى بين الورى متألِّقاً
وسأظلُّ أحبُّك ولو بعد مماتِي
فيا زمرةَ العشاق لا تتأوهوا
فالحبُّ مرهونٌ بأقسى المعاناةِ
فرحمةُ الله على شاعرٍ عاشقٍ
ماتَ سقيماً بالأدواءِ العجيباتِ

وعند هذا البيت سالتْ دموع مصطفى وعبد الرحمن ؛ تأثراً بجو القصيدة ، وتأثراً بكلماتها ، وتأثراً بحالة المسكين أدهم الذي انهار بكاءاً عند انتهائه من قصيدته التي أبكتْ قلوب صديقيه ، فيا تُرَى ما وقعها على حبيبته التي هجرته ؟!

هل ستتأثرُ بها كما تأثر بها أدهم ؟ أمْ أنَّه بالنسبة لها ماضٍ

وانتهى ؟ هذا ما يودُّ أدهم بشدةٍ معرفته .
ساد الصمتُّ قليلاً حيث الجميع يجفف دموعه ، ويحاولون التخلص من جو الحزن الذي يملأ المكان ويغمر كل مَنْ فيه ، وهنا قال عبد الرحمن وهو يختلق ابتسامةً تصارع الظهور والبقاء على شفتيه :
- اللهَ يا أدهم ! ما أرْوعَك ! ما هذا الجمال يا رجل ! صدقاً قصيدةٌ جميلةٌ ، عميقةٌ كلماتها ، ساحرٌ شعورها ، صادقٌ شاعرها .. أحسنتْ .
ابتسم أدهم وهو يجفِّفُ دموعه وقال :
- متشكِّر يا عبده دا من ذوقك ، رغم إني معرفش حاجة في العروض ، والقصيدة محتاجة كتير بس شكراً خالص .
ثم اعتدل ناحية مصطفى وقال له :
- هي دي القصيدة اللي عاوزك توصلها لشهد ، هي ورسالة تانية بس ضروري توصلها بسرعة ، وتأكد عليها تقرأ القصيدة الأول وبعدين تقرا الرسالة .. ماشي ؟!
أومأ مصطفى برأسه إيجاباً ، وقال وهو يبتسم :
- طيب وهنقابلها فين بقى ؟ أو هنوصلها إزاي ؟
قالها وكأنَّه يفكر في طريقةٍ ما حتى بادره أدهم قائلاً:
- مش عارف ، بس أكيد مش هتروحلها البيت يعني .. !
- أكيد يا أدهم ، بس أنا ممكن أقابلها في الجامعة ، أو وهي

مروحة من الجامعة وأندهلها واديهالها .
وهنا أومأ أدهم مبتسماً:
- صح ، وهي عارفاك وهتخدها منك .
كل هذا وعبد الرحمن لم يتفوَّه بكلمةٍ واحدةٍ ، فهو لا يعرفها ولم يرها سوى مرةٍ واحدةٍ ، وكانتْ عابرةً حين رأى أدهم معها ، لقد بدأ يستاء من الأمر، فكم من مرةٍ يجلس معهما هكذا لا يناله من جلوسه سوى الاستماع ولقد كره تقمص دور المستمع في معظم المشاهد ، لكنَّه لم يقلْ أو يظهرْ أيّاً من هذا نظرًا لحساسية الموقف الآن ، علاوةً على أنَّه ليس الوقت الملائم لإظهار شيء كهذا الآن ، كما أنَّهما لم يمنعاه بل لربما يجلسونه معهما ليشاركهم رأيه ويشاركهم الحديث ، فربَّما العيب عيبه هو، وقد قرَّر أن ْيأجلَ حتى التفكير في الأمر لوقت لاحقٍ .
وقطع تفكيره وشروده صوت مصطفى الذي قال :
- يلا بينا يا عبده ، يلا ننفذ المهمة .
اعتدل عبد الرحمن ناحية مصطفى وأومأ برأسه دونَ أن بتفوه ببنت كلمة ، ووقفا معاً وودعا أدهم ، ورحلا إلى حيث يذهبون .. وبينما هم في السيارة قال مصطفى:
- تعرف حاجة عن الجامعة أو الجامعات عامة ؟!
- نعم ، اتذكر ذلك الفتى محمد الذي تحدثتُ معه مسبقًا ، قد حدثني عن الجامعات لكنَّه لم يذكر عنها غير أنَّها إحدى مراحل

التعليم أو آخر مراحل التعليم .
- هو دا كل اللي تعرفه عن الجامعات ؟!
- نعم ، هذا كل ما أعرفه عنها .
- لا، الجامعات بقى شيء تاني خالص أو تقدر تقول جزء أو مرحلة تانية خالص .. مختلفة تماما عن كل مراحل التعليم .
وهنا بدأتْ الدهشة تبدو على وجه عبد الرحمن الذي بدأ يسمع بإنصاتٍ ، وابتسم على استحياءٍ بعد أنْ التفَّ نحو مصطفى الذي استطرد :
- هحكيلك عنها لحد ما نوصل ، وهحاول أدخلك تشوف الدنيا بعينك جوة عاملة إزاي .
أومأ عبد الرحمن ، وقال والابتسامة تعلو وجهه :
- حسناً صديقي ، قلْ ما عندك وكلِّي آذانٌ صاغيةٌ .
ابتسم مصطفى والتف ناحية عبد الرحمن وأخذ يحكي عن الجامعة لعبد الرحمن ، وأنَّها مقسمة إلى كليات ، وأن كل كلية مقسمة إلى أقسام ، وأن عدد سنوات الدراسة في أغلب الكليات أربع سنوات باستثناء بعض الكليات عدد سنوات الدراسة بها خمس سنوات ، وأما كلية الطب فعدد سنينها سبع سنين ، وأخذ يخبره عن الكثير فردَّ عبد الرحمن متسائلاً :
- ما هذا يا مصطفى !! أهذا هو الفارق بين الجامعة والمدرسة ؟! فقط أن المدرسة سنونها موحدة ، أما هذه فعدد السنين يكون

تبعًا للكلية التي ستدرس بها ؟! أهذا كل شيء ؟!
فردَّ مصطفى بعدما أدرك أنَّه لم يشرح ، أو لم يعطِ المعلومات الكافية التي تعكس مفهوم الجامعة او وجه الاختلاف بشكلٍ واضحٍ وكافٍ :
- لا ياً صديقي مش كدا .. حاجات كتير خالص ، دا طبعًا بالإضافة إلى انه هيدرس حاجة واحدة معينة ، مش هيدرس كل حاجة زي قبل كدا يعني وحاجات تانية كتير .
- مثل ماذا ؟ هلَّا أخبرتني ولو على بعضٍ منها .
تلعثم مصطفى قليلاً ونظر إلى الأرض ، ومن ثمَّ نظر إلى عبد الرحمن نظرةً تدل على أنه يفكر في أمر ما ، وساد الصمت للحظات ، ومن ثم أخذ نفساً عميقًا ثم زفر وقال :
-ماشي ، هقولك على كل حاجة وهعرفك على كل اللي أنت عاوزه ، بس هنأجلها شوية لحد ما نوصل الجامعة وهناك هحاول أدخلك ، ومن أرض الواقع هيبقى الموضوع أسهل في الشرح وفي الفهم ، أما لو كملتلك زي ما قولتلك من شوية مش هتفهم اللي هقوله ، أو النقط اللي أنا عاوز أقولها غير حد درس في المدارس بتاعتنا ، فخليها لما نوصل أحسن .
أومأ عبد الرحمن برأسه ، ثمَّ قال :
- حسناً إذنْ لننتظرَ حتى وصولِنا .
ثم ابتسم ابتسامةً طفيفةً واعتدل في جلستِه ونظر إلى الأمام في

انتظار ما تخبئه له الدقائق القادمة .

الفصل الثالث عشر

في اليوم التالي جلس الطلاب في انتظار حصة اللغة العربية التي سيحيها الاستاذ علي ، فبعدما كان الطلاب يكرهون تلك الحصة ويكرهون ذلك المعلم أصبحوا الآن يحترقون شوقاً لمجيئها بل ولحضورها ، فالاستاذ علي يشرح الحصة بأسمى السبل وأجلها ، ويظهر لهم بأسمى صور الأخلاق والأخوة ، فحين دخل الاستاذ علي بابتسامته التي أصبحت معتادة ، لكن شحوب وجهه مازال موجودًا ولم يُزل ، قال :

- السلام عليكم ورحمة الله .

فرد الطلاب التحية بأحسن منها والابتسامة تعلو وجوههم وتزينها ، فاتسعت ابتسامة الاستاذ علي وأخذ يشرح الدرس ببراعة كما هي المرة السابقة ، ولكن اسلوبه يتطور مرةً بعد الأخرى ، وزادت بل وتزداد درجة اهتمامه بطلابه حتى صار أثناء شرحه للدرس يسير بين صفوف الطلاب ؛ ليراقب إذا ما كان قد شرد ذهن أحدهم ، وليتأكد أن جميع الطلاب أخذوا حقوقهم من الاهتمام والرعاية دون أن يغفل عن أحدهم فيشعر أنه ظلمهم .

مع مرور وقت الحصة والطلاب مستمتعون وكذلك معلمهم الذي أمسوا يعشقونه كأبٍّ ، وكأخٍّ أكبر، وها هو قد أنهى شرح الدرس وقام بمراجعة أهم النقاط والعناوين الرئيسية والفرعية به ، ومن ثم قال:

- فيه أي حاجة مش مفهومة في الدرس ، أو فيه أي حد فيه حاجة معينة مش مفهومة بالنسباله ، أو حد عنده أي سؤال ؟

فحرك الطلاب رؤوسهم يميناً ويساراً ، فاستطرد المعلم قائلاً:

- يعني كله فاهم ؟!

فصاح جميع الطلاب في صوتٍ واحدٍ :

- أيوة .

فابتسم المعلم وقال :

- طيب ، طلعوا كتاب التدريبات بسرعة .

أخذ الاستاذ علي يحل معهم اسئلة الكتاب المدرسي قاطبةً ، ومن ثم سألهم إن كان لأحد أي استفسارٍ أو تساؤل ، فنفى الطلاب وجود أي تساؤل لديهم وكان ذلك مع نهاية الحصة ، فانصرف الاستاذ علي راحلاً ، تاركاً في أذهان طلابه ذلك التساؤل الذي لم يجدوا له تفسيراً إلى الآن .

وفي آخر اليوم الدراسي تجمَّع طلاب الفصل مع بعضهم وأخذوا يتحدثون عن التغير الطارئ الذي طرأ على الاستاذ علي في الآونة الأخيرة ، ومن بينهم كان محمد ، وكان العديد من طلاب

الفصل ومعهم كان علاء يجلس ويتحدث معهم فيضحكون تارةً وكان ذلك أغلب جلستهم ، فجميعهم أو لنقل أغلبهم يتميزون بحسٍ فكاهيٍّ ، كما أن الأسلوب الشائع بين طلاب هذه الأيام هو السلوك الساخر في التعامل ، والأسلوب الساخر في الحديث عن كل شيء مهما كان هاماً ، لذا ساد الضحك جلستهم .

ولعلها حقاً إحدى ظواهر العصر؛ إذ أنَّهُ ما من حديثٍ دون أن يخلو من الاستهزاء، وهذا نوعًا ما شيءٌ من التقليدية ، لكن عندما يكون في شتى الأمور وفي جميع الأوقات والمناسبات وبأكثر الألفاظ بذائةً ، فالأمر يحتاج لوقفةٍ ومناقشةٍ ، لِمَ لم تظهر هذه الظاهرة بهذه الوقاحة والبشاعة قبلا ؟ لِمَ نرى الأطفال في الشوارع دون العاشرة يلفظون ما يستحي الكبار أن يلفظوا به ؟! لِمَ نرى الفتيات يقمن - في الشوارع - بما يستحي الرجال أن يفعلوه وأن يلفظوا به ؟! الأمرُ وصل لأقصى درجات البذائة وانحدار حادٍ على مستوى الصعيد الأخلاقي ، كلُّ ما في الأمر أنَّنا نحتاج لمراجعةِ أنفسنا ، كلُّنا مقصرون لا أحدَ فينا بريءٌ ، ولا أحدَ فينا شريفٌ ، والدليل أبصرْ فقط شوارعنا وستتأكد .

مرت أيامٌ ومحمد يجدُّ ويجتهد ؛ لأن الزمن باتتْ تلتهم الأيام بشراهةٍ والامتحانات تقترب حتى لم يتبقَ لها الكثير، والاستاذ علي يشرح ببراعة كالعادة وملتزمٌ بجدول المدرسة حتى ينهي منهج مادته مبكراً ، ومن ثم يراجعه مع طلابه ويترك لهم المجال

ليذاكروا ويراجعوا في بيوتهم حتى لا يكونوا مضغوطين في أيام الامتحانات ، وهكذا يفعل أو يحاول أن يفعلوا جميع المعلمين بجميع المدارس ليس فقط الاستاذ علي أو الاستاذ محمود أو هذه المدرسة فقط .

وفي يومٍ من هذه الأيام الأواخر كان يسير محمد وعلاء كالعادة في طريقهم إلى المنزل ، وأخذوا يتحدثون مع بعضهم البعض فقال علاء وقد مسه الضيق ، وتبدو على وجهه علامات الاستياء :

- محمد، أنا مخنوق وعاوز أفضفض معاك شوية ، وكمان آخد منك النصيحة .

محمد مبتسمًا :

- يا باشا من دواعي سروري إني أسمعك ، ولو عندي نصح فيسعدني إني أنصحك .

ابتسم علاء واستطرد :

- هه ماشي يا معلم ، بص أنا الفترة اللي فاتت دي مخنوق قوي من العيال زمايلنا دول .

- ليه كدا بس ؟! إيه اللي مضايقك منهم ؟!

- علشان الخبث اللي انتشر بشكل غريب اليومين دول ، تحس إن مبقاش فيه حد نيته صافية ومش عارف ليه ! كله فاكر إن الخبث واللؤم هيوصلهم للي هما عاوزينه ، وماشيين بمبدأ إنه ميتعبش

علشان يكون هو أحسن واحد ، لا دا هو يسحب اللي فوق وينزل مستواه فيبقى هو فوق لكن ميتعبش علشان يوصل ، لحد ما الواحد زهق ومش عارف أعمل إيه !

ردَّ محمد متفهماً ومدركاً ما يقصده وما يتحدث عنه علاء ؛ لأنَّه يتعرض لما يشكو منه علاء ، فكان رده وجيزاً ومختصراً لكنَّه شافٍ :

- طيب ما تسيبك منهم ، حاول ما تحتكش بيهم قدر المستطاع وكبر دماغك منهم .

- يا ابني أنا بالنسبة ليا كلهم تحت الجزمة ، بس أنت تشيلهم من دماغك همّا يحطوك من دماغهم ، والله قربت أقتنع دا لو مكنتش اقتنعت إن الحل الوحيد إن الواحد يبقى خبيث ، لئيم وكداب زييهم ، علشان تقدر تتعايش معاهم ، وكمان علشان تتفوق ، وشكلها هترسي على كدا .

محمد بعد أن قضب حاجبيه وشهق ، قال :

- لا يا علاء يا صديقي مش هو دا الحل ، انت كدا بتستسلم ليهم ، ولشيطانك ، وكمان بتحقق ليهم اللي همّا عاوزينه .

- امال ايه الحل ؟! يا صاحبي ملهاش حل غير إنك تبقى خبيث ولئيم زيهم علشان توصل ، وبصراحة دا أحسن وأسهل حل توصل بيه للي انت عاوزه .

قرر محمد أن ينهي الأمر ، فمن الواضح أن علاء يريد أن يتحول

إلى ذلك الشخص السيء ، فقال له :
- بص يا علاء أنا كنت اتخنقت من الموضوع دا قبلك ، بس عقلتها في دماغي وكمان استعنت بأبويا ؛ لأني أنا وأبويا زي اتنين أصحاب فبحكيله وبآخد رأيه في أي حاجة تقف معايا ، المهم اسمع اللي عندي .
ازدرد محمد لعابه ، ومن ثم أردف :
- وعلشان كدا لو السلوك دا حاجة حلوة مكنش الدين نهى عنه ، وبعدين أنت معروف باحترامك وأدبك وحب الخير للغير، هتغير مبادئك علشانهم تبقى ضعيف !! وأنا يا صديقي معرفش عنك الضعف .. كمان متفتكرش إن ربنا هيكرمك علشان اتبعت السلوك دا .. لا ، علشان كدا تلاقي الواحد فيهم يذاكر قد ما بيذاكر وربنا مش بيكرمه .
لا يا علاء غلط المرة دي يا صاحبي ، خليك زي ما أنت وفكك منهم خالص ، ذاكر وشد حيلك زي ما أنت وإن شاء الله ربنا هيكرمك .
صحب كلامه ابتسامةً عريضةً جعلتْ علاء يشعر بالارتياح ، كما اقتنع بصحةِ كلامِ محمد ، وأدرك أنَّ الشيطان هو من أغراه وأضلَّه عن الحق ، لكن الله سبحانه وتعالى قد سبب له صديقه الخيِّرَ محمداً ؛ ليعيده إلى الحق ويذكره بالصواب وبما هو صحيح وينهاه عن الضلال .

فقال علاء متفهماً وآسفاً عما قال وعما كان ينوي أنْ يفعلَ :
- عندك حق يا محمد والله كل كلامك مظبوط ، أنا ندمان وزعلان من نفسي إني بس فكرت مجرد تفكير إني أكون شخصية بالسوء دا ، الحمد لله إن ربنا سببك ليا .. بجد يا محمد شكراً جزيلاً يا صديقي .
- يا علاء إحنا اخوات عيب عليك متقلش كدا ، وبعدين هو الواحد ليه إيه عند صاحبه غير إنه ينصحه لما يحتاج لنصيحة ، ويرجعه للصواب لما يغلط .

تبادلا الابتسام وكان ذلك عند المكان حيث يفترقا ، وكلٌّ منهما يذهب إلى منزله ، وأوصى كلٌّ منهما الآخر أن يذاكر ويجد ؛ لأن موعد الامتحانات اقترب ، وانصرف كلٌّ منهما إلى منزله وكلاهما سعداء بما حدث ، فأحدهما كان على وشك الوقوع في الخطأ ، لكنه أحسن في اختيار أصدقائه فنصحه صديقه فتراجع عن خطأه قبل ارتكابه ، والآخر سعيدٌ أنه كان صديقاً جيداً وأرشد صديقه للصواب ولم يدعه يتمادى في الخطأ أو يقع فيه.

* * *

ركب إبراهيم سيارته بعد أن بدَّل ملابسه ، وانطلق نحو مديرية الأمن ، وبدأ القلق ينتابه بدرجة أكبر من ذي قبل ، فسيادة اللواء عطية السيد لم يكن بهذه الصرامة معه قبلاً ، لكنَّه

يعلم أنَّه لم يقمْ بأي شيء يدعوه للقلق ، لكنه رغم ذلك لم يكترث مطلقاً ، وظلَّ يفكر في خطته التي سيتفق عليها مع اللواء عطية السيد بعدما قد اكتشف لعبة الدرويش التي لعبها معهم في المرة السابقة ، و واأسفاه أنه اكتشفها مؤخراً بعدما نفذ الدرويش العملية ، إن الأمر يحتاج إلى مناقشة لن يجدي التفكير المشتت شيئًا ، عليه أن ينتظر حتى يصل إلى مكتب السيد اللواء ويعرف ماذا عنده حتى يفكر بصفاء ذهنٍ فيما هو آتٍ .

هذا ما دار في ذهن إبراهيم طوال رحلته القصيرة بسيارته من منزله حتى مديرية الأمن ، وقرَّر أنْ يوقفَ ذهنه عن التفكير حتى الوصول .

وصل إبراهيم إلى مديرية الأمن واتجه مباشرة صوب مكتب السيد اللواء ، وهناك بعد أن أدى التحية العسكرية ، قال:

- تمام يا فندم ، انا وصلت يا فندم أهو .

فردَّ اللواء عطية السيد وهو عابسُ الوجه وقضب حاجبيه :

- حمد الله على السلامة يا حضرة الظابط ، إيه الاخبار؟

- الحمد لله يا فندم ، أنا يا فندم عرفت الدرويش أو خمنت إزاي الدرويش قدر يهرب البضاعة ، وكنت لسة هتصل بحضرتك علشان أقولك ، وكمان نتفق أنا وحضرتك على خطة إن شاء الله بيها نقبض على الدرويش .

- إزاي بقى قدر يهرب البضاعة رغم إن انت وباقي الظباط راقبتوا

البيت والمخزن ، وكمان فتشتوا العربيات .
هنا ابتسم الضابط إبراهيم خيري وأخذ يقول:
- الدرويش يا فندم طلع شخص في منتهى الذكاء و... .

* * *

وصل مصطفى وعبد الرحمن إلى جامعة القاهرة ، حيث يأملا أن يجدا شهد ؛ ليعطياها الرسالة التي بعثها معهما أدهم ، وعند بوابة الجامعة أوقفهم الحارس قبيل دخول الجامعة وقال :
- لو سمحت يا استاذ انت وهو كارنيهاتكم .
نظر عبد الرحمن إلى مصطفى الذي ابتسم ؛ فلأنه تخرج من الجامعة منذ وقتٍ قصيرٍ أخرج بطاقته الجامعية (الكارنيه) الخاص به ، والخاص بأدهم وقال موجِّهاً حديثه لعبد الرحمن:
- فين كارنيهك يا أدهم .
قالها مصطفى وهو يعبث بجيبوبه ، متظاهرا بالبحث عنها ، وهنا تلعثم عبد الرحمن وقبل أن يتفوَّه ببنت كلمة ، قال مصطفى :
- إيه دا كارنيهك معايا أهو يلا بينا .
ثم أعطى البطاقات للحارس الذي نظر إليهما نظرةً سريعةً عابرةً ، وسمح لهما بالدخول ، وبعد أن سارا مسافةً ليست بكبيرةٍ للداخل ، اعتدل مصطفى ناحية عبد الرحمن وقال مبتسماً:
- أنا مش قولتلك هحاول أدخلك !! وأديني دخلتك .. تعالى بقى

نشوف شهد يا رب نلاقيها عند الكلية بتاعتها ، وبعدين بقى آخدك أفسحك في الجامعة شوية وأحكيلك على اللي أنت عاوزه ، بس يا رب نلاقيها .

وبينما هما يسيران في الجامعة وإذ بالفتيات يسرْن في كل اتجاه وفي كل مكان بشتى الصور، فمنهن من لبسهن فاضحٌ إلى حدٍ ما ، ومنهن من لبسهن ساترٌ جداً ، ومن بين ذلك وذاك ، وهناك فتيان يسيرون مع فتياتهم ويضحكون ويمزحون مع بعضهم كما لو أنَّهم لسن فتيات مع فتيان ، بلْ يقمن بكل تصرفات الفتيان دون حياء ، ويقلن أي لفظٍ مهما كانت درجة بذائته دون خجل ، علاوةٍ على أنَّ رداء الشباب والفتيات واحدٌ تقريباً عدا أنَّ رداءَ الفتيات ضيقٌ جداً جداً .. هكذا كان حال العديد من الفتيات ، نعم عدد ليس بقليلٍ منهن ، كل هذا ومصطفى وعبد الرحمن يسيران معاً وعبد الرحمن يسير مذهولًا بل ومذعورًا أيضاً مما يرى ، أيرى كل هذا في دار العلم ؟!

وبينما يسيران ومصطفى مبتسمٌ سعيدٌ يسترجع ذكريات أيام الجامعة ، تلك الأيام التي أحبها مصطفى ولطالما تمنى لو تعود ، فهنا صادق أدهم وهنا صادق العديد والعديد من الأصدقاء الذين لن ينساهم قلبُه أبدًا مهما فرَّقتْ بينهم مسافاتٌ وبلاد ومتاهات الحياة ومشغولياتها .

وبين العودة والتفكير في بئر ذكريات الماضي وبين ذهول

عبدالرحمن مما يرى في الحرم الجامعي ، ظهرتْ شهد على بعد مسافة ليستْ بكبيرةٍ مع اثنتين من صديقاتها ، ولكن رغم جمالها الفاتن إلَّا أنَّ الشحوبَ والشجنَ يشوبان صفاء وجهها الجميل والمضيء في كل حالاته ، فهنا قال مصطفى :

- عبده ، شهد ماشية هناك أهي مع صاحباتها .

- أين ؟!

وأخذ يلتفت يميناً ويساراً ، وقبل أن يتحدث مصطفى كان عبد الرحمن هو الأسبق حيث قال :

- حسناً رأيتها ، ها هي مع صديقتيها ، ماذا سنفعل الآن ؟

ساد الصمت لبرهة ومصطفى يفكر ، وشهد تسير مع صديقتيها وعلى وشك أن يغربن عن ناظريهما ، وهنا قال مصطفى:

- تعالى إحنا هنروحلها ونديها الرسالة ونمشي .

ردَّ عبد الرحمن بسرعةٍ مستنكراً مما قال مصطفى :

- لا يا رجل ! كيف ما تقول ؟! هكذا ستضعها وتضعنا في موقف شبهة ، ولا أحد – خاصة النساء – يحب أن يكون للتهمة موضعاً ، إليك ما يجب أن يحدث .. هي تعرفك لذا اذهب إليها وحدك وسأنتظرك في مكانٍ ليس ببعيدٍ عنك ، فتنادي عليها من بين صديقتيها وتعطيها ما معك ، وتخبرها ما أوصاك به أدهم ، هكذا سيكون أفضل للجميع .

أومأ مصطفى برأسه متَّفقاً مع عبد الرحمن فيما قال ، ومؤيدًا

رأيه قائلاً :
- عندك حق يا عبده ، بس تعالى معايا .
- لا ، هي لا تعرفني وأخشى أن تسيئ الفهم أنَّ أدهمَ أو أنت قد فضحتما أمرها أو أيَّ شيءٍ من هذا القبيل ، لذا اذهب أنت وسأنتظرك هنا .
أوما مصطفى برأسه إيجاباً ، وانطلق مسرعاً نحوها وكُنَّ يسرْنَ أمامه ، فنادها مصطفى وقال :
- أحم .. أحم .
فالتفتن للوراء وهنا نادى عليها وقال :
- لو سمحتي يا شهد ، ممكن لحظة واحدة بعد إذنك .
فالتفتن جميعا إلى بعضهن البعض ، وهنا أومأت شهد برأسها وذهبت معه بعيدًا عن صديقتيها قليلاً ، وهنا قالتْ على استحياءٍ:
- نعم يا مصطفى ، اتفضل .
قالتها وكان الوهن قد مسها بل نال منها ، وشحوب وجهها الذي يسهل ملاحظته ؛ نظراً لبراءة خلقتها ، ووجهها البرَّاق ، فحزن مصطفى مما أصابها هي وأدهم ، وحزن أكثر لَمَّا رآها لكنَّه تمالكَ نفسَه ، وقال بعد أنْ تلعثمَ قليلاً :
- أدهم .. .
وهنا ارتفعتْ عينا شهد بعدما كانت تنظر للأرض ، وكادتْ أن تترقرق بالدموع ولاحظ ذلك مصطفى ، لكنَّه آثر أن يتصرف

كما لو أنه لم يلاحظ ، وكادتْ الكلمات أن تخرج من فم شهد رُغْمَاً عن إرادتها لتسألَ عن أدهم .. كيف هو وكيف حاله ؟ لكنَّ حيائها منعها من ذلك ، فآثرت أن تصمت وتتمالك نفسها إلى أقصى الدرجات ، وتتقمص دور المستمعة إلى أن ينتهي مصطفى من حديثه ، وهنا استطرد مصطفى :

- أدهم باعتلك الجواب دا .

فقالت بتعجبٍ مَشُوْباً بالاستنكار :

- جواب !

- أيوة ، لحظة واحدة .

وأخرج من جيبه ظرفًا كبيراً به بعض الورقات المطويات في جانب ، وورقة واحدة مطوية في الجانب الآخر، وأعطاها إياه وقال لها :

- وأدهم بيقولك اقرأي الرسالة الكبيرة في الأول ، اللي همَّا شوية الورق وبعدين اقرأي الورقة اللي لوحدها .

فمدتْ يدها وهي ترتعش لتلتقطَ الجواب من يد مصطفى وهي تريد أن تمنع نفسها ، لكن يديها أبتْ وأخذت الجواب من مصطفى ، وأومأتْ برأسها بابتسامةٍ طفيفةٍ على استحياءٍ ، وهنا بادلها مصطفى بابتسامةٍ طفيفةٍ أيضاً وقال :

- تمام ، أستأذن أنا يا شهد ، وأعتذر لو عطلتك أو أي حاجة ، السلام عليكم .

انصرف مصطفى تاركاً ورائه شهد التي أخذت تنظر إلى ذلك

الجواب وتذكرتْ أدهم ، وهنا سالت دموعها الساخنة على وجنتيها خفيةً ، وعندما سمعت نداء صديقتيها من خلفها جففتْ دموعها بسرعة واستجابتْ لندائهما ، ووضعتْ ذلك الجواب في حقيبة يدها وعادتْ إليهم وسرْنَ معاً إلى حيث كُنَّ ذاهبات ، وعاد مصطفى إلى عبد الرحمن مبتسماً أن الأمر تم كما خُطط له دون أي عقبات أو مشاكل أو ما شابه ، وصافح مصطفى عبد الرحمن وحيَّاه على حسن تفكيره .
الآن مصطفى سيُري عبد الرحمن ما أراد أن يريه إياه ويُعرِّفه ما يريد أن يعلمه ، فكان مصطفى على وشك بدأ التحدث بالأمر عندما نظر حوله فرأى شبابًا يجلسون ويتحدثون فيما بينهم ، فجال بخاطره أن يجلس معهم هو وعبد الرحمن ويترك لهم الحديث علَّه يصل أسرع لعبد الرحمن ، وأيضاً كي لا يفوته شيءٌ ، فقال مصطفى:
- عبده ، بقولك تعالى نقعد مع الشباب دول وأهو تبقى في احتكاك مباشر مع الشباب الجامعي ، ونسأل اللي إحنا عاوزينه ، إيه رأيك ؟
نظر عبد الرحمن إلى مجموعة الشباب الذين أشار إليهم مصطفى ، فوجدهم ثلاثة فتيان وفتاتين فقال لمصطفى :
- لكن معهم فتاتين يا رجل ، فأنَّى لنا أن نحدثهم ونسألهم !!
- يا صاحبي دي مصلحة ، علشان تعرف رأي كل الأطراف وتشوف

إحنا وصلنا لإيه ، وبعدين عادي على فكرة دلوقتي موضوع قعاد البنات مع الولاد دا .
- ماذا ؟! أي شيء ذلك الذي تقول ، لا تجمع المرأة والرجل إلا علاقتين الزواج أو العمل وفقط .
- طيب ، تعالى نقعد معاهم ونشوف الصورة عن قرب .
- حسناً ، هيا بنا .
قالها عبد الرحمن وهو غير راضٍ عما قال ، أما مصطفى فقد سار نحوهم وطلب إذناً بالجلوس مع الشباب والتحدث معهم ، فأذنوا له فجلس الأخير هو وعبدالرحمن ، وأخذوا يتحدثون فكان البادئ مصطفى وقال بعد أن حيَّاهم :
- أنتم في كليات إيه ؟!
فرد شابٌّ طويلُ القامة ، داكنُ البشرة إلى حدٍ ما ، قصيرُ الشعر أنعمَه ، يطلُّ من وجهه حزم عينيه السوداوين ، وقال :
- إحنا كلنا كلية تربية ، ماعدا سمير كلية تجارة .
وأشار إلى شابٍّ متوسطِ الطول ، أبيضَ البشرة ، فنظر إليه مصطفى وتبادلا الابتسام ، وقال مصطفى:
- إيه رأيكم في الكلية بتاعتكم ؟!
فتولَّت الرد هذه المرة إحدى الفتاتين ، وقالتْ :
- كلية زفت طبعاً .
- ليه كدا ؟!

وقبل أنْ تتحدثَ تولتْ الحديث الفتاة الاخرى ، والتي كانت متوسطةَ الطول ، جميلةَ الخِلْقَةِ ، سوداءَ العينين ، وطريقة حديثها أكثر تهذبًا من الاخرى ، كما يبدو على ملامحها الأدب والحياء وقالتْ :

- هي مش زفت يعني وحشة للدرجة دي ، بص أنا داخلة الكلية دي بإرادتي ، بس ... هي الكلية رسالتها حلوة بس فيه مقولة بتقول (سوء التطبيق لا يعني فشل النظرية) ، هي رسالة الكلية هادفة بس إحنا بننفذها بشكل خاطئ لدرجة إننا قربنا ننسى الرسالة دي ، علشان كدا كل اللي بيدخلها بيبقى كارهها ، وقيس على دا أغلب الكليات إلا من رحم ربي ، علشان كدا كل ما هتسأل حد عن رأيه في كليته هيكون دا رده ، كمان متنساش (رضا الناس غاية لا تدرك) ، يعني مستحيل تلاقي كله راضي عن وضعه مهما حصل .

وهنا ابتسم الجميع ، خاصةً عبد الرحمن الذي نالتْ كلماتُ هذه الفتاة إعجابه ، وقال :

- أحسنتِ أيتها الشابة ، ما أروع كلماتكِ ! وما أصدقها ! أحسنتِ حقاً وأبدعتِي حديثًا .

هنا غمر الخجل وجه الفتاة التي ابتسمت على استحياء ، وهنا صاحتْ زميلتها وقالتْ :

- الله عليكي يا نور وعلى كلامك الجامد .

وهنا زاد احمرار وجهها من شدة الخجل ، وقال مصطفى :
- إيه رأيكم في الحياة الجامعية يا شباب ، والطالب الجامعي في المرحلة الجامعية والمرحلة اللي قبلها ؟!
وهنا تولى الشباب الرد بالترتيب كما فعلوا منذ بدأتْ المحادثة ، فقال ذلك الشاب الطويل داكن البشرة :
- الجامعة أحسن كتير من المدرسة ، هنا واخد حريتك أكتر وبتعمل اللي أنت عاوزه ، بعكس المدرسة كنت مقيد بحاجات كتيرة وفي أمور كتيرة .
ازدرد لعابه ثم أردف :
- أما بالنسبة لينا بقى كطلبة بصراحة أيام المدارس كنا منتجين أكتر ، رغم إننا لمّا روحنا الكلية عقلنا كبر بس إنتاج أقل .
ابتسم مصطفى في وجه ذلك الشاب ومن ثم اعتدل ناحية سمير وقال :
- وأنت يا سمير ، إيه رأيك ؟!
ابتسم سمير وقال:
- الجامعة أصعب بكتير من المدارس ، بس دا طبيعي ؛ لأن كل مرحلة أصعب من اللي قبلها أكيد ، أما بالنسبة ليا كطالب فالجامعة أكثر ترفيهًا من المدرسة .. مفيهاش التزمات زي بتاعت المدرسة ، إنما مش مطلقة فيها التزامات بس من نوع تاني ، التزامات تليق بشاب في العشرينات من عمره ، راجل كبير، واعي

مش عيل صغير ميوعاش لحاجة ، بس دي وجهة نظري .
أومأ مصطفى برأسه مبتسماً في وجه الشاب الذي أبدع بحديثه ، واتجه نحو الشاب الثالث الذي رفض التحدث معللاً رفضه أنَّه رأيه مشابه إن لم يكن مطابقًا لرأي صديقه سمير، وكل ذلك وعبد الرحمن يصغي وابتسامته العذبة لم تفارقْ شفتيه ، وهنا حان دور الفتاة التي تجاور نور وقالت :
-والله أنا بالنسبالي ليها عيوب وليها مميزات ، يعني أنت هنا واخد راحتك آه ، معلكش رقيب غير ربنا ودي برضو ليها عيوب ، فهنا لا حد بينصحك نصائح أخوية من الدكاترة زي المدرسين اللي كانوا قريبين مننا زي أخواتنا بعكس الدكاترة ، حتى الكلام معاهم من بعيد ، ولو مشيت في سكة مش تمام مش هتلاقي اللي يرجعك منها إلا لو كان صاحب جدع ، علشان كدا الموضوع مش حلو قوي يعني ، أما كطالبة فالكلية أصعب طبعاً ومذاكرتها أكتر ، بس برضو مفيهاش الضغط العصبي اللي كان علينا أيام ثانوي .
ابتسم مصطفى في وجه تلك الفتاة احترامًا لرأيها واعتدل ناحية الفتاة الأخيرة نور، ومن دون أنْ يقولَ أي شيء بمجرد أن اعتدل نحوها ، وعبدالرحمن ينتظر سماع رأي تلك الفتاة جميلة الخلقة والخُلق واللسان ، أخذت تتحدث وقالت :
- طيب أنا كلامي هيكون نفس الكلام اللي فات تقريباً ، بس أنا هقوله بطريقة تانية لأني شايفة فيه كلام مش صحيح أو نظرتنا

ناحية الكلام مش صحيحة .
أخذتْ نفساً عميقاً ، ثم زفرتْ واستطردتْ :
- بين الجامعة والمدرسة اختلافات كتير لكنها ظاهرية ، وانا هحاول أختصرلك رأيي في الموضوع دا .
ازدردت نور لعابها ، وأردفتْ :
- طبعاً في الكلية الأمور مختلفة عن المدارس إلى حد كبير، فهنا في الكلية ليك تخصص معين مش بتدرس عامة زي المدرسة ، الكلية من حيث الدراسة أصعب من أيام المدارس ، و دا طبيعي زي ما كل زمايلي قالوا ونفس المبرر اللي قالوه ، بالإضافة إلى إنك بتدرس بتوسع وتعمق في التخصص اللي أنت اخترته ، وليه بقى الضغط العصبي أقل ؛ لأنك مش مطالب تجيب ٩٩ في المية او مية في المية ، أنت مرادك تجيب نسبة أقل ، لكن طبعا اللي عاوز يتفوق بيبقى مضغوط بس أكيد مش زي المرحلة الثانوية ، أما بقى بالنسبة للطلبة كسلوك ... .
تنهدتْ قليلاً ، ثم أكملتْ :
-بص حوليك وأنت تعرف ، الشباب شوف بيعاكسو البنات إزاي ! وكمان لبس البنات بقى حاجة تكسف ، كمان فيها تحرر للشباب لكننا بنفهم التحرر دا غلط ، وأغلب الشباب والبنات مستواهم الأخلاقي بيتدهور إلا من رحم ربي ، فهي نعمة ونقمة زي ما قالت حبيبة قلبي .

وأشارت إلى الفتاة الاخرى واستطردت :
- لكن طبعاً هنا فيه فرصة للي عنده موهبة وعاوز ينميها فهيلاقي الفرصة تسمح لكدا وبزيادة ، بس دا رأيي باختصار وأتمنى أكون أضفت جديد .

ابتسم لها مصطفى وكذلك عبد الرحمن رضاً عن حلاوة حديثها ، فطريقة تحدثها رائعة جداً ومقنعة ، علاوةً على ذلك فهي تعيب ما هو عيبًا بصدق ولا تأتي بما تنهى عنه ، فإن أعابت على بعض الفتيات لبسهن فملبسها جمع بين روعة المظهر وفي الوقت ذاته ساترٌ ، غير فاضحٍ ، فإن كانت كل الفتيات مثلها فحبذا الفتيات !

استأذن مصطفى وعبد الرحمن ليرحلا وذهبا معاً ، وبينما هما يسيران أخذا يتحدثان عما حدث أثناء جلوسهما مع هؤلاء الشباب ، وهنا قال مصطفى:

- إيه يا عم عبده ، عرفت اللي عاوز تعرفه ولا إيه ؟!

ابتسم عبد الرحمن ، ثم نظر إلى أعلى وقال :

- رغم أني سعيدٌ بكلمات هؤلاء الشباب ، وسعيدٌ بمعرفة ما أردت معرفته ، إلَّا أنِّي حزينٌ لحال هؤلاء الشباب وما آلت إليه الأمور وصولاً لهذا الوضع المخزي .

ابتسم مصطفى ابتسامةً حزينةً ، ومن ثم قال :

- والله يا صديقي كلنا زعلانين على الوضع الراهن دا ومش راضيين عنه لكن ... .

- لكن ماذا ؟!

- لكن محدش متحرك ولا حد مغير أي حاجة ، ولا أي حد واخد خطوة قدام لكنه كله مكتفي إنه يقول (المفروض) ، وكله بيعلق أخطائه على الشماعة بتاعتنا اللي هي كلمة (لو) ، وبيرمي الحمل والخطأ على التاني.

قالها مصطفى وكله أسفٌ ، وهنا قال عبد الرحمن وفي لهجته نبرةُ الحزن أيضاً :

- الله المستعان يا صديقي ، لكن يجب أن يعلموا أنَّ الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم .

- فعلاً والله كلامك صحيح ، وأهو .. الله المستعان على كل حال .

سارا مع بعضهما قليلاً وساد الصمت بينهما ، حتى قطع هذا الصمت مصطفى وقال:

- مش عاوز تشوف أي حاجة في الجامعة ، ولا عاوز تلف هنا شوية ؟!

فابتسم عبد الرحمن والتف تجاه مصطفى وقال:

- لا ، ماذا يمكن أنْ نفعلَ هنا ؟! ولسنا طلابًا هنا ، هيا بنا لنذهب .

- ماشي يا عبده هنمشي ، يلا بينا نروح على الواد أدهم نبلغه إننا وصلنا رسالته زي ما هو عاوز ، ونقضي بقى اليوم مع بعض .. بقلنا كتير مقعدناش مع بعض يا جدع .

انشرح صدر عبد الرحمن وابتسمتْ معالمه حين سمع هذه الكلمات ، وقال :

- حسناً إذن ، أنت محقٌّ تماماً .. كم اشتقت لهذا الرجل ! وكم أشتاق إلى جلسته ، وخفة ظله !

- آه ، أهي الأيام الحلوة هترجع تاني إن شاء الله ، وأولها الليلة يا معلم .

* * *

يقف الآن أدهم في حجرته قلقاً ، متوتراً ، يروح ويجيئ في الغرفة ، وأخيراً قرر أن يهاتف مصطفى وعبد الرحمن ليطمئن ، وأخرج هاتفه من جيبه واتصل بمصطفى وقال :

- أيوة يا مصطفى ، عملتو إيه طمني يا درش ؟!

وهنا أطلق مصطفى ضحكةً ليستْ بالصاخبة وقال :

- اممم شوف يا عم عبده مش قادر يستحمل لغاية ما نروح نقوله بنفسنا ، وهنا ضحك عبد الرحمن هو الآخر ، فبدت علامات الغضب في صوت أدهم الذي صاح :

- اخلص يا مصطفى .. عملت إيه ؟!

- خلاص يا عم بالراحة ، الرسالة .. الرسالة وصلت زي ما خططنا .

- أيوة كدا يا درش ما تنطق علطول ، أنت إيه بتختبر صبري .

- المهم بقولك عاوزين نقعد مع بعض النهاردة ، قولت إيه ؟!

- حبيبي يا درش ، كنت لسة هقولك دا أنت وعبده واحشيني جداً ، وواحشتني قعدتكم يا ولاد الذين .
- اشطة جايين يا غالي مسافة الطريق .
- اشطة مستنيكم ، سلام .

وبالفعل التقى أدهم بمصطفى وعبد الرحمن ، وقضوا يوماً كالأيام الخوالي ، عوَّض أدهم نفسه عن كل لحظات الحزن التي عاشها ، وأخذوا يضحكون ويمرحون ، وتحدثوا في شتى الموضوعات ، وتسلُّوا واستمتعوا كثيراً بوقتهم دون إزعاج أو حزن .

الفصل الرابع عشر

- هه ماشي ، اسمع يا سيدي .
قالها الدرويش ثم صمت قليلاً ، ومن ثم استطرد :
- الخطة كانت كالتالي إني هطلع من الباب الرئيسي بست عربيات زي ما أنت شوفت ، ونطلع تلات عربيات من الباب السري اللي ورا ، ونيجي بعد شوية كدا عند تقسيمة الطريق دي وكل عربية تاخد طريق غير التانية ، ودا كان اول فخ وأول طعم رميتهولكم .
- طُعم ! إزاي ؟!
- أيوة طعم ، وانتو اكلتوه ووقعتم في الفخ بكل سهولة ، فاكرين إنكم أذكياء وبتلقتوها وهي طايرة ، وبصراحة كنت بتمنى إنكم تقعوا في الفخ ، بس متوقعتش إنكم تاكلوا الطُعم كدا بكل سهولة ، مع إن خطتي كانت إنكم مش هتمسكوا العربيات تفتشوها عند مفترق الطرق دا ، وإنكم هتكملوا وراها .
وهنا استشاط الضابط حسن مهران غضباً من كلمات الدرويش التي يغمرها الغرور ، وقال وهو يحاول أن يكتم غضبه :
- إزاي يعني !! ما هو إحنا لو سبناك كنت هتشتتنا وبكدا ممكن

تفلت بالبضاعة مننا .
وهنا أردف الدرويش في غرورٍ وكبرياءٍ ، والفخر يسود حديثه :
- أنا خطتتي أساساً كانت معتمدة على إنكم هتتشتتوا وهتمشوا ورا العربيات ، وهنا كانت الخطة الرئيسية أو الجزء الرئيسي في الخطة ، وهو عملية تضليلكم ، لكنم معملتوش كدا ووفرتوا علينا الجزء الصعب في الخطة ، فاللي حصل إنكم بعد ما فتشتوا كويس وملقتوش أي حاجة ، أخدت عربيتين من الستة اللي كانوا معايا وعربية من التلاتة اللي طلعوا من الباب التاني وروحنا على مكان البضاعة .
وهنا قاطعه حسن قائلاً وقد أذهله ما سمع :
- مكان البضاعة ! انت مش البضاعة عندك في البيت ؟!
- أيوة عندي في المخزن اللي في البيت ، بس البضاعة اللي في البيت متجيش عشرة في المية من مجمل الطلبية الأخيرة .. ما هو انا نسيت أقولك ، أنا الطلبية الأخيرة نزلتها في مخبأ سري برة ومحدش يعرفه غيري ، المهم أخدت العربيات وروحت على المكان دا وأخدت البضاعة وروحت سلمتها بكل سهولة ، وأنتو سهلتوا علينا المأمورية دي .
ساد الصمتُّ قليلاً وما زالتْ المكالمة مستمرة والهاتف لم يغلق ، وهنا قال الضباط حسن وكله إعجابٌ بذكاء الدرويش ، وفي الوقت ذاته كله ضيقٌ ، وحسرةٌ ، واستياءٌ من سذاجته ،

وتصرفه البعيد كل البعد عن الحكمة ، هنا قال الأخير:
- عظيم ، خطة ذكية جداً أحسنت يا درويش ، ودلوقتي إيه اللي هيحصل بقى ؟!
وهنا ضحك الدرويش قبل أن يقول:
- ولا أي حاجة إحنا قدمنا الشكاوي ، وبعد يوم كدا أو يومين هنّفذ العملية التانية ، أنا كلمتهم وهستلم البضاعة النهاردة بالليل ، و ممكن بكرة أو بعده هسلم انا بقى البضاعة للناس ، بس هو دا كل اللي هيحصل زي ما أنت خططت له .
- تمام ماشي ، بس ابقى بلغني باللي هيحصل ، ولو فيه أي جديد ابقى قولي متعملش زي المرة اللي فاتت .
-ماشي متقلقش .
انتهت المكالمة بينهما وكلٌّ منهم شاردٌ في تفكيره ، فالضابط حسن يفكر ويحاول التخلص من غضبه واستيائه مما حدث ؛ ليستطيع إكمال العمل مع الدرويش فيما هو آتٍ ، بينما الدرويش أخذ يحدث نفسه ويقول :
- كان فاكر نفسه هو الوحيد اللي بيفكر ، وإنه هو العبقري دايماً في كل المواقف ، كان لازم يعرف إنه مش الوحيد اللي بيفكر ، وإنه لولا مركزه فهو بني آدم غبي ، وكدا كله تمام .. يا رب بقى العملية اللي جاية تكمل إن شاء الله على خير زي العملية اللي فاتت .

* * *

مال الضابط إبراهيم خيري إلى الوراء ، وأسند ظهره إلى الكرسي الذي يجلس عليه ، وقال في ثقة :

- هي دي الطريقة الوحيدة اللي ممكن الدرويش يقدر يهرب بيها البضاعة ، بس للأسف عرفناها متأخر .

-منتهى الذكاء ، خطة في منتهى الذكاء من الدرويش .

ثم ازدرد لعابه ، وتنهَّد قليلاً ثم أردف:

-ومنتهى السذاجة منكم يا حضرة الظابط .

طأطأ إبراهيم رأسه خجلاً ، وساد الصمت بينهما لبرهة قبل أن يقول:

- دلوقتي يا فندم أنا عندي إحساس إن الدرويش بيخطط لحاجة الأيام اللي جاية .

وهنا ابتسم اللواء عطية السيد ، وأسند ظهره إلى الوراء وأشبك أصابعه أمام صدره وقال :

- أنت عارف إيه اللي حصل من إمبارح لحد النهاردة ؟!

- لا يا فندم، إيه اللي حصل ؟!

وهنا ابتسم السيد اللواء عطية السيد ، وقال :

- الدرويش قدم شكاوي ضد الحكومة ، إنهم بيشوهوا صورته وسمعته ، وكمان قدم شكاوي ضد كل الظباط اللي شاركوا في

العملية ، وقدم فيك أنت لوحدك شكاوي كتير ، وفيه أوامر صدرت ضدك بتحويلك للحقيق وإنك مش هتطلع في مأموريات تاني لحين الإنتهاء من دوشة الدرويش ، والتحقيق في الشكاوي اللي مقدمها دي .

صُعق إبراهيم لدى سماعه كلمات السيد اللواء ، وأخذ يتساءل في نفسه أهذا حقاً ما حدث ؟! وصمت الضابط إبراهيم ولم يتفوه ببنت كلمة ، حتى قال اللواء عطية السيد :

- متزعلش يا إبراهيم يا ابني ، أنت راجل مجتهد وبتأدي عملك على اكمل وجه ، وربنا شايف تعبك واجتهادك ، وأكيد ربنا مش هيضيع تعبك دا على الفاضي .

وأخذا يتحدثان معاً لفترة ليست بالقصيرة ، حتى خرج الضابط إبراهيم خيري من مكتب اللواء عطية السيد ليس راضياً تماماً وليس مستاءاً جداً ، فلقد كانت طبيعة إبراهيم انه بشوشٌ ، متفائلٌ ، يرى الضوء في كل ظلمةٍ ، ويرى الحل في كل عقدةٍ ، ويرى الفرصة في كل صعوبةٍ ، وهكذا هم الناجحون لا يعرفون لليأس معنى ، لا يكلُّون ولا يملُّون ، فهم يدركون جيداً أن التعب والاجتهاد مفتاح كل شيء ، وأن الله ما كان ليضيع تعبهم أبداً ، ويدركون أيضاً أنه طالما بدأت في عملٍ فعليك بإنهائه ، فلكم تخاذل امرؤٌ وكان بينه وبين النجاح أقل من خطوة .

كان إبراهيم أحد هؤلاء الذين يعملون ويؤمنون بهذه المبادئ

، فلقد كان ناجحاً طيلةَ عمره وهذه هي الدنيا لا تُأخذ إلا غلابا ، نعم لا تأخذ الدنيا إلا بالتعب ، والاجتهاد ، والمثابرة ، فلو أن كل امرئ استسلم عند اول عقبةٍ تواجهه ، ما كنا لنشهد أيّاً من التقدم الذي يحيط بنا من كل جانب ، وما كان اديسون ليخترع المصباح بعد العدد الضخم لمحاولاته الفاشلة ، ولكن انظر وعِ نظرة المتفائل بل والناجح ، فحين سئل اديسون عن تجربته قال :

- «صحيحٌ أنِّي فشلتُ تسعة وتسعين مرة ، ونجحتُ مرةً واحدةً وهي المائة في اختراع المصباح ، ولكنَّني تعلمت تسعة وتسعين طريقة لعدم اختراع المصباح «

فكل تجربةٍ كانت تضيف إليه .. هكذا هي الحياة ، مجموعة تجارب تضيف إلينا ما يسمى الخبرات ، وعلينا ان نستفيد بكل لحظة من حياتنا ومن كل تجربة تمرُّ علينا ، وعلينا أن نتعلم من أخطائنا وإلا سنظل دوماً نعاني ، وسنظل نخطئ ونخطئ ، ولن يعرف الصواب طريقنا ما دمنا لا نتعلم من أخطائنا وذلك هو الخسران العظيم ، هكذا يفكر الناجحون بل المتفائلون ، فالتفاؤل حتى في أصعب الظروف مع الكثير من العمل هو الوسيلة الأولى والفضلى للنجاح والتميُّز ، فيا حبذا لو نظرنا للنصف الممتلئ من الكوب .

* * *

عادتْ شهد إلى منزلها ، وطوال الطريق وهي تفكر وتخمن فيما تحمله الرسالة من كلمات ، حتى وصلت إلى غرفتها ، وحين دخلتها أغلقت بابها ودون أن تبدل ملابسها ، حتى أخذت تفتح ذلك الظرف كبير الحجم ، وقبيل التقاط الورقة المنفردة تذكَّرت قول مصطفى حين أوصاها بأن تقرأ مجموعة الورق أولاً ، ومن ثمَّ تقرأ الورقة المنفردة ، فتراجعتْ بسرعة وأخذتْ مجموعة الورق المندمجة معاً وإذ بها تجدها قصيدة شعرية تحت عنوان « كبرى معاناتي « فكادت أن تبكي ، فحين بدأت تقرأ إذ بعينيها ترقرقت بالدموع في البيت الأول ، ومن ثم أخذت تكمل والدموع تنهمر على وجنتيها ، وهي تقرأ وتقرأ حتى وصلت إلى هذه الأبيات :

فاليوم يموت محبٌّ عاشقٌ

أَنِسَ الحب مرةً فكانت آخر المراتِ

قد جئتك طالباً للداء دوائَه

فبخلت به وكانت آخر اللحظاتِ

صُعق الفمُّ والحروف حيارى

مات المحبُّ وكانت تلك حياتِي

فما إن قرأتْ هذه الأبيات حتى أجهشت بكاءاً ، وانهارت حتى كادت أن تفقد الوعي ، وإذ بها تكمل باقي القصيدة حتى تركتها لتغفو من كثرة البكاء والألم ، فراحت في سبات عميق ، لكنَّه لم يكن إلَّا هروباً من واقعٍ مريرٍ، لكنه لم يكن مريحاً ، فلقد

تجسدت لها صورة أدهم وهو يعاني كما تقول كلمات القصيدة ، لكنها لم تتحمل رؤية حبيبها بهذه الصورة كما صور نفسه في شعره ، فقامت تصرخ من شدة الفزع واستيقظت من غفوتها ، وتسارعت ضربات قلبها ، وتسارعت أنفاسها ، وظلت هكذا لبرهة حتى هدأت ، ثم التفتت للظرف فأخذت الورقة الاخرى والتي كانت كلماتها كالتالي :

« عزيزتي شهد ، أتمنى أن تكوني قد قرأتِ قصيدتي ، وأدركتِ جزءاً بسيطاً من معاناتي لفراقك ، فهذه القصيدة لم تصوِّر إلا جزءاً صغيراً من مأساتي ومعاناتي ، وما يدل ذلك إلا على حبي الشديد لكِ وإني آتٍ إليك لتداوي جرحي .. شهد إنِّي أحبك حبًا شديداً ، فهل تقبليني زوجا لكِ يا شهد ؟! وما دفعني على ذلك إلا شغفي بكِ ، وإني لأعدك أن أبذل قصارى جهدي لإسعادك ، فليتك تعلميني برأيك سواءاً أكنت قابلةً – وأتمنى ان تكوني كذلك – او كنتِ رافضةً – وأتمنى ألا تكوني – ، فأخبريني برأيك حالما تقررين .. سأنتظر اتصالكِ بي وليتكِ تسرعين ؛ لأنَّ قلبي لا يطيق صبرًا . «

أدهم العربي

أتمتْ شهد قراءة الرسالة وأجهشتْ في البكاء لدى القراءة ، مع أن دموع عينيها لم تجف على وجنتيها المحمرتين ، وأخذت تفكر

في كلمات الرسالة بعد أن قطعت شوطًا كبيرًا في البكاء ، لكنها الآن هادئة تفكر بحكمة ؛ لأنها ستتخذ قراراً يتحكم ويؤثر في حياتها ، أو بالأحرى فيما هو آتٍ من حياتها ، لذا فهي لا يجب أن تتسرع ولكن قلبها يقول لها بل يلح عليها إلحاحاً شديداً أن تقبل ، أما عقلها فيحدثها بأنَّه رجلٌ محترمٌ ، وعائلته عائلة ثرية ويُعرف عنهم الاحترام ، وهو مهندسٌ يعمل في واحدة من أكبر الشركات بمصر ، مما يعني أنَّه بارعٌ ومجتهدٌ في عمله ، كما أنه وسيمٌ ، شاعرٌ ولم تكن تدري ، ويحبها كثيراً وهي تحبه جداً ، فكيف لها أن ترفضه بل أنَّى لعاقلةٍ أن ترفضه ، فحدَّثت ونفسها وأخذت القرار النهائي بالموافقة .

هي الآنَ في حيرةٍ من أمرها ، فمكتوبٌ في الرسالة أن تهاتفه لتعلمه رأيها في أمر الزواج ، وهي تريد أن تفعل ولكن لا يمنعها إلا حياؤها ، ولكن ماذا عساها تفعل ؟! فلقد مرَّ الكثيرُ منذ آخر مرةٍ تحدثا معاً .

وفي المقابل كان أدهم يقف في حجرته منتظراً شهد أن تهاتفه ، ومن حينٍ لآخر يمسك بهاتفه ويوشك أن يهاتفها لكنه سرعان ما يتركه ، وينتظر اتصالها ، حتى لقد ملّ ذلك الأمر فأمسك الهاتف ليتصل بمصطفى ليتأكد أنَّه سلَّمها الرسالة ، فما كان من مصطفى إلا أنه ضحك وأخبره أنه سلم إياها لشهد ، فهمَّ أن يتصل بها ولكنه تردد مرةً أخرى وقال لنفسه ربما لم تقرأ الرسالة بعد ، وظل

كما هو منتظراً تلتهمه حرارة الشوق ، وأرق الانتظار .

* * *

انتهى اليوم الدراسي والجميع سعداء ، فالمناهج على وشك الانتهاء وجميع الطلاب سعداء نسبياً ، وحان الآن وقت الذهاب إلى المنزل ، وكان محمد وعلاء صديقه المودَّد وبعضٌ من زملائهم في الفصل يتمشون قاصدين منازلهم ، كانوا يتحدثون عن المدرسة والمناهج ، وما كان من محمدٍ وعلاء إلا أنهما كانا ينصحونهم ويرشدونهم للصواب ، ودائماً ما يقولا لزملائهم ألَّا يترددوا أبداً في طلب أي مساعدة منهما ، ويقولا أنهما لن يترددا أبداً في المساعدة ما دام في استطاعتهما المساعدة .

ها هم الآن على وشك عبور رصيفٍ أمامهم ولكنه مكتظٌ بالسيارات المارة ، فإذا بمحمدٍ في المقدمة والسيارات قد قلَّ مرورها ، فهمَّ أن يعبر وإذ به يسرع حتى لا يعرض نفسه للخطر ، وبينما هو يعبر بسرعة إذ بسيارة تأتي بسرعة هائلة فتصدمه لتدفع به بعيدًا في الهواء ، وقبيل نزوله على الأرض إذ بسيارة مجاورة في محاولة لإبطاء سرعتها ولكنه كان قد فات الاوان فتصدم هي الاخرى محمدًا قبيل سقوطه على الأرض ، فاندفع مرة أخرى في مشهد مأساوي يصعب على أيِّ قلبٍ تحمله ، وكيف وهو نابغة بين زملائه وهو يعدُّ طفلاً صغيراً في الخامسة عشر من عمره .

حدث كل هذا على مرأى ومسمع من زملائه و صديقه المقرب علاء ، الذي اندفع مسرعاً نحو صديقه حين صدمته السيارة الاولى فإذ بسيارة تصدمه هو الآخر وتدفعه بعيداً عن مجرى الطريق ، وأصدقائهما يراقبون في ذهول ، ووقفتْ كل السيارات المارة ، والتف الناس حول الولدين الساقطين أرضاً في حادثة من أقسى الحوادث وأصعبها على الإطلاق ، ولقد ذُهل وحزن كل المارة رجالًا ونساءًا ، وكيف لا ؟! وقد شاهدوا حادثة من أكثر الحوادث قسوةً على الإطلاق ، كان حادثاً صعباً على كل النفوس والقلوب ، وبكى لأجلهما عيون الرجال والنساء قاطبةً دون حتى ان يعرفوهما ، فما بالك لو علموا عن أخلاقهما وصفاتهما الحسنة وسنِّهم أيضاً !

جرى أصدقائهما نحوهما وهم إلى الآن لا يدركون ما حدث ، ففجأة كانوا يمشون معاً وبعد ثوانٍ معدودات يفقدان اثنين من أعزِّ أصدقائهم ، إنَّ هذا أمرٌ يصعب على أيّ قلبٍ أو عقلٍ صغيرين أن يدركا شعوراً كهذا ، وبعد ثوانٍ معدودات أصبحا محمد وعلاء في سيارة الإسعاف ويرافقهما أصدقائهما ، وهنا كان علاء فاقد الوعي تماماً وكذلك محمد حتى ظنَّ الجميع أنهما ماتا ، لكنَّ الأخير فتح عينيه واستجمع قوته ليقولَ لأحد أصدقائه الذي كان أقربهم إليه داخل السيارة :

- قق...ول... لأ...بو... يا ... إني ... كا...كان... نف...سي... أحق...قله... حل...مه ، وا...كو...ن ... حا...جة... قو...

ل...هـ...... سا...مح...ن...ي .

أما علاء فظلَّ فاقدَ الوعي ولم يحرك ساكنًا ، وأما محمد فلقد فقد الوعي بعدها حتى وصلا المستشفى ، حيث تولت إدارة المستشفى إحضار آباء الولدين ، وحين قدموا كانا الولدان كل منهما في حجرة عمليات مستقلة ، وخرج الطبيب من حجرة عمليات الطوارئ التي بها يرقد علاء ، وهنا قال الطبيب :

- الحمد لله عملية الإنقاذ والوصول للمستشفى كان في الوقت المناسب ، علشان كدا اطمنوا الحالة اتحسنت ، مبروك .

وهنا انهمرتْ دموع أمه من شدة الفرحة واختلطت بدموع الحزن التي سبقتها ، ولكنَّها نسيتْ ذلكَ عندما سمعت كلمات الطبيب أن ابنها تعافى او بالأحرى نجى ، أما الأب فسالت دموعه هو الآخر من شدة الفرحة ، وسجد لله في المستشفى وجرى بسرعة ناحية دورة المياه وتوضأ ، وأخذ يصلي لله ؛ فرحةً بنجاةِ ابنه من هذا الحادث المروَّع والمخيف .

* * *

أمام غرفة عمليات الطوارئ - حيث يجري الجراحون عمليات طارئة لمحمد آملين له النجاة – كان أبو محمد يروح ويجيئ داعياً الله أن ينجي ابنه من هذا الألم وهذا الحادث ، ويدعو الله ويتضرع إليه بألَّا يفقده فهو ابنه الوحيد ، أمَّا أمه

فكانت تجلس على الكرسي منهارةً من البكاء ، تتلو دعواتها التي كانت محمَّلةً بحنان الأم وصدقها ، فانهيار الأم تعجز عن وصفه الكلمات ، وخوف الأم على ابنها يتجاوز بكثير خوف الأم على نفسها .

اليوم موقف من المواقف يبين حقاً مقولةً أو مثلًا متداولاً لا يدركه الكثيرون ، ألَا وهو « أنه ما من أحد يحبك أكثر من نفسه أو يخشى عليك أكثر مما يخشى على نفسه كوالديك « ، وهذا هو الواقع وهذه هي الحياة ، وها هما الولدان في أشد حالات القلق على ابنهما الوحيد والمجتهد ، والذي ما استاء منه والده قط ، ولا أتعب أمه أو ضايقها ، ولم يتمنَ إلَّا أنْ ينالَ رضاهما وعفوهما .

خرج الطبيب إليهم حزيناً وقال وكلُّه أسى ، وكأنَّ الكلمات تأبى الخروج من فيهِ :

- البق... .

وهنا وقفتْ الأم وقبل أن يكمل كلمته الأولى وقالت بعد أن أمسكت بعنقه ، وأخذت تصيح به وهي تبكي وتكرر كلماته وتقول مرات ومرات :

- أوعى تقولي مات ، أوعى تقولي مات !!

والطبيب يحاول تهدئتها بشتى الطرق ، ويأبى ان يظهر تمزق قلبه على الولد المسكين أمام الام ؛ كي لا يزيد من آلام الأم ويقول :

-البقاء لله يا أمي ، شدي حيلك .

أما الأم المسكينة فتركت عنقه ، وأخذت تبكي بحرقة وتلطم خديها ، وأخذت تنوح وتندب حتى لم يستطع أحدٌ أن يهدأ من روعها ، أو يمكن لأحدهم أن يواسيها أو يخفف عنها ، وهنا صرخت صرخةً تمسُّ القلوب وتحزنها ، بل تمزقها ، وبعد إطلاق صرختها المحملة بالألم ، والحزن ، والمأساة سقطت فاقدةً وعيها ، فأخذوها إلى حجرة الطوارئ بسرعة حتى يتفقدوا حالتها .

أما الأب فكان في حالةٍ يرثى لها ، يبكي الأب ويتأوه ، وما أصعب من دموع الرجال !! فبعدها تجف الصحف ، ويجف الحبر من الأقلام والورق ، وتنفذ الكلمات من الأفواه ، وتظل سجينةً بين طيات الأفئدة لا سبيل لديها للخروج ، فما أقسى وهن الرجال ، وما أقسى شعور فقدان الولد ، فلو جفت مياه البحار والأنهار قاطبةً ما كان الحب والحنان أن يجفا من قلوب الأب أو الأم ، وما يفرق بين شعور الرجال بالأسى والانكسار بل والوجع عن النساء إلَّا تماسكهم وقوتهم التي تميزهم عن النساء ، ولقد كانا لهما عظيم الأثر في موقفه هذا ، فبفضلٍ من والله وبفضلِ هاتان المزيَّتان لم ينهرْ أبو محمد وتماسك أمام نبأ موت ابنه الذي وقع عليه كالصاعقة .

بعد موت ابنه الذي كان وقعه على قلبه أقسى من موته هو نفسه ، يقف والد محمد الآن أمام حجرةٍ من إحدى حجرات قسم الطوارئ في انتظار أن يطمئنه الطبيب على حالة زوجته ،

فبالتأكيد قلبه لن يتحمل فقدان عائلته وأسرته كلها ، فمحمد ابنه الوحيد وأما زوجته فلقد كان يحبها حبًا جماً ، فهو يقف الآن - والدموع تنهمر من الحدق - ويدعو الله بشفائها العاجل وألَّا يفقدها ، وعَلَا صوت بكائه .
هنا خرج الطبيب مطأطأ الرأس ويأبى فوه أن يتفوه ، وقال لوالد محمد :
- البقاء لله يا حاج ، شد حيلك .

وربت الطبيب على كتفه ، لكن المسكين وإن كان يحاول أن يجبر قلبه على التحمل فقدماه لم تتحمله ، بعد أن ثقلت همومه لهذه الحد ، فكاد أن يهوى على الأرض ، لولا أنه كان يقف بجوار كرسي فهوى عليه ، فأسنده الطبيب وبعض العاملين بالمشفى ، وأجلسوه على الكرسي لكن المسكين كانت حالته تعجز عن وصفها الكلمات ، وأخذ الطبيب ومعاونيه يهدئونه ، ويخففون آلامه محاولين مواساته ولكن أنَّى لهم بذلك .

* * *

وقف الاستاذ أيوب - مدير المدرسة - وكان متوسط الطول ، ثميناً قليلاً ، طيب القلب إلى أقصى الدرجات ، محباً للطلاب ، ويعاملهم جميعاً كأبنائه ، وقف بقلب مفطورٍ حزينٍ ، ويبدو على هيأته أنه يبذل جهداً كبيراً لمنع الدموع من الانهمار على

وجنتيه ، ولكن حين سال كلاماً أجهشت أحداقه ، وأخذ يقول والكلمات تقف في حلقه ، والدموع تسيل من عينيه وما جفت ؛ حزناً على الفقيد المسكين :

- بالأمس توفى إلى رحمة الله ابنٌّ من أبناء تلك المدرسة .. إنه محمد ، الشاب المتفوق الخلوق ، كان الأول دائماً بين زملائه ، ليس علمياً فقط بل هو الأول بأخلاقه ، بسماحته ، بذكائه ، ببشاشته ..

رحم الله ابننا ، وأسكنه فسيح جناته ، حقاً إن عيوننا لتدمع وتحترق بكاءاً وحُقَّ لها بكاها ، والقلوب لتحزن وحُقَّ لها الحزن ، ففقيدنا ولدٌ صغيرٌ وطريقةُ موتِه أحزنت الجميع قبل معرفة المفقود ، فما بالك لو كان الفقيد ولدًا مثل محمد !!

وهنا سالت دموعه إلى الحد الذي منعه من التحدث ، ولكنه لم يكن الوحيد فأمامه يصطف جميع الطلاب بقلوبٍ حزينةٍ ، وعيونٍ باكياتٍ ، وثوب أسود يغطي أجسادهم حزناً على زميلهم – رحمه الله – ، أمَّا المعلمون فجميعهم حزانى على تلميذهم النجيب والمتفوق .

دخل الطلاب الفصول بقلوبٍ حزينةٍ ، بعد أن أخذ أحد المعلمين يدعو له بالرحمة والغفران ، ودخل إلى الفصل - الذي كان فيه محمد – الاستاذ محمود ، وكانت تبدو عليه علامات الحزن الفعلي على تلميذه ، وبدا ذلك على كلماته وعباراته ، وبدا

أيضاً عليه حيث لم يستطع التركيز جيداً وهو يحاول شرح الدرس ، ولكن انتهى به الأمر إلى تأجيل الدرس للحصة القادمة .

انتهتْ الحصة وخرج الاستاذ محمود بعد أن قضى أغلب حصته ، أو لنقل كلها يتحدث عن الموت وعن النعيم الذي يحظى به الخيرون والمتَّقون ، وعن الجحيم الذي يُعاقب به العاصون والكافرون ، وحدثهم عن عذاب القبر وعلاقته بالأعمال في دنيانا هذه وأن هذه الدنيا ما هي إلَّا رحلةٌ ، موعدُ البدء والانتهاء فيها لا يعلمه سوى الله ، أما نحن فكل مسؤليتنا في هذه الدنيا هي أن نعمِّر الأرض ونجمع الحسنات ليوم الآخرة ، وبالتأكيد تجنُّب الوقوع في المعاصي ، وأخبرهم ان التعمير لا يأتي إلا بالعمل ، والمولى سبحانه وتعالى قدس العمل فجعله عبادة وقال تعالى { وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون } صدق الله العظيم ، وقدس الوقت فأقسم به فقال تعالى { والضحى ، والليل إذا سجى ... } ، وقال تعالى { والفجر ، وليالٍ عشر ... } صدق الله العظيم ، وغيرهم من الآيات الكُثُر ، وكانت تلك جُلَّ نصائحه .

وبالتأكيد لم يرحل قبل أن يوصيهم بالمذاكرة والاجتهاد ، والمثابرة معلِّلاً أن وظيفة كلٍ منهم هي (طالب) وسيحاسب وسيسأل أمام الله على تأديةِ عمله ألا وهو المذاكرة ، وأوصاهم بالصلاة فهي عماد الدين ، ومضى في سبيله بقلبٍ يحترق ألماً ، تاركاً خلفه عشرات القلوب الحزينة .

حان الآن موعد حصة الاستاذ علي الذي دخل قائلاً كالعادة :
-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قالها بحزنٍ شديدٍ ، وقلبٍ مكسورٍ ، وتلاشت ابتسامته المعهودة التي لم تختفِ قط من على وجهه مذ عاد في الفصل الدراسي الثاني ، وليس هذا وحسب بل زاد شحوبه الذي لم يفارق قط وجهه منذ عودته ، ولكن شعوره هذا لا يقل بل لا يضاهي شعور وردود فعل الطلاب الذين ردُّوا التحية بمثلها ، وبقلوبٍ منكسرةٍ أيضاً ، وأخذ الاستاذ علي يشرح الدرس لكن لا طاقة له أن يشرح ؛ فالحزن قد شوب صفوه ومتى صفى قلبه من الأحزان ، لكنَّه قسى على نفسه وأجبرها على تأدية العمل على أكمل وجه قَدْرَ المستطاع ، وأخذ يشرح وبعد مرور القليل من الوقت توقف فجأةً ؛ حيث لاحظ عدم قابلية الطلاب لتقبل الشرح أو حتى الحديث ؛ تأثراً بزميلهم المسكين الذي فارقهم في غمضة عين وانسلَّ من أيديهم أمام عينهم ، وفارق الحياة في ريعان شبابه في حادث من أقسى الحوادث وأبشعها ، ولم يكن الوحيد بل وزميلهم علاء الذي نجى من الموت لكن حالته لم تستقر بعد ، فما أقسى هذه الدنيا !

* * *

صاح صوت رنين الهاتف المحمول فأمسك به ، ونظر إلى

الشاشة ليرى من المتصل ، وإذ به يبتسم ابتسامة طفيفة قبيل أن يجيب على المتصل ، وإذ به يسمع ما يقوله المتصل الذي كان يبدو على كلماته العجلة ، الخوف ، والاضطراب ، ومن ثم جحظت عينه ؛ دهشةً لما سمع من المتصل وقال :

- أنت متأكد من الكلام اللي أنت بتقوله دا ؟!

كان هذا الضابط إبراهيم خيري وتملأه الدهشة مختلطةً بالفرح المستحي ، فكان الرد من المتصل :

- أيوة يا باشا زي ما بقولك كدا ، بس سلام دلوقتي سلام .

وأغلق الهاتف وانتهت المكالمة ، وهنا أسند الضابط إبراهيم ظهره إلى الخلف على الكرسي الذي يجلس عليه ، وأخذ يفكر وقال في نفسه :

- طيب دلوقتي أنا مش هقدر أطلع مأموريات ، ومش هقدر أستعين بحد من الداخلية ، طيب الحل إيه ؟!

أخذ يفكر من يمكن أن يستعين به إبراهيم لأداء مهمة كهذه ، حتى اهتدى للأشخاص الملائمين لهذه المهمة ، وبسرعة كي لا يضيع وقت التقط إبراهيم هاتفه ، وأخذ يبحث فيه عن أرقام هواتف هؤلاء الأشخاص ، وها هو قد وجدهم (مصطفى وعبد الرحمن) ، الشخصان اللذان جاءا ليقدما بلاغاً ضد الدرويش ، وقالا أنَّهما رأوه وهو يعد المخدرات للتهريب ، وكان ينوي إبراهيم العمل وحده ، أو لنقل يستأنف العمل وحده ، لكن مع المعلومة

الجديدة التي علم بشأنها تواً ، فكَّر في هذين الشخصين ، وبكل تأكيدٍ يضع في حسبانه أنَّهما ليسا شرطيين ، لذا سيوكل إليهم أسهل الأدوار في الخطة ، وقرَّر أنْ يتصل بهما على الفور .

أخرج إبراهيم الهاتف بالفعل ، وأخرج رقم هاتف مصطفى من بين الأسماء واتصل به ، وبعد مُضيِّ القليل من الوقت رد مصطفى ، وقال الأخير :

- ألو، السلام عليكم .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

- مين معايا ؟

- أنا الظابط إبراهيم خيري يا مصطفى .

- أهلاً وسهلاً يا فندم ، ازي حضرتك يا معالي الباشا ؟!

- الحمد لله تمام ، عاوزك في مهمة يا درش .

- تحت أمر سيادتك يا فندم .

- مش أنت لوحدك ، أنت و صحبك عبد الرحمن .

ردَّ مصطفى متعجِّباً :

- عبد الرحمن ! حاضر يا فندم ، هجيبوا ونجيلك على المديرية في أي وقت تقول عليه ، ودلوقتي لو حبيت .

- لا لا ، بلاش المديرية خالص أنا هقابلكم على كافيه بره .

- كافيه ! كافيه إيه يا باشا بالظبط ؟

- هبعتلك الإسم والعنوان في رسالة .

- طيب والميعاد ؟
- هنتقابل النهاردة الساعة ٩ بالليل ، ماشي ؟!
- تمام حضرتك يا فندم ، هستنى رسالة حضرتك .
- تمام ، مع السلامة .
- مع الف سلامة يا باشا .
وبالفعل بعد لحظاتٍ من انتهاء المكالمة ، وصلتْ إلى مصطفى رسالة مكتوبٌ فيها :
المكان اللي اتفقنا عليه اسمه (كافيه الزمن الجميل) في مدينة مصر الجديدة ، والميعاد النهاردة الساعة ٩ متنساش .
قرأ مصطفى الرسالة وأومأ برأسه ، وقرَّر أنْ يخبرَ عبد الرحمن على الفور ، وهو يعلم جيد العلم أن عبد الرحمن ما كان ليرفض تقديم المساعدة أبداً ، وبالأخصِّ عندما يتعلق الأمر بمصلحة البلاد ، لذا ينتظر حينما يراه كي يخبره ، ويجول بخاطره التساؤل المعتاد ، لماذا طلبهما ؟!

* * *

أخرج أدهم الهاتف من جيبه وقال في نفسه :
- أكيد هي قرت الرسالة بس محرجة تتصل ، أو حيائها الغير العادي ، حيائها النادر والمفتقد هو اللي منعها ، أنا هتصل بيها .
وعلى الفور كتب رقم هاتفها الذي يحفظه عن ظَهْرِ قلبٍ وضغط

على زر الاتصال ، ومع بداية سماع صوت الجرس بدأت تتعالى ضربات قلب أدهم ، ومع طول وقت الجرس تسارعت تلك النبضات إلى أن جاء الرد أخيراً ، وحينها قال أدهم بعد أن تلعثم وقد ارتعشت يداه :

- السلام عليكم ، ازيك يا شهد .

وتلعثمت الأخرى وابتسمتْ ابتسامةً خجولةً ، قبل أن تقول :

- وعليكم السلام ، الحمد لله .

ثم ازدردت لعابها ، وقالت شهد باستحياء :

- ازيك أنت يا أدهم ، عامل ايه ؟!

- الحمد لله تمام ، طول ما أنتِ كويسة .. وحشتيني أوي يا شهد بجد مفتقدك على الآخر .

وهنا اشتعلتْ حمرةُ خديها خجلاً ، لكنه لا يضاهي شدة فرحتها ؛ لأنَّها شعرت بل تيقنت أن أدهم مازال يحبها ويهتم لأمرها ، وكيف لا يحبها بعد كل المعاناة التي عاناها في غيابها ؟! كيف لا يهتم لأمرها وهي لم تغب عن خاطره قط ؟! كيف لا يريدها وقد تَعِبَ وتعب ، وحاول وحاول من أجل الوصول إليها ؟! وقد عبَّرَ بصعوبة عن البعض من هذا في قصيدته التي أرسلها إليها ، وردتْ شهد قائلةً :

- وأنت كمان يا أدهم ، واحشني قوي .

ابتسم أدهم ابتسامةَ فرحٍ يفتقدها منذ الكثير ، وقال بعد أن

صمت لبرهة :
- إيه رأيك يا شهد ؟!
- رأيي في إيه ؟
- هه تجوزيني يا شهد ؟! موافقة ولا لا ؟
- امم بصراحة يا أدهم أنا فكرت كتير ، ولقيت إن دا قرار مش سهل ؛ لأنه بيمثل محور حياة تقريباً ، علشان كدا اتأخرت في الرد عليك ، وبصراحة ردي هو اللي خلاني بعد ما أخدت القرار إني متصلتش بيك و .. .

ساد الصمت قليلاً وعند قول هذه الجملة وصمت شهد ، فكأنَّ قلب أدهم قفز من بين ضلوعه واقعاً في قدميه من شدة الاضطراب والقلق من قرار شهد والذي ها هي تبلغه إياه بطريقةٍ أثارت رعبه ، أما شهد فلم تبدِ أيّاً من ردود الفعل لا تعبير وجهي أو نبرة صوتٍ تدل على الفرح والسرور وتقبل الأمر ولا العكس ، مما أثار الرعب في قلب أدهم ، لكنْ الأولى استأنفت كلماتها قائلةً :
- وقراري الأخير هو ... موافقة .

وهنا صاح أدهم فرحاً لدرجة أن الهاتف أفلت من بين يديه ساقطاً على سريره ، وبدلاً من وقوع قلبه في قدميه من شدة القلق والرعب من الكلمات ، فكأنَّ قلبه قفز من بين ضلوعه من شدة الفرح ، وأخذ يصيح ويتفوه بالعديد من الكلمات مفهوم

بعضها ويدل على الفرحة وهي كلمات تهنئة للنفس ، وكلمات كتلك التي تقال عند الوصول للمبتغى ، وأمَّا البعض الآخر فلم يكن مفهوماً ، وكل هذا ومازالتْ شهد تسمع كل هذا بسرورٍ بالغٍ وكل ردود الفعل من خلال الهاتف المحمول ، اما أدهم فقد نسي أمر الهاتف من شدة السعادة ، وحين تعب من كثرة الاحتفال بأسعد نبأ سمعه في حياته – من وجهة نظره – وأكثر نبأ تمنى سماعه .

وإذ بأدهم يجلس فجلس فوق الهاتف ، فتذكر أن شهدا مازالت تحدثه على الهاتف ، فأمسك الهاتف وقال :

- أنا آسف يا شهد والله ، انا نسيت الموبايل أصلاً بعد ما طار من ايدي معلش .

فقالت شهد - وهي تبتسم - برقةٍ بالغةٍ :

- لا ولا يهمك يا أدهم ، انا بجد مبسوطة قوي إننا هنتجمع مع بعض يا أدهم وفي الحلال .

ساد الصمتُّ قليلاً وقبل أن ينطق أدهم أردفت شهد :

- يااااه ، واحشني جداً يا أدهم ، انت متعرفش الأيام اللي فاتت عدت عليا إزاي !

- أولاً : انا مبسوط اكتر منك ..

وثانياً : أنتي واحشاني أكتر، وانا كمان الأيام اللي فاتت كانت صعبة عليا جداً .

وساد الصمت مرة أخرى حتى قال أدهم :
- كل دا هنحكيه لبعض بس مش دلوقتي ، انا هسيبك دلوقتي وهروح افاتح بابا وماما في الموضوع ، انا مردتش اقولهم قبل ما أعرف رأيك الأول ، باي باي .
أغلق أدهم الهاتف واسرع ليخبر والدته بذلك ، وإذ هو يراها أمامه فور خروجه من حجرته ، وقال لها :
- ماما، كنت عاوزك في موضوع كدا .
- موضوع ! موضوع إيه يا أدهم ؟!
- تعالي يا غالية وأنا هقولك .
وذهبا إلى الصالة ، وجلسا على الأريكة وقال أدهم لوالدته :
- امال فين بابا ؟!
- لسة مرجعش من الشغل ، فيه إيه يا أدهم ؟!
- ماما ، أنا .. أنا عاوز أتجوز .
وهنا أشرق وجه الأم ، وابتسمتْ معالمه قبل أن تقول:
- إيه ! دا يوم الهنى بس .. مين سعيدة الحظ ؟!
وغمزت بإحدى عينيها ، فاحمر وجه أدهم ابتسم وقال :
- بنت زي القمر، ومحترمة جداً ، ومؤدبة جداً جداً ، وبنت ناس قوي ، واسمها شهد ، أكيد تعرفيها يا ماما .
-شهد شهد شه .. آه عرفاها ، أنت كنت جبت لي سيرها قبل كدا ، أنا عرفاها و عارفة والدتها ووالدها ، دول ناس محترمين جداً .

فابتسم أدهم وقال :
- ها يا ماما ، إيه رأيك يا غالية ؟!
- ألف مبروك يا حبيبي ، إن شاء الله لما ابوك ييجي هقوله ، ونكلمهم ونروحلهم .

فأمسك أدهم يد أمه وقبَّلها قبل أن يقبِّل رأسها ، والأم في غاية السعادة بابنها فأخيراً قرَّر أنْ يتزوجَ بعدما كانت تطلب منه الزواج منذ التحاقه بالجامعة ، وها هو الآن يلبي رغبتها ورغبة والده الذي يتمنى أيضاً هذه اللحظة ، وألحَّ أيضاً على أدهم لكن الأول لم يشأ أن يجبره على شيء ، وترك أدهم الأم في البيت منطلقاً نحو صديقيه المقربين ؛ ليخبرهما بهذا النبأ السعيد ، وليشاركاه فرحته التي لطالما انتظرها .

* * *

مرَّ الآنَ قرابة الأسبوع منذ وقت الحادثة الأليمة التي أطاحت باثنين من خيرة الشباب ، أحدهما فارق الحياة بميتة مؤلمة انكسرت لأجلها كل القلوب ، وبكت لها كل العيون ، واقشعرت لها الأجساد قاطبةً ، أما الآخر فهو الآن في حجرة العناية المركزة ؛ فهو فاقدٌ الوعي منذ يوم الحادث ، مع أن الأضرار الجسدية ليست بالجسيمة ، فلقد تعرض لكسر في الساق ، وبعض بل الكثير من الجروح والخدوش في شتى مناطق الجسد ، وهو على

أبواب الشفاء ، وخارج الحجرة تجلس أسرة علاء المكونة من الأب ، والأم ، وأخيّن يكبرانه سناً واخت صغرى لا تكاد تبلغ العاشرة من عمرها ، وكان جميعهم في حالة يرثى لها أيضاً ، رغم نجاة ابنهم .

دخل الطبيب المعالج مع إحدى الممرضات إلى حجرة العناية المركزة ليطمئن على حالة علاء الذي يرقد فاقداً الوعي من دون جديد في حالته ، وبينما هو يخرج بدون إعطاء دواءٍ لعلاء ، لكنه اطمئن أنه مازال حيًا ، واستعد ليجيب على سؤال الأب المتكرر بنفس الإجابة التي يجيبها كل يومٍ ، ألَا وهي أنَّه بخيرٍ وسيتحسن قريباً ، فقط ادعوا له بالشفاء ، وقبيل خروج الطبيب من الحجرة ، ارتفع صوتٌ في أرجاء الحجرة رجَّ كيانها ، فالتفت الطبيب بسرعة فإذ به يجده علاء هو الذي صرخ وكانت تلك كلماته:

- لاااا ، محمد لاا يا محمد حااسب يا محمد حاااسب .

انتفض لهذه الصرخة جسد والده ، وقلب أمه قبل جسدها الذي ارتعش فجأةً بشكلٍ غريبٍ ، وجميع أفراد العائلة هموا واقفين وفي نفوسهم مزيج من الفرحة والقلق .. أمَّا الطبيب ففرح ؛ لأن علاء استفاق من غيبوبته وجرى الأخير ناحية علاء الذي أخذ يعبث بكل شيء ، ويلتفت يميناً ويساراً كأنه يحاول أن يبحث عن محمدٍ وينقذه وكيف لا ؟! وهو الوحيد من بين أقرانه الذي جرى نحوه ، وأخذ يلوح بيده وكل الوصلات بالأجهزة والمحاليل موصولةً بجسده ، والطبيب يحاول تهدئته بشتى الطرق ، وأخذ

يقول له :
-اهدى ، اهدى يا حبيبي ، متقلقش ، اهدى .
لكن علاء أشبه بمن فقد السمع ، وأخذ يحاول إبعاد الطبيب عنه ، ولم يكتف بذلك بل حاول أن يمزق كل الأسلاك والوصلات المتصلة بجسده وهو يقول :
- محمد فين ؟! أنت فين يا محمد ؟ محمد ؟!
لكنَّ الطبيب أمسك به والتف ناحية الممرضة ، وقال :
- هاتيلي حقنة مهدئة بسرعة .
فانصرفت الممرضة في الحال ؛ لتحضر الحقنة المطلوبة ، وأثناء خروجها من الباب أوقفاها الأم والأب وسألاها عن ابنيهما ، فلم تُجب على أحد ؛ فلقد كانت متعجِّلة حتى لا يؤذي الولد نفسه ، وأيضاً تلبيةً لأمر الطبيب ، ودخلت إلى الحجرة وأعطت الحقنة للطبيب الذي حقن الولد بها فراح الولد في سباتٍ عميقٍ ، وخرج الطبيب من الحجرة فوجد الوالد أمامه يسأله ويقول :
- طمني يا دكتور ، الواد إيه أخباره ؛ علشان انا خلاص مبقاش فيا أعصاب ، لا أنا ولا أمه ؟!
فابتسم الطبيب محاولاً طمئنة الأب والأم المسكينين ، وقال :
- اطمن يا حاج وطمن المدام ، ابنكم كويس واهو فاق الحمد لله ودي الحاجة اللي كانت قلقانا ، بس هو فاق وبيسأل عن صحبه محمد وانا اديته حقنة مهدئة ، و برضو بقولك دعواتكم معاه .

وربت على كتف الأب ، ومضى في سبيله وسط فرحةٍ عارمةٍ سادت قلوب ووجوه أفراد العائلة قاطبةً ، وألقت الأم بجسدها بين زراعي زوجها ، وأجهشت بكاءًا ، ولكن هذه المرة كانت دموع الفرح ، الفرح بشفاء ابنها ونجاته من بين يدي الردَى ، وهكذا سار الأمر لدى استفاقة علاء .

الفصل الخامس عشر

أتى عبد الرحمن من الحجرة الداخلية بعدما أفاق من قيلولته ، أما مصطفى فكان يجلس على أريكته مستغرقاً في التفكير في أين يجد عبد الرحمن ، وأين يجب أن يبحث ؟! لم يكن يعلم أنه يرقد بالداخل ، وحين رآه مصطفى قال :

- عبده ! انت فين يا جدع ؟! كنت لسة بفكر هلاقيك فين !

ردَّ عبد الرحمن وهو يفتح عينيه بصعوبة :

- أنا هنا ، وكنت نائماً بالداخل ، ماذا تريد ؟!

- عبده ، فاكر الظابط إبراهيم خيري اللي إحنا روحناله علشان الدرويش ؟!

- الضابط إبراهيم خيري ! بكل تأكيد ومن ينسى ذوقه وأدبه ، وحرصه على سلامة الآخرين ، وتفانيه في العمل .. ماذا يريد ؟!

مصطفى بعدما ابتسم وأراح ظهره للوراء :

- كلمني وقال إنه عاوزني أنا وأنت في مهمة .

- أيُّ مهمة ؟!

- الله أعلم ، هو قالي عاوزك انت وصاحبك قصده عليك أنت

، وقالي على ميعاد وعنوان كافيه هنقابله فيه النهاردة ، وهناك هيقولنا على كل حاجة .
ساد الصمت بينهما ، وعبد الرحمن يفكر فيما قاله مصطفى إلى أن قال :
- ومتى موعد اللقاء ؟!
- النهاردة الساعة تسعة .
- حسناً إذن موعدنا التاسعة .
قالها عبد الرحمن وهمَّ أن يجلسَ وقبيل جلوسه ، سمعا صوت جرس الباب ، فذهب عبد الرحمن ليفتح الباب فوجد أدهم أمامه ، فدخل وتعلو وجهه ابتسامةٌ عريضةٌ ، وجلس على الكرسي وقال :
- شباب ، أنا قرَّرت أتجوز شهد .
فابتسما كلٌّ من عبد الرحمن ومصطفى ، ونظرا إلى بعضهما البعض في فرحٍ ، فقال عبد الرحمن:
- حقاً يا صديقي ؟!
فأومأ أدهم ، وأردف وهو يبتسم :
- أيوة ، أنا قولتلها وهي موافقة ، وفاتحت ماما في الموضوع فانبسطت قوي ، وفرحت جداً بشهد ؛ لأنها طلعت تعرفها وتعرف أهلها ، وقالتلي إنها هتكلم أبويا في الموضوع ، وإن شاء الله هيوافق ؛ لأني معتقدش إنه هيرفض .

اتسعتْ الإبتسامة على وجهي عبد الرحمن ومصطفى قبل أن يقول عبد الرحمن :

- مبارك يا صديقي ، بارك الله لكم في زواجكما ، ورزقكم الذرية الصالحة .

وكان قول مصطفى :

- ألف ألف تلريون مبرووك يا صديقي ، وربنا يارب يتمملكم على خير .

- الله يبارك فيكم وعقبالكم كدا يا رب .

وعانقوا بعضهم البعض باسمين ، سعداءَ ، فأدهم سعيدٌ أنه سيتزوج الفتاة الذي أحبها قلبه وأرادها ، وعبد الرحمن ومصطفى سعيدان بصديقيهما الذي سيحقق شيئاً يريده ، وما الصديق إلا دعامةٌ في وقت الشدة ، وبهجةٌ متجسدةٌ وقت الفرح ، وعكازٌ يساند في شتى الظروف والأوقات ، أبٌ يعاتب عند الخطأ ، أمٌ تربت وقت الوجع ، أخٌ به تكتمل حلقة حياة الفرد ، فلا حياة بدون أخ ، ولا حياة بدون صديق يجسد دور الأخ ، ويداوي جراحك إذ تُجرح .

* * *

انتهى مفعول الدواء الذي أعطاه الطبيب لعلاء ، وهو الآن على وشك الاستيقاظ من نومه المصطنع بفضل الدواء ، وبالفعل

استفاق علاء في حضرة أبيه وأمه والطبيب ، وكان والده يجلس بجواره على أحد جانبي السرير ، يترقب رؤية ابنه يتحدث ، ويتحرك كسابق عهده ، وحين استيقظ علاء وجد أباه أمامه جالسًا فاحتضنه والده بعد أن سالت دموعه ، وخلفه أيضاً الأم تجهش بالبكاء فرحاً ، فبعد عناقٍ دام لفترة ليست بالقصيرة والأب يقبل ابنه والابن يبكي أيضاً ؛ لافتقاده والده بعدما كان بينه وبين الموت أقل من خطوة ، علم حقاً أن ما من نعيم يبقى في هذه الدنيا ، وأنك لن تأخذ معك سوى عملك الصالح ، أو بالأحرى ثواب هذا العمل الصالح من الله .

وبعد مرور بعض الوقت وأتى دور الأم ؛ لترحِّب بعودة ابنها لها ولكن على طريقتها الخاصة ، وما أدراك ما شعور الأم حينما تفتقد ابنها ، فكأنَّها فقدت الدنيا وما فيها ، فبالتأكيد لم تجف الدموع من أحداقها ، وبعد مرور بعض الوقت ؛ لأن وصف مشهدٍ كهذا تعجز عن وصفه الكلمات ، بل وتأبى الأحرف أن تصفه إن كان لذلك متسعٌ ، أمَّا الطبيب فيترقب ما الذي سيحدث بعد هذه اللحظات ، هل سيهدأ علاء ، وينكسر لما يحدث ، ولِمَا يراه من كثرة الدموع ولو كانت دموع الفرح ، ولمَا يسمع من كلمات رقيقة ترق لأجلها أقسى القلوب ، ولما تعكسه هذه الكلمات من حبٍ ، عفوٍ ، وحنانٍ ، ورفقٍ ؟! وكان هذا ما يأمله الطبيب ويتمناه .. أمَّا العكس وهو أن يثور مرةً أخرى ويسأل

عن صديقه محمد بتلك العصبية التي كان بها المرة السابقة ، كان هذا ما يخشاه ويتمنى ألَّا يحدثَ ، فما بال ذلك المسكين إذا علم أن أعز أصدقائه قد مات !! مع وجود كل هذا الود بينهما ، و ذلك الوفاء الذي يحمله كلاهما .. ففقدان أحدهما للآخر أمرٌ لا يطاق ، أمرٌ يصعب على قلوبٍ صغيرة كقلوبهم أن تتحمله ، بل سيستحيل إلى جرحٍ عميقٍ في الفؤاد لن يبرأ أبداً مهما شاخ الجسد ، أو شاخت القلوب المجروحة .

وبعد مرور القليل من الوقت حدث ما كان يخشاه الطبيب ، فلقد سأل علاء عن صديقه محمد ، وحين سأل بدا الارتباك على جميع الحاضرين ، الأب والأم و الطبيب الذي لم يدرِ ماذا يجب أن يفعل الآن ؟! فنظر إلى والد علاء وتبدو على وجهه كل علامات التوتر والحيرة فهز رأسه ببطءٍ ، فقرر بل وآثر أن يخرج من المشهد ويدع والدي علاء يفهمانه ما الأمر !

فقال بعد أن قرَّر الخروج ، واختلق ابتسامةً على شفتيه :

- طيب استأذن أنا ، هتلاقوني برة هنا لو احتجتوا حاجة ، أو لقدر الله حصل أي حاجة .

وخرج الطبيب الودود البشوش وكلُّه قلقٌ على الصغير المسكين ، أمَّا أباه فظلَّ مع الصبي يراوغه ، ويغيِّر مجريات الحديث بذكاء ، وفتح أكثر من موضوع ليُلهي ابنه ، لكنَّ الأخير لم ينخدع بتلك البساطة قائلاً :

- أنتوا ليه بتحاولوا تغيروا الموضوع !! فين محمد ؟! ومتحاولوش تخدعوني !

قالها وهو يتجوَّل بناظريه في وجوه الحاضرين منبِّهاً إياهم على عدم الكذب ، ومحاولاً أن يقرأ على معالمهم إن كان محمدٌ قد أصيب بسوءٍ ، أو نجى ، لكن الجميع وضعوا وجوههم أرضاً فشكَّ علاء في الأمر ، وبدأت تحدثه نفسه أن محمدًا قد أصيب بسوءٍ ، لكنَّه أبى مجرد التفكير في الأمر ، وقرَّرَ أن يسمع الجواب من أحد الحاضرين ، وكان ذلك الجواب من والده الذي قال :

- طيب أنا هقولك ، بس هطلع أعمل تليفون وأرجع أقولك كل حاجة .

خرج الأب وكل علامات الحزن تجسَّدتْ على وجهه ، بل وتسلَّلت لتغزو جسده الذي هزل مؤخراً منذ يوم الحادث ، وخرج ليستشير الطبيب ما الذي يفعله ، وكان حديثهما :

- ايه يا دكتور ! أقوله ايه ؟! أقوله الحقيقة وأخلص نفسي ولا أنت إيه رأيك ؟!

زفر الطبيب بأسى فهو لا يدري ماذا يفعل ، أو بالأحرى ما الذي يمكن أن يحدث إن أخبروه الحقيقة التي سيعرفها عاجلاً أم آجلاً ، فما كان منه رداً سوى :

- أنت أدرى بإبنك ، اللي تشوفه صح اعمله .

فساد الصمتُّ بينهما إلى أن أومأ الوالد برأسه ، وانصرف ليدخل

إلى ابنه بعد أن قرَّر ماذا يجب أن يفعل !
في أثناء حديث الأب مع الطبيب وأثناء تواجده في الخارج ، كانت الأم تجلس على أحد حواف السرير فدنى منها علاء فربتت الأم على كتفه ، فقال الأول :
- أمي ! إيه اللي حصل ؟! محمد حصلتله حاجة ؟ قوليلي بصراحة ومتكدبوش عليا .

قالها والقلق يمزق خواطره ، وقبل أن تتفوه الأم بعد سيادة الصمت بينهما لبرهةٍ من الزمن ، دخل الأب فما كان منها سوى الصمتُّ ، ونظر علاء إلى الأب وفي عينيه حرقة الانتظار ، أمَّا الأب فنظر إلى ابنه بثقةٍ مصطنعةٍ - محاولًا إخفاء حزنه أو اضطرابه وقلقه - قائلاً :
- أيوة يا علاء يا حبيبي ، عاوز تعرف فين محمد صاحبك ؟!
فأومأ علاء برأسه ، فما كان من الأب سوى أن قال بعد أن ازدرد لعابه ، وارتسم على وجهه ما كان يخفيه ، وتلعثم قليلاً قبيل قوله :
- محمد ...... محمد ... الله يرحمه !

بدأتْ دموع الوالد تنهمر ، أمَّا علاء فلقد أدرك ذلك منذ امتنع أبويه أن يخبراه ، لكنَّه أبى مجرد التفكير في الأمر ، فهو لا يتخيل نفسه أو حياته بدون صديقه الصدوق والمقرب محمد ، فلم يتمالك نفسه فكان البكاء حليفه الأول ، ولكنَّه كان أبسط ما

انتابه حين سمع كلمات والده الذي استطرد :
- مات بعد الحادثة علطول ، والغريب إنه فاق في عربية الإسعاف وأنت لا ، فكله افتكر إن أنت اللي ... وهو اللي هيعيش مع إن إصاباته كانت ... .

الأب يتحدث وعلاء صامتٌ ،شاردٌ ، وكانت كلمة (الله يرحمه) آخر ما سمعت أذناه ، ومنذ سمعها قد فقد كل حواسه إلا الإحساس بانفطار القلب ، والشعور بالألم إثر ذلك الجرح العميق في فؤاده ، والذي شعر بأنَّ قلبه قد انقسم نصفين لعمق وقوة ذلك وألمه ، فذاكرته لم تعد تتذكر سوى يوم الحادث بأدق تفاصيله منذ خروجهم معاً من المدرسة حتى غاب عن الوعي يومئذٍ ، أمَّا عيناه فلم تعد تبصر سوى شكل محمد يوم الحادث .. كيف كانا يضحكان معاً قبيل الحادث !! وأما أذناه فلم تعد تسمع سوى صوت محمد وهو يتحدث بأسلوبه الرائع والراقي ، ولسانه الذي لم يتفوه قط بلفظ خارجٍ أو أيٍّ لفظٍ يخدش الحياء ، أمَّا لسانه فَقَدْ فَقَدَ النطق فهو يأبى أَن يتحدث سوى عن محمد ، وكل ذلك وأباه يواصل حديثه دون انقطاعٍ ، وبعد أن انتهى ربت على كتف علاء وعانقه بحرارةٍ محاولاً مواساته ، فهو يعلم جيداً مدى حب علاء لمحمدٍ ، لكنَّ علاء ما كان منه سوى الصمت ، وفي حضن أبيه كانت ميتته ، فلقد شعر الأب وابنه بين ذراعيه بسكون غير معتاد في جسد ابنه ، وتغيُّرٍ عما كان عند اعتناقه ،

فأخذ يفحص ابنه مطوَّلاً ، بعد ان نادى على الطبيب الذي دخل بسرعة ؛ ليفحصَ جسد الصبي ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان ، فلقد مات علاء وهو بين ذراعي والده ، وأيُّ لحظةٍ أصعب على الوالد من هذه اللحظة ؟! وأما الطبيب فلقد استحالت معالمه قبل أن يقول للوالدين :

- البقاء لله ، شدوا حيلكم !!

وغطى رأسه وانطلق مسرعاً للخارج بقلبٍ منفطرٍ ، لكنَّه انطلق مسرعاً للخارج حتى لا يرى أبو علاء ، أو ترى أم علاء حزنه العميق .

وأمَّا أم علاء فأخذتْ تندبُ وتنوح على ابنها الفقيد ، وأخذتْ تضرب وجهها بيديها ، وتقول وهي تنوح :

- حبيبي يا ابنيييي .. حبيبي يا ابنيييي .

وكل ذلك ودموعها بالطبع لم تجفْ ولم تهدأ ، أمَّا الأب المسكين فالصمت في حالته أبلغ بكثير في التعبير من الكلمات ، وظلُّوا هكذا لأيام طوال لا الفرح عرف سبيلهم ، ولا النسيان عرف لقلوبهم مسلكاً .

وفي اليوم التالي بعد إعلان وفاة علاء ، وقف مدير المدرسة الاستاذ أيوب في الطابور ، ولم يتمالكْ نفسه فبكى قبل أن يبدأ في التحدُّث ، وأخرج من جيبه منديلاً ؛ ليجفف دموعه المنهمرة على وجنتيه ، وقال والحزن يملأ جوانحه :

- بالأمس فقدنا طالباً آخر من الطلاب النجباء من أبناء هذه المدرسة .. هو الطالب علاء ، ولقد أبكى برحيله كل القلوب ، ومات ليضرب لنا خير الأمثلة للمعنى الحقيقي للصداقة ، فنعم الصديق كان .. كان كبيراً على صغره ، كان خلوقاً ، متفوِّقاً ، رقيقاً ، ودوداً ، اجتماعياً ، يشهد له المعلمين والطلاب جميعهم .. فقيدانا محمد وعلاء ليسا مجرد شابين ماتا ، فلا يسعنا التحدث عن التفوق دون ذكر اسميهما ، ولا عن الأخلاق دون الإشادة بهما ، واليوم سيُكْنَى عن الصداقة بعلاقتهما مع بعضهما .

فصفق الطلاب والمعلمين والدموع تملأ وجوههم ، وقلوبهم منفطرة ، ليس على زميل أو خليلٍ واحدٍ بل اثنين ، جفف الاستاذ أيوب عَبراته ليدع المجال لأخريات لا يتوقفن عن السيلان ، ولكنَّه أردف :

- أسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم ، أن يرحمهما ويغفر لهما ذنوبهما .. آمين يا رب، وأوصيكم أبنائي بحسن اختيار الأصدقاء ، وأن يكون كلٌّ منكم خير صاحبٍ وخير خليلٍ لخليله ، هذا درس علمه لنا أبنائنا عليهما رحمة الله .

وسلم مكبر الصوت (الميكروفون) لأحد الطلاب ليستأنف الإذاعة المدرسية ، التي لم تكن تتحدث سوى عن الموت وعن صديقيهما ، والتي اختتموها بالكثير والكثير من الدعاء وسط بكاء جميع الطلاب بالمدرسة ، علاوةً على أن جميع الطلاب تنوعت ألوان

ملابسهم ما بين الأسود والأزرق القاتم .. وكل الألوان التي تدل على الحزن .

انتهتْ الإذاعة المدرسية ودخل الطلاب إلى الفصول ، وكان فصل محمد مقرر عليه حصة لغة عربية للاستاذ عليّ ، فدخل الطلاب وهم ما بين باكٍ وحزين ، ودخل من بعدهم الاستاذ علي بقلبٍ منفطرٍ ، ووجهٍ حزين وألقى عليهم السلام فردوا الطلاب السلام ، فبدأ الاستاذ علي يتحدَّث ويقول :

- غريبة قوي الدنيا دي ، بتدي الحياة للي ميستهلهاش أو للي مش عايزها ، وبتاخدها من اللي يستاهلها ومن اللي عايزها ، اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ، أستغفر الله العظيم يا رب ، سامحوني يا ولاد ..

وهنا سالت الدموع على وجنتيه ، وأصبح غير قادرٍ على الكلام ، وجفف دموعه وتلعثم قبل أن يستطرد :

- معلش يا ولاد ، إحنا فقدنا اتنين مش سهل أبداً علينا إننا ننساهم ، وقبلهم ..

وهنا عادت الدموع لتسيل مرةً أخرى ، وكلّما جففها عادت لتنهمر وتنهمر وأردف:

- أكيد كلكم لاحظتم إني اتغيرت شوية الفترة الأخيرة ، محدش فيكم سأل أو حاول يسأل ليه ؟ وإيه سبب التغير المفاجئ دا ؟!

طأطأ الطلاب رؤسهم ، وساد الصمت قليلاً ، حتى وقف أحد

الطلاب وكان أبيضَ البشرةِ ، ليس شديدَ سوادِ الشعرِ ، عيناه بنيَّتان ، وقال بكل ثقةٍ :

- أكيد لاحظنا، وأكتر واحد حاول يعرف الإجابة ، بل إنه في غيابك حاول يوصل لك وسأل عنك كل الناس ، تقريباً هو محمد الله يرحمه ، وكلنا دلوقتي نفسنا نعرف إيه السر ؟!

ابتسم الاستاذ علي ابتسامة يشوبها الحزن ، وقال :

- اسمك إيه يا حبيبي ؟!

- اسمي أسامة .

- حاضر يا حبيبي هقولكم ، أنا ابني .. عنده ٥ سنين وشوية .. مات !

وهنا صعق جميع الطلاب ، وتوجعت قلوبهم ؛ لموت الطفل المسكين، واستطرد الاستاذ عليّ بعد أن ازدرد لعابه ويسعى لكتم أدمعه :

-مات ... بسبب الإهمال اللي بيحصل واللي موجود في المستشفيات ، ابني راح المستشفى كان مريض بالحمى ، وشوية حساسية ، وبسبب الإهمال في العلاج والتهريج اللي بيحصل في المستشفى مات بعد معاناة استمرت حوالي ست شهور .

سالتْ دموع الاستاذ علي على وجنتيه وانكسر في وقفته كما انكسر قلبه قبلاً ، ولم تستطعْ قدماه أن تحملَه فناب عنهما الكرسي ، واحتوت كفتاه وجهه العائم في الدموع متكئاً على المنضدة ،

أمَّا الطلاب فبكت قلوبهم من شدة الألم ، وأمَّا دموعهم فتولتْ الأحداق عملية انهمارها .

* * *

يجلس عبد الرحمن هادئاً على المنضدة ، وبجانبه يجلس مصطفى مضطرباً ومن حينٍ إلى حين ينظر إلى الساعة كبيرة الحجم ، المعلقة على أحد جدران (كافيه الزمن الجميل) ؛ ليرى عقارب الساعة تدنو من التاسعة ، ولكنها لم تبلغها بعد ، وحين نظر مرة أخرى فوجدها التاسعة فاعتدل إلى الوراء ، وكان لسانه على وشك أن يتفوه أن الضابط إبراهيم قد تأخر ، فإذ به يجده دخل الباب وعلى مقربة من الطاولة التي يجلسان حولها ، فأقبل الضابط إبراهيم وقال :

- السلام عليكم ورحمة الله .

فردَّ كلاهما معاً ، وتعلو وجهيهما ابتسامةٌ عذبةٌ :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وقال مصطفى بسرعة :

- في ميعادك بالظبط يا باشا .

فابتسم إبراهيم وقال :

- الكلام اللي هقوله كلام مهم جداً ، أنا عاوزكم معايا في عملية ، بس ممكن حياتكم تتعرض للخطر ، قولتو إيه ؟!

ازدرد مصطفى لعابه ، أمَّا عبد الرحمن فظلَّ كما هو ، وأومأ كلاهما برأسه موافقاً على كلام الضابط إبراهيم الذي استطرد :

- العملية هي إننا هنراقب بيت الدرويش من جميع نواحيه ؛ لأنه هيقوم بعملية ممكن بكرة أو بعده .

- بس أنا لحد علمي إن كان فيه عملية امبارح أو أول امبارح للدرويش ، و... .

- أيوة ، وقدر ينفذها رغم المراقبة والهجوم وكل حاجة ، وفيه معلومات بتقول إنه هينفذ عملية بكرة أو بعده .

- وهل سنكون نحن فقط ، أم سيدعمنا بعضٌ من رجال الشرطة ؟!

ساد الصمت بينهم ، وكأنَّ إبراهيم يفكر ، وزفر ببطء قبل أن يقولَ بصوتٍ خافتٍ تعالى تدريجياً :

- اعتبر لا هنكون لوحدنا ، بس أنا إن شاء الله هحاول أحظى بالدعم ، بس في أسوأ التوقعات مش هيبقى فيه دعم .

- طيب وليه يا باشا مش هيبقى فيه دعم ؟! أنت مش ظابط شرطة ولا ايه ؟!

قالها مصطفى وما زال القلق يملأ جوانحه ، فشهق إبراهيم في قلق وقال :

- بعد الإخفاق في العملية اللي فاتت ، الدرويش قدم شكاوي كدا فحولوني للتحقيق ، فأنا ممنوع من إني أطلع مهمات ، بس

العملية دي هي اللي هنقدر نمسك فيها الدرويش .
فأومأ مصطفى وعبد الرحمن متفهِّمين ظروف الضابط إبراهيم ، ومقدِّرين حرصه على تطبيق العدالة ، وقال عبد الرحمن :
- حسناً يا حضرة الضابط نحن معك ، ونحن نقدر اجتهادك وحرصك على تنفيذ القانون ، ونحن معك بكل جوانحنا .
- شكراً خالص ، توكلنا على الله ! أنا اخترتكم معايا أنتو بالذات ؛ لشجاعتكم وحرصكم على فعل الخير ، صحيح هو أنتو بتعرفوا تستخدموا السلاح ؟!
ردَّ مصطفى ، وقد بدأتْ علامات القلق تتلاشى :
- أنا بعرف أستخدم السلاح كويس ، بس مش عارف عبده بيعرف يستخدمه ولا لا !
- نعم أستطيع استخدام المسدس ، صحيح أنِّي لم أستعمله قبلاً لكنَّني أعتقد أنَّه سهلَ الاستخدامِ ، ولقد رأيت الأناس تستخدمه بسهولة .
فقال الضابط إبراهيم :
- إنك تشوفه شيء ، وإنك تستخدمه شيء تاني .
- لا بأس ، أستطيع استخدامه .
فصمتوا قليلاً ، قبل أن يقول الضابط إبراهيم خيري :
- تمام ماشي ، خلاص العملية هتبدأ من بكرة .. إحنا هنراقب البيت وإحنا في أتم استعداد ، وفي وقت التنفيذ هنهجم عليهم ،

وأنا إن شاء الله هقابلكم الفجر بعيد عن بيت الدرويش بشوية ، وهكون مجهز السلاح .. وكمان إن شاء الله أكون قدرت أجيب معايا قوة من المديرية .. تمام ولا إيه ؟!

فأومأ كلاهما برأسه مصدقاً لما قال الضابط قبل أن يقول الأخير:

- طيب حد عنده أي استفسار ... أو أي سؤال ؟!

فحرك مصطفى وعبد الرحمن رأسيهما يميناً ويساراً في آنٍ واحدٍ ، فأردف الضابط إبراهيم :

- وأنا إن شاء الله لو حصل أي تغيير في الخطة هتصل بيكم وأقولكم ، وبكرة هعيد لكم الخطة تاني لو فيه أي تعديل ، صحيح يا عبده هات رقمك علشان مش معايا .

أخذ الضابط إبراهيم رقم عبد الرحمن ، وودعهم بعد أن ذكرهم بموعد الغد ، وودعهما وانصرف في شأنه مفكراً فيما يجب أن يفعل حيال المَدَدْ الذي يريده من المديرية ، حتى استقر أنْ يطلبَ من اللواء عطية السيد ؛ فهو أخير مَنْ في المديرية ، وبالتأكيد لن يأبى أو على الأقل سيجد له حلاً .

أمَّا مصطفى وعبد الرحمن فانطلقا إلى المنزل ، سعداء نسبياً وقررا أن يناما مبكراً استعداداً ليوم غدٍ ، فلربما يكون اليوم الأصعب لكل منهما ، فكلاهما مهددٌ بفقد حياته ، وقررا ألَّا يخبرا أدهم ؛ نظراً لأنه مقبلٌ على زواج وعرس وأخيراً سيجتمع شمله مع الإنسانة التي أحبها وأحبته .

* * *

رفع الاستاذ علي وجهه والدموع تغمره من كل جانب ، وقد احمرت عينيه بحرقة ، أما لسانه فقد ثقل لدرجة أنه أحس أنه لن يستطيع التحدث مجدداً رغم رغبته الشديدة في التحدث عن أثقل أعبائه ، لعله يخفف عن نفسه بهذه الطريقة ، فاستجمع الاستاذ علي قواه ، وقال والدموع تنهمر على وجنتيه بحرارة والكلمات تقاتل شفتيه للخروج من فيه :

- أنا عملت كل اللي عملته .. موضوع الدروس دا أنا مش حابه .. ومش عاوزه بس .. المرتبات ضعيفة متكفنيش وزوجتي وأولادي أكل وشرب ولبس ومدارس وعلاج .. علشان كدا أنا عملت اللي عملته .

صمت قليلاً ؛ ليشهق بعنفٍ ، ويجفف بعضاً من عبراته ثم استطرد :

- وكنت غلطان يا ولاد .. كنت غلطان لما افتكرت إني بكدا هوصل للي أنا عاوزه ، عمرك ما هتوصل لحاجة أنت عاوزها طول ما أنت بتعصي ربنا ، مهما كان طول الفترة اللي الشخص بيفتكر نفسه فيها إنه صح وإنه كسبان .

وعند هذه اللحظة دق جرس انتهاء الحصة فأخذ الاستاذ علي يجفف دموعه حتى جففها كلها ولم يتبقَ على وجهه سوى حمرة

العينين والقليل من الشحوب على وجهه ، فخرج من الفصل وقبيل خروجه من الباب أخذ يسعل حتى يضبط نبرة صوته ، ويختلق بعض الابتسامات على وجهه ، وكلٌّ ذلك من أجل إخفاء أثر البكاء ولكن هيهات !

فقوة الحزن وشدته كانت أشد وأكثر تراكماً في صدره من الأفراح واللحظات السعيدة في الآونة الأخيرة ، لذا بدتْ كل ابتسامته مختلقة ولو كانت حقيقية ، وبهذا أحس الاستاذ علي براحة نفسية إثر إفصاحه عما في داخله ، ولقد أوصى جميع المدرسين قبلاً ألَّا يخبروا أيّاً من الطلاب عما حدث له وكان له ما أراد ، والآن أخذ عهداً آخراً على نفسه أن يكمل مع الطلاب كما بدأ معهم منذ عودته ؛ ليريح ضميره ، ويطمئن قلبه وتستقر عينه ، وجعل كلَّ هذا خالصاً لله .

أمَّا الطلاب فلقد كاد الحزن يميتهم سواء من فقدانهم لاثنين من أصدقائهم لقيا حتفهما في فترة وجيزة ، أو مما حكى معلمهم عن معاناته لفقدان ولده ، وظلوا طوال العام بقلوبٍ حزينةٍ منكسرةٍ ، وكيف لها أن تفرح بعد كل هذا الحزن وكل هذه المأساة التي شهدوها !!

ومرَّ بقية الفصل الدراسي ، وأوفى الاستاذ علي بالعهد الذي قطعه على نفسه تجاه تلاميذه ، ولولا كثرة ما شهد هو وتلاميذه من أسى لكان ذلك الفصل الدراسي أجمل الفصول على الإطلاق

في حياته منذ كان طالباً وفي حياة طلابه ، لكن ليس كل ما يُراد يدرك .

* * *

بالأمس ذهب أدهم ووالده وأمه إلى منزل شهد ، وقابلوا عائلتها وتقدموا لخطبتها لابنهما أدهم ، وقد لقوا جزاء معرفة العائلتين ببعضهما جيداً موافقة فورية من أهل شهد ، وأمَّا الفرح والسعادة فكانت مقسمة بالتساوي بين الأسرتين ، أمَّا فرحة شهد وأدهم فكانت عصية الوصف ، وقرَّرا أن يقيما حفل الزواج بعد اسبوعين من موعد اللقاء ، وفي اليوم التالي هاتف أدهم شهد تلفونياً وطلب منها أن يخرجا معاً ، لكن الأخيرة اعتذرت عن اللقاء متعلِّلةً أنَّها متعبة قليلاً اليوم ، وأدهم قد قدَّر ذلك وقرَّر ألَّا يضغط عليها ، وآثر أن يؤجل خروجهما معاً إلى يوم آخر .

أما شهد فلم تكن متعبة قليلاً كما زعمت في اتصالها بخطيبها أدهم ، بلْ كانت في أشد حالات الألم ، ولكنَّها آثرت ألَّا تخبر أدهم حتى لا تثير قلقه أو يتخذ الأمر مساراً أعظم من مساره ، وصمتتْ حتى أنها لم تخبر أمها بما تعانيه ، ولاحظت أمها ولكن ردها كان مطابقاً لما قالته لأدهم ، ولكن بعد مرور بعض الوقت لاحظت الأم عدم تغير شيء في الأمر ، فقررتْ أخذها ليفحصها الطبيب في المشفى ؛ لتطمئن عليها فالخوف بدأ يغزو قلبها .

بدأ الطبيب بفحص شهد فحصاً عادياً من خلال الأعراض وغيره ، فبدأ القلق ينتاب الطبيب الشاب الوسيم الذي يبدو من هيئته في الحلقة الثالثة من عمره ، فأخذ يفحصها باستخدام بعض الأجهزة المتطورة الحديثة فاضطرب قليلاً لكنَّه بالتأكيد أخفى هذا الاضطراب بشيء من الثبات إلى أن يتأكد ، وبعد أن أنهى استخدام الجهاز الأخير وهو جهاز للأشعة المقطعية في المشفى ، عاد مع شهد وأمها إلى حجرة الفحص مرة أخرى وكان كل ما تلفَّظ من كلمات :

- أنا هكتبلها على بعض التحاليل اللي هتعملها ، التحاليل دي هتعملها هنا في قسم التحاليل وهشرف عليها بنفسي ، وبعدها إن شاء الله هتبان كل حاجة .

وبعد أن انهار حبر القلم على إحدى الورقات حاملاً أسماء تلك التحاليل مع بعض أسماء أدوية وصفها لها الطبيب حتى تستطيع استعادة نشاطها وحيويتها ، رفع الطبيب الوسيم وجهه معطيا إياهم الورقتين ، قائلاً وابتسامة يبدو عليها الاصطناع زينت وجهه :

- ألف سلامة ، ومتقلقوش إن شاء الله .

أخذتْ الأم الورقتين وبادلتْ الطبيب بابتسامةٍ مصطنعةٍ أيضاً ، ومضتْ ساندةً ابنتها إلى قسم التحاليل ، وبعض مضيٍّ بعض الوقت أنهى الأطباء أخذ العينات وتركت أم شهد رقم هاتفهم

لإبلاغهم بالنتائج متى تظهر نتيجة التحاليل .
عادتْ شهد وأمها إلى المنزل بعد إحضار الأدوية ، وبينما تعطي الام الدواء لابنتها سمعا صوت رنين هاتف شهد ، فجلبته الأم فترى أنَّ أدهم هو المتصل ، فقالت بضيق رغم حبها لأدهم واحترامها له :
- إيه دا !! هو أدهم خطيبك لسة مفكر يسأل عليكي دلوقتي !!
فردتْ شهد بصعوبة بعد أن أخذت الهاتف من امها ، وأسكتت صوت رنينه وهي تتابع أخذ باقي الجرعات من الأدوية :
- هو اتصل بيا قبل ما تدخلي علطول وكان عاوزني أخرج معاه ، بس أنا مرضتش أقوله إني تعبانة قوي ، وقولتله إني مرهقة شوية ومش هقدر أخرج معاه ، فتلقيه بيتصل يطمن عليا .
ونظرت إلى الهاتف وكانت قد انتهت من أخذ الدواء ، وفي الوقت ذاته كان وقت جرس الاتصال قد انتهى ، فيظهر لها على شاشة الهاتف أن أدهم قد اتصل قرابة التسع مرات ، فقالت شهد بابتسامةٍ خافتةٍ :
- شوفي يا ماما أهو أدهم اتصل حوالي تسع مرات علشان يطمن عليا ، ظلمناه يا ماما .
فابتسمت الأم فرحاً أن خطيب ابنتها يحبها بهذا الشكل ، ويهتم لأمرها وأومأت برأسها وخرجت وأغلقت الباب لتترك

لابنتها الفرصة لتتحدث إلى خطيبها كما يحلو لها ، وبالفعل بعد ثوانٍ معدوداتٍ صاح صوت رنين الهاتف في الحجرة مرة أخرى ، لكنّ هذه المرة أجابتْ شهد وكان قولها :

- السلام عليكم .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

- ازيك يا أدهم ، عامل ايه ؟!

- الحمد لله تمام ، ايه يا شهد مش عاوزة تردي على الموبايل ليه ؟! وبعدين مال صوتك غريب كدا ليه ؟!

- معلش يا أدهم ، الموبايل مكنش معايا فمشفتوش .

ازدردت لعابها ، واستجمعت بعضاً من قوتها ، واستطردت :

- صوتي متغير لأني قولتلك إني تعبانة شوية .

- ما هو أنا بتصل بيكي علشان أطمن عليكي ، طمنيني عاملة ايه ؟! مش أحسن دلوقتي ؟!

- الحمد لله دلوقتي أحسن شوية ، على فكرة أنا وماما لسة جايين من عند الدكتور دلوقتي ؛ لأني فعلا تعبانة جداً .

فقال أدهم وبدا من صوته الاهتمام مختلطا بالقلق والخوف عليها :

- إييه ؟! مش تقوليلي يا شهد !! كان لازم ابقى موجود معاكم ، وبعدين تعبانة بالشكل دا كان لازم تقوليلي من الأول .

- معلش يا أدهم مكنتش حابة أقلقك .

فساد الصمتُّ بينهما قليلاً ، فقال أدهم :
- طيب أنا هجيلك أطمن عليكي بنفسي و... .
وبتر عبارته صوت شهد الشاحب قائلةً :
- لا لا يا أدهم متتعبش نفسك ، أنا لحد الصبح إن شاء الله هبقى كويسة مش عاوزاك تقلق .
- مقلقش إزاي ؟! أنا عندي مين غيرك أقلق عليه يا شهد ، أنتي مش محتاجة أقعد أتكلم عن غلاوتك عندي طبعاً وحبي ليكي ، أنتي عديتي المرحلة دي بكتير .
وهنا احمر وجه شهد ، وابتسمتْ باستحياء وقالتْ بصوتٍ شاحبٍ لكن يسوده الخجل :
- وأنا كمان والله يا أدهم ، بس أنا مش عاوزاك تتعب نفسك بس مش أكتر .
- طيب أنا هكلمك كل شوية أطمن عليكي ، ولو حصل أي حاجة تقوليلي ، لو حصل أي حاجة تقوليلي يا شهد !!
- هه حاضر يا أدهم .
- يلا مع السلامة يا أحلى شهد في الدنيا ، وألف سلامة يا حبيبتي .
وهنا ابتسمتْ شهد - فرغم كل شيء إلا أنها بطبعها خجولة – ، وقالت بصوتٍ خافتٍ :
- الله يسلمك يا ... حـ.. احم يا أدهم ، باي .

* * *

تعالى صوت رنين الهاتف المنزلي فجأة في منزل السيد اللواء عطية السيد ، الذي كان يجلس منفرداً في حجرة مكتبه حين سمع صوت الهاتف فأمسك سماعة الهاتف ، فكان صوت المتصل هو الأسبق قائلاً :

- ألو، ممكن أكلم سيادة اللوا عطية السيد .

- أيوة معاك ، مين معايا ؟!

- أنا إبراهيم خيري يا فندم ، أخبار حضرتك ؟!

- أهلاً وسهلاً يا إبراهيم ، الحمد لله .

- أنا آسف يا فندم إني اتصلت في وقت زي دا ، وكمان على رقم البيت .

- لا يا إبراهيم ولا يهمك يا حبيبي ، اتفضل .

- يا فندم أنا بطريقة معينة قدرت أتوصل إن الدرويش هينفذ عملية خلال اليومين اللي جايين دول ، فكنت عاوز حضرتك تسمحلي ب ... .

- يا إبراهيم أنت عارف القانون ، أنت موقوف عن العمل مؤقتاً لحين التحقيق معاك ، فمقدرش أطلعك في مأمورية .

- يا فندم أنا عاوز قوة تدعمني علشا... .

- مقدرش يا إبراهيم أنت عارف القانون كويس .

- ماشي يا فندم .
- معلش يا إبراهيم يا ابني .
- تمام يا فندم ، مع ألف سلامة وبعتذر مرة تانية .
- لا يا ابني ولا يهمك ، مع السلامة .

صمت إبراهيم وكأنَّ عقله قد جفَّ فكره ، ومن ثم زفر بعنفٍ ثم أخذ يفكر في أنَّه لو أخبر عبد الرحمن ومصطفى عما قاله السيد اللواء ، ربَّما تهبط عزيمتهما – بالرغم من أنه يثق بشجاعتهما – أو تحبطهما ، ففكر في أنه من الأفضل ألَّا يخبرهما أنه لن يستطيع الاستعانة بالقوة .

ماذا يجب أن يقول لهما ؟! وأخذ إبراهيم يفكر و يحك رأسه بأنامله ، وهنا برقت عيناه وجيء بخاطره أن يقول لهما أن القوة ستراقبهم من بعيد ولن يتدخلوا إلَّا عند الحاجة ، على هذا الرأي استقر وقال في نفسه أن وقت النوم قد حان ؛ لأنه سيصحو مبكراً وقد لا يتذوق للنوم طعماً إلى أجلٍ غير مسمى ، فكان أفضل خيارته هو النوم .

وقبل أن ينام وعندما وضع رأسه على الوسادة ، أخذ يفكر في مهمة الغد ، وفجأة برقت عيناه فقفز من على فراشه وأسرع يمسك هاتفه فأجرى اتصالين سريعين لم يتجاوز أحدهما الثلاثين ثانية ، كان في كلِّ واحدٍ فيهم بعد أن يلقى التحية يطلب منه مقابلته فوراً ، وبعد ذلك انطلق مسرعاً بسيارته حتى يقابل

هذين الرجلين .

* * *

في فجر اليوم التالي .. كان يقف عبد الرحمن بثبات وبسالة بجوار مصطفى الذي بدا عليه الاضطراب والقلق ، لكنه يحاول التماسك ، وكانا يقفا كما اتفقا مع الضابط إبراهيم على مسافةٍ ليست بالقليلةِ بعيداً عن بيت الدرويش حين أقبل عليهم الضابط إبراهيم بابتسامته العذبة وكان يحمل حقيبة على ظهره ، فألقى السلام وصافحهما قبل أن يقول :

- كويس يا رجالة أنتو ما شاء الله جيتوا قبل الميعاد ، تمام مفيش أي تعديل في الخطة ، تحبوا نراجعها على السريع كدا .

فأومأ كلاهما برأسه نفياً قبل أن يقول مصطفى :

- أمال فين القوة يا باشا ؟! أنا مش شايف حد غيرنا .

هنا تردَّد إبراهيم قليلاً قبل أن يقول :

- آه .. آه هم معانا ، بس هيراقبوا من بعيد وكمان ... .

وهنا قطع حديثهما شابان في الثلاثينيات من عمرهما ، وقالا في صوتٍ واحدٍ :

-السلام عليكم .

فرد الجميع السلام في صوتٍ واحدٍ أيضاً ، وابتسم إبراهيم وهو يشير إلى أحد الشابين وهو يقول :

- دا شكري ، ودا التاني دا عزيز ، اتنين ظباط في منتهى الاحترام والصرامة ، وكانوا معايا في العملية اللي فاتت بتاعت الدرويش .
ازدرد إبراهيم لعابه ثم استطرد :
- ودول هيراقبوا معانا بس من قريب ، وإن شاء الله الهجوم لو حصل هيبقى موفق .

وهنا تهلَّلْت أسارير مصطفى الذي كان مضطرباً ، أمَّا عبد الرحمن فلم يبدو عليه أيُّ نوع من القلق منذ عرف بالمهمة من الضابط إبراهيم ، وقسَّموا أنفسهم جزئين ، أحدهما يراقب الباب الأمامي وكانوا مصطفى والضابط شكري والضابط عزيز ، والآخر وهما الضابط إبراهيم وعبد الرحمن وسيراقبا الباب الخلفي ، ومضى كلٌّ منهم لتنفيذ مهامه .

* * *

أسند اللواء عطية السيد ظهره إلى الوراء وهو جالس في حجرة مكتبه في مديرية الأمن ، وعقله منغمسٌ في التفكير إلى أقصى الدرجات ، ثم جيء بباله أن يناقش الأمر مرة أخرى مع إبراهيم لعله – إن تأكد من صحة أنباء الضابط إبراهيم - أن يجد حلاً آخرَ يقبض به على الدرويش .

التقط اللواء عطية سماعة هاتفه ليهاتف الضابط إبراهيم ، فاتصل برقم منزله فلم يجب ، فلم يجد حلاً إلَّا أن يتصل على

رقم هاتفه المحمول فإذ به يجده مغلقاً ، فجحظت عيناه وأول ما اتجه إليه عقله هو أن إبراهيم ذهب لينفذ المهمة منفرداً ، مما يعني أن حياته على المحك ، فأراد أن يتأكد من شكوكه فحاول الاتصال به مجدَّدَاً لكن هذه المرة وجد رداً من إبراهيم حيث قال الأول :

- أيوة يا إبراهيم ، أنت فين ومبتردش على التليفون ليه ؟!

- أنا في البيت يا فندم .

- أمال مش بترد على التليفون الأرضي وكمان موبايلك مقفول ليه ؟!

فتظاهر إبراهيم أنه استيقظ تواً من نومه ، واخذ يقول :

- معلش يا فندم ، كنت نايم فمسمعتش التليفون ، وكنت قافل الموبايل .

- لا ولا يهمك يا إبراهيم ، معلش يا إبراهيم صحيتك من نومك .

- لا لا ولا يهمك يا فندم ، أنا تحت أمرك في أي وقت .

وازدرد إبراهيم لعابه ، ثم أردف :

- صحيح يا فندم هو فيه حاجة ولا إيه ؟!

- لا لا بس كنت بطمن عليك .

- شكرا لحضرتك يا فندم ، أنا الحمد لله تمام .

-ماشي يا إبراهيم ، مع السلامة .

- مع السلامة .

انتهتْ المكالمة لكن السيد اللواء ليس ساذجاً ، فلقد كان ظاهراً من صوت الضابط إبراهيم بعد أول جملة أنَّه لم يكن نائماً ، وعلم اللواء عطية أنَّ إبراهيم يخفي شيئاً ما ، وأي أمر قد يخفيه إبراهيم وفي هذا التوقيت بالذات غير أمر الدرويش ، لكن جال بخاطره فوراً سؤال جعله يفكر كثيراً ، ألَا وهو ما الذي ينوي إبراهيم فعله ؟! ما الذي يخطط له ؟!

أحقاً سيذهب إبراهيم ليقبض على الدرويش بمفرده ؟! بالتأكيد لا ، فإبراهيم ليس ساذجاً إلى هذا الحد ، كما أنه ليس من هذا النوع الذي يستسلم لعواطفه خاصةً فيما يخص عمله ، ولكن إن كان ينوي القبض على الدرويش - ومحظورٌ عليه استخدام كافة صلاحياته كضابط شرطة – فبمن عساه يستعين ؟! كل هذه أسئلة تجوَّلت بخاطر اللواء عطية السيد فقرَّرَ أنه يجب عليه التحقق من كل هذه الشكوك ، فماذا عساه أن يفعل ؟! أيبعث لإبراهيم ويناقش ويتفق على عرضه السابق يوم جاء إلى مكتبه ، أم يبعث هو قوةً لتنفيذ المهمة ؟!

فكر وفكر وإذ به يضغط زراً موجوداً على أحد جوانب مكتبه الخشبي المزخرف ببراعة ، فيدخل على الفور أحدُ العساكر الذي أدى التحية العسكرية قبل أن يقول له اللواء عطية بصوتٍ أشبه بالهمس :

- ناديلي الظابط خليل الجمل بسرعة .

أدي العسكري التحية العسكرية ثم انصرف ، أما اللواء عطية السيد فبدتْ على وجهه شبح ابتسامة ، ثم أشبك أطراف أصابعه ببعضهم أمام صدره منتظراً قدوم الضابط خليل .

* * *

تجلس الآن شهد وأمها في إحدى حجرات المنزل ، تشاهدا التلفاز حين ارتفع رنين الهاتف المنزلي ، فأمسكتْ أم شهد سماعة الهاتف ، فإذ بالمتصل يقول :

- ألو ، دا منزل الاستاذة شهد ؟!

- أيوة ، مين ؟!

- حضرتك إحنا معمل التحاليل ، هو حضرتك الاستاذة شهد ؟!

- أنا مامتها ، اتفضل .

- حضرتك نتيجة التحاليل بانت ، تقدروا تيجوا تاخدوها .

ولم يكن الرجل المتصل يعرف هذه النتيجة ، فهو موظَّفٌ للإبلاغ فقط ، فقالتْ الأم لابنتها :

- شهد ، نتيجة التحاليل بانت ما تيجي نجبها .

فقالتْ شهد بعدما شعرت الآن بتحسن ، وتكاد تكون تلاشت علامات المرض نهائياً أو هكذا تصورت :

- يا ماما سيبك منه ، أنا خلاص خفيت .

- لا يا شهد علشان نطمن ، يلا روحي غيري هدومك علشان

نروح .
فمطتْ شهد شفتها كالأطفال الصغار ، وقامت غير راضية عن الذهاب ؛ فهي تظن أنها تعافتْ .
وذهبا معا إلى المشفى ؛ ليعرفا نتيجة التحاليل فإذ بشابٍ يقابلهم مبتسماً ، فتقول له أم شهد :
- المعمل لسة مكلمنا من نص ساعة ، وقالوا نتيجة التحاليل بانت .. فين حضرتك النتايج ؟!
فردَّ الشاب مبتسماً :
- أيوة يا فندم ، وأدي النتيجة أهي .
وأعطاهم حزمة صغيرة من الورق ، فأمسكت بها شهد واستطرد :
- مبروك يا فندم ، التحاليل بتقول إنك سليمة الحمد لله ومعندكيش حاجة .
وهنا اشتعلت السعادة لتغمر جوانحهما كلها ، وتهلَّلْت أساريرها ، وشَكَرَا الشاب الوسيم قبيل انصرافهما ، ووصلا إلى المنزل فقالتْ شهد:
- مش قولتلك يا ماما ، أنا معنديش حاجة أنا هروح أغير هدومي بقى .
ولدى صعودها أولى درجات السلم ارتفع رنين الهاتف مجدداً ، فتوقفت في مكانها فردت الام على الهاتف فإذ بنفس الشاب يقول في عجلة :

- أنا آسف جداً جداً يا فندم حصل غلط ، النتايج اللي شفتوها مش بتاعتكم دي بتاعت مريض تاني ، إحنا آسفين جداً جداً .
قال وكانت الكلمات تتصارع للخروج من فمه ، واستطرد بعد أن ازدرد لعابه وقد هدأ صوته :
- يا ريت حضرتك تجيبي لنا النتايج اللي معاكي وتيجوا تاخدوا بتاعتكم .
- حاضر، مسافة الطريق .
وأنهتْ المكالمة ، وقالتْ لشهد :
- تعالي ، النتايج دي مش بتاعتنا دي جتلنا بالغلط ، تعالي نوديها ونجيب بتاعتنا .
- لااا يا ماما مش هروح تاني ، وبعدين أنا قولتلك إني سليمة ومعنديش حاجة .
فابتسمتْ الأم ، وبطريقة أو بأخرى اقنعتْ شهد أن تذهب معها ، وذهبا إلى المشفى لنفس الغرض من أجل التحاليل .

* * *

دخل شاب يبدو في الثلاثينيات من عمره ، وأدى التحية للعسكرية قبل أن يقول اللواء عطية السيد :
- تعالى يا خليل اقعد عاوزك .
فجلس الضابط خليل ، وقال:

- خير يا فندم ؟!
- إبراهيم فين يا خليل ؟!
- إبراهيم ! معرفش والله يا فندم .. آخر مرة كلمته ساعة عملية الدرويش .
- طيب ، هكلفك بمهمة انت لوحدك ، ماشي ؟!
- تحت أمرك يا فندم .
ابتسم اللواء عطية ابتسامةً عريضةً ، واخذ يشرح للضابط خليل المهمة التي يريده فيها .

* * *

تدنو الساعة الآن من الثانية عشر ظهراً عندما كان يقف إبراهيم مع عبدالرحمن ، ومنذ وقوفهما مع بعضهما وقد علم كل منهما الكثير عن الآخر ، وفي أعماق كل منهما أحب كل منهما شخصية الآخر وطريقة تفكيره ، وبينما كانا يتحدثان كانتْ عيونهما مصوبة ناحية باب الدرويش ، الذي كان مغلقاً ولم يُفتح منذ مراقبتهما له ، سمع إبراهيم رنين هاتفه وإذ به يبتسم ويضرب جبهته بكفه قبل أن يرد على المتصل ويقول :
- خليل صاحبي اللي واحشني .
وقد أحس إبراهيم بشيءٍ من الندم ، أنَّه نسي خليل وهو أعز أصدقائه ، وكان لينفعه في مثل ظروفه هذه ، واستفاق من شروده

برد خليل الذي قال :
- إيه يا هيما ، محدش لا شافك ولا سمع صوتك من ساعة عملية الدرويش ، إيه فينك ؟!
- أديني أهو تحت النظر يا صاحبي و.. .
وهنا اشتعلت في ذهنه فكرة الاستعانة به في أداء تلك المهمة ، فاستطرد :
- بقولك يا خليل ، عاوزك في خدمة .
ابتسم خليل ابتسامةً خبيثةً عندما ردَّ :
- اتفضل يا حبيبي اطلب اللي أنت عاوزه .
-أنا عاوزك تساعدني في مهمة كدا بس مش عاوز أي حد يعرف عنها أي حاجة خالص ، ماشي؟!
- من عنيا يا صاحبي ، امتى وفين ؟!
- دلوقتي حالاً ، هات سلاحك وتعالى دلوقتي .
- دلوقتي ! فين ؟!
- قدام بيت الدرويش .
- إيه ؟! قدام بيت الدرويش!
- أيوة ، هات سلاحك وتعالى بسرعة وأوعى تقول لأي حد .
- امم ماشي جايلك .
أنهيا المكالمة وابتسم كل منهما ، فإبراهيم وجد عوناً قد يساعده وازداد عددهم لتزداد فرصة قبضهم على الدرويش ،

أمَّا خليل فسعيد لسببين ، الاول فهو أن خطتته مع اللواء عطية السيد تسلك سبيلها للنجاح ، وأمَّا الثاني فهو أخيراً سيعمل بجانب صديقه إبراهيم جنباً إلى جنبٍ ، وكتفاً إلى كتفٍ وإن كان على سبيل المساعدة ، وبالفعل استهلَّ خليل سبيله إلى بيت الدرويش ؛ ليكون مع صديقه إبراهيم ، ووقف معه عند نفس الباب الذي يقف عنده – بعدما لقي ترحيبا حاراً ممتزجاً بالشكر الجزيل – وأصبحوا الآن ثلاثة عند كل باب .

* * *

- أنا آسف جداً جداً يا فندم معلش ، النتايج اتلغبطت في بعضيها معلش .

قالها ذلك الموظف لحظةَ استقباله لشهد وأمها وقالتْ الأخيرة :

- لا لا ولا يهمك .

- اتفضلوا النتيجة أهي .

وأعطاهم مجموعة أوراق مغلفة ، فأمسكتْ بها شهد قبل أن يستطرد الأول :

- بس للأسف ، محدش يقدر يفتحه إلَّا الطبيب المعالج .. دي تعليمات المستشفى ، ألف سلامة .

قالها بنفس تلك الابتسامة – كتلك التي قابلهما بها، وودعهما بها – التي ما لبثت أن اختفتْ عندما استدارا مغادرتين الحجرة ،

بعد أن كرَّر الرجل اعتذاره مجدَّداً .

وصلتا شهد وأمها عند الطبيب المعالج ، الذي أيضاً حين رآهما ما لبث أن تبسَّم ابتسامةً لا تختلف كثيراً عن تلك الذي يفتعلها موظف التحاليل ، ورحَّب بهما أيضاً واستلم منهما النتائج ، وأوشكت ابتسامته أن تتلاشى ، لكنَّه تماسك وقال:

- لو سمحتي يا آنسة شهد ، ممكن تسيبينا أنا ومامتك لوحدنا شوية .

فنظرت إلى أمها بتعجبٍ ، ورفعت إحدى حاجبيها ، ومن ثم انصرفت للخارج ، وكانتْ تراقبها عيون أمها والطبيب وعندما تخطت قدماها الباب ، بدأتْ شهد بغلق الباب ، تحول بناظريه إلى أم شهد وقال :

- يا مدام ... .

وخلع نظاراته الطبية ووضعها على مكتبه واستطرد :

- يؤسفني إني أقولك إن بنت حضرتك عندها ... سرطان في الدم .

جحظت عيون الأم عند سماعها هذا النبأ ، وقبل ظهور أي رد فعل على الأم المسكينة فُتح الباب ؛ لتسقطِ شهد فاقدةً الوعي ، وهنا أدرك الطبيب أنَّ الباب لم يغلق كليَّاً ، وأنَّ شهد كانتْ تسمعهما من خلف الباب ، كان هذا عندما أسرع نحوها هو وأمها التي ما لبثْ أن وقفت من فوق كرسيها - التي كانت تجلس عليه – حتى سقطت هي الأخرى فاقدةً الوعي ؛ حزناً وألماً

على ابنتها شهد ، وطلب الطبيب المساعدة من الخارج ، وقام بكل ما هو لازم لهما حتى يستفيقا .
وبعد بضع دقائقٍ استفاقتْ الأم ، وهبتْ هبةً فجائيةً فاعتدل نحوها الجميع – الطبيب وزوجها وأدهم – وكان الفزع يملأ أحداقها وهي تصرخ :
- شهد .. شهد .. هي فين ؟!
وأخذتْ تلتفت يميناً ويساراً عند صراخها ، حتى وقعت عيناها على ابنتها الراقدة بجوارها حتى ازداد جحوظ عينيها وارتفع صوت صراخها وهي تنادي عليها ، وأخذت تقوم من مكانها مسرعةً حتى تذهب لابنتها ، فعرقلها كل الوصلات والمحاليل المتصلة بساعدها فمزقتها وأبعدتها عن يدها ومضتْ نحو ابنتها ، وكان الجميع يحاول منعها لكنَّها آنذاك كأنها فقدتْ حاسة السمع والرؤية عدا رؤيتها لابنتها الراقدة ، وأخذتْ تهزها وهي تناديها ولم تستفقْ الأم إلَّا على صوت الطبيب وهو يقول من خلفها محاولاً تهدئتها :
- يا مدام بنتك مفيهاش حاجة ، هي كويسة اطمني .
وهنا فتحت شهد عينيها والتفتت نحو أمها وأمسكت بيدها ، وهنا كأن الروح قد عادت إلى أمها بعد فقدانها فدبتْ فيها السعادة تغمرها من كل جانب ، ومن ثم قرَّرَ الأب والأم بعد أنْ استعادتْ شهد وعيها أن يأخذاها إلى المنزل ، وأمَّا أدهم فوسط

كل هذا كان يشارك بانفعالاته وعواطفه ، ولأكثر من مرة كاد لسان أدهم أن يتفوه لا إرادياً ؛ ليسأل ما الذي يجري لكنَّه رأى أن الوقت ليس ملائماً وسط كل ما رأى ، فآثر تأجيل السؤال ولو لبعض حين .

وكان أدهم أول الجالسين بجوار شهد ، وحين استفاقت كان أول من أشرق ضوء عينيه ، وبينما كان والداها يتحدثان مع الطبيب لينقلوها إلى المنزل ، أخذ يتحدث إليها ويقول لها :

- كدا يا شهد ، مش تقوليلي إنك تعبانة وكمان روحتي عند الدكتور ، كدا تخليني أعرف بالصدفة .

فنظرتْ شهد للأسفل خجلاً وإحساساً بالتقصير ناحية خطيبها وزوجها المستقبلي إن شاء الله لهما أن يكونا ، وقبيل نطقها دخل والدها ووالدتها ، وقال والدها :

- يا شهد إحنا اتفقنا مع الدكتور إننا هناخدك البيت ؛ لأن البيت هيبقى أريحلك من هنا ولا ايه رأيك يا أدهم ؟!

- صح يا عمي ، وأنا هروح أجهز العربية بتاعتي .

وانطلق مسرعاً إلى الخارج ؛ ليعد السيارة كما وعد و شهد تراقبه ، وما إن خرج حتى اغرورقتْ عيناها بالدموع بحرقةٍ ، فاحتضنتها أمها ؛ لتهدئ من روعها وربتت على كتفها وظهرها حين قالتْ شهد :

- ماما، بابا، محدش يقول لأدهم إني ... إني عندي السرطان ، أنا

مرضتش أقوله دلوقتي لكن هقول بعدين بطريقتي .

وازداد انهمار الدموع على وجنتيها التي ما لبثتا أن استحالتا من ناصعتين محمرتين كالورد في ساعة الإصباح إلى شاحبتين باهتتين بمجرد معرفة ذلك النبأ المشؤوم .

* * *

بعد مضيٍّ بعض الوقت ، جاءتْ اللحظة المنتظرة ، ومن الباب الرئيسي سيارتان إحداهما نصف نقل والأخرى سيارة خاصة (ملاكي) يجلس بداخلها الدرويش في الكرسي الخلفي والسائق وأحد أتباع الدرويش ، وأمَّا الأخرى ففيها كمية لا بأس بها من الفاكهة والخضروات ، وهنا هاتف الضابط عزيز إبراهيم فَوْرَ رؤيته لسيارات الدرويش وهي خارجة ، وبسرعة ذهب إبراهيم وخليل وعبد الرحمن إلى حيث يجلس الآخرون ، وقال إبراهيم :

- بصوا يا رجالة ، إحنا مش هنغلط نفس الغلطة بتاعت المرة اللي فاتت ، إحنا هنستنى لغاية مكان التسليم ، تمام ؟!

فأومأ الجميع برأسه موافقين ، فازدرد إبراهيم لعابه فى قلق ثم استطرد :

- كله يجهز سلاحه ويلا بينا ، إحنا هنركب عربيتي ، وهنمشي وراهم من بعيد لبعيد .

وبالفعل ركبوا السيارة ، وتتبعوا سيارات الدرويش الذي بدوره

أخرج هاتفه وقال:
- إحنا هنمشي على الخطة اللي اتفقنا عليها ، هتيجي معانا ؟!
فردَّ الضابطِ حسن مهران :
- لا لا ، بس قولي على الأخبار أول بأول .
- طيب .

وأغلق الهاتف واستمر في طريقه على الطريق الصحراوي ، ووقف عند مكان شبه مهجور وما حوله كله صحراء ، وظلَّ واقفاً ، أمَّا إبراهيم ورفاقه فكانوا يقفون بعيداً في موضعٍ حيث لا يستطيع الدرويش رؤيتهم ، وظل الدرويش منتظراً ومن الواضح أنه ينتظر الطرف الآخر للتسليم ، وإذ بسيارتين خاصتين تقبلان عليه فينزل منهما رجل تبدو عليه الهيبة ، كان قصير القامة لكنَّه ليس نحيفاً ، ويبدو من بعيد شبيهاً بشخصٍ يعرفه إبراهيم ، كان يلبس نظارات شمسية ، وكان يحيطِ به خمسة من رجاله .

* * *

رفع أدهم هاتفه المحمول ، فإذْ به يتصل بشهد ويقول :
- ألو، ازيك يا شهد ، عاملة ايه ؟!
فردتْ شهد بعد أن أحستْ بتحسُّنٍ ، ولقد كانت شهد واعيةً ، مثقفةً ، تعرف أنَّ الحالة النفسية لها عظيم الأثر ، وأن حالتها – إذا ساءت حالتها تفسية – قد تزداد سوءاً وبسرعة ، شهقت

شهد وقالت :

- ازيك يا أدهم ، الحمد لله تمام ، أنت عامل ايه ؟!

- أنا الحمد لله تمام طول ما أنتِ كويسة .

وازدرد لعابة ثم استطرد :

- إيه اللي حصل امبارح دا يا شهد ، يعني إيه السبب ؟! والدكتور قالك إيه ؟! طمنيني !

- أدهم ، أنا عاوزة أقابلك دلوقتي .

- ماشي ، بس جاوبي على أسئلتي الأول .

- معلش ، خليها لما نتقابل يا أدهم .

- طيب ، عاوزة تروحي فين ؟!

- فاكر أول مكان اتقابلنا فيه يا أدهم ؟!

- آه طبعاً ، ودا مكان أو دي ساعة تتنسي .

- خلاص قابلني هناك بعد ساعة من دلوقتي يا أدهم .

- شهد ، فيه حاجة ؟! أنا مش مطمن لو فيه حاجة قولي لي .

- لا مفيش حاجة ، بس لما نتقابل هقولك .

- ماشي يا شهد ، أشوفك بعد ساعة ، باي.

- باي .

وبعد أن أنهتْ شهد المكالمة ، اغرورقتْ عيناها بالدموع ألماً وحزناً على نفسها وعلى خطيبها الذي يحبها جداً وتحبه أكثر ، وخرجتْ من غرفتها متجهةً إلى حجرة الصالة حيث تجلس أمها

منكوبةً ، حزينةً ، فذهبت إليها شهد فلقد كانت الأولى أقرب خلق الله إلى قلب شهد ، وجلستْ شهد بجانبها وكانت بداية حديثهما لشهد التي قالت والدموع تقاوم الانهمار :

- ماما ، أنا هقابل أدهم بعد شوية و... وهسيبه .

وهنا لم تستطعْ مقاومة الدموع أكثر ، فانهارتْ على وجنتيها واستطردت :

- أنا مش عاوزة أظلمه معايا ، أنا خلاص يعتبر في تعداد الموتى .. .

- لا لا يا بنتي متقوليش كدا ، إحنا إن شاء الله هنعالجك وهتخفي وترجعي أحسن من الأول .

واحتضنتها بحرارة وسالت دموعها هي الأخرى ، وأخذت تربت عليها ؛ لتهدأ من روعها .. فكيف ذلك والفزع والأسى يملآها أكثر من ابنتها !! لكنَّها لم تعلق ولو بكلمة على أمر أدهم ، مما يعني اتفاقها مع شهد في مشهد كان سيده (الحزن والدموع) .

وبالفعل وصلتْ شهد في الموعد المتفق عليه ، ووجدتْ أدهم في انتظارها ، وصافحها بحرارة وكذلك هي ولولا حيائها لألقت بنفسها – جسداً وروحاً – بين زراعيه ، لكنَّهما اكتفيا بالمصافحة الحارة وبعض النظرات المليئة بالشوق ممتزجاً بالحزن ، وجلسا معاً فقال أدهم :

- ازيك يا شهد عاملة ايه ؟! واحشاني قوي يا شهد .

وهنا تمالكتْ شهد نفسها من البكاء ، وردتْ :

- الحمد لله يا أدهم ، وأنت واحشني أكتر والله .
- خير يا شهد طمنيني عليكي ، أديني جيت هنا مستني أسمع بقا .
- مستني تسمع إيه يا أدهم ؟!
قالتها وابتسمتْ على استحياءٍ ، فبادلها أدهم بالابتسام وقال :
- والله العظيم واحشاني قوي يا شهد .
وازدرد أدهم لعابه ، وأردف :
- صحيح بجد يا شهد إيه اللي تاعبك ؟! والدكتور قالك إيه ؟! وليه مش عاوزة تقوليلي ؟!
وضعتْ شهدٌ رأسها أرضاً .. لا تدري ماذا يجب أن تقول ؟! قبل أن ترفع رأسها وتقول :
- أدهم ، أنت عارف أنا طلبت نتقابل هنا ليه ؟!
- يووه يا شهد ، أنتي ليه بتتهربي من أسئلتي دايماً .
- معلش يا أدهم ، هتعرف كل اللي أنت عاوزه بس أمشي معايا في الكلام .
زفر أدهم في غير رضاً ، ثم قال :
- ماشي ، ليه اخترتي المكان دا بالذات ؟!
- لأنه أول مكان اتقابلنا فيه ، وآخر مكان هنتقابل فيه !
- إيه ؟!
وهنا انهمرت الدموع من أحداق شهد بغزارة ، كغضب السماء في

يومٍ عاصفٍ في أحد أكثر فصول الشتاء قسوةً ، قبل أن تستطرد :
- أيوة يا أدهم إحنا لازم نسيب بعض ، علشان لو فضلنا مع بعض يبقى بظلمك معايا .
ردَّ أدهم والذهول يملأه لدرجة شعر بثقل لسانه عندما أراد التحدث :
- ليه يا شهد ؟! ليه ؟! ليه عاوزة تحرميني منك ؟! أنتي مش عارفة إن وجودك يعني سعادتي ، يعني حياتي ، ليه عاوزة تحكمي عليا بالحزن طول عمري ، ليه كدا يا حبيبة قلبي ، أنا بحبك يا شهد .
واحمرَّ وجهه وأوشكتْ عيونه أنْ تمطر دمعاً ، أمَّا شهد فظلت دموعها تنهمر على وجنتيها من دون توقف ، وأخذت تستطرد بصعوبة ، وكأنَّ الكلمات رقَّتْ لحال أدهم فأبتْ الخروج :
- يا أدهم أنا عارفة إنك بتحبني ، بس إحنا لو كملنا مع بعض هجرحك جرح عمرك ، وهجرح قلبك يا أدهم .
قال أدهم وقد بدأتْ عبراته الحارة تنهمر ببطءٍ ، ورقةٍ على وجنتيه اللتان أصابهما الشحوب :
- شهد أرجوكِ ، اجرحيني ، اجرحي قلبي لكن مش تقتليه .
وهنا أجهشتْ شهد في البكاء والنحيب كما الأطفال الصغار ، وفجأةً وقفت من على كرسيها ، وحمرة وجهها تكاد تقترب من لون الدماء ، ودموعها قد ازداد انهمارها كما السيل ، فوقف أدهم بدوره فإذ بشهد تلقي بنفسها بين ذراعي أدهم الذي فوجئ ،

لكنَّه احتواها بكل ما أُوتي هذا العالم أجمع من رقةٍ ، وحنانٍ ، ورفقٍ ، وبدورها شهد لم يسبق لها أن شعرتْ بمثل هذا الكم من الدفء ، والرفق ، والحب ، فقالتْ وهي تبكي بين ذراعيه :
- أنا بحبك قوي يا أدهم ، وكان نفسي أكمل معاك للآخر بس ... .
وهنا رفعتْ عينيها لتلتقي بعينه ومازال جسمها في حضنه ، واستطردت ومازالتْ الدموع تجري على وجنتيها :
- بس أنا لما كشفت في المستشفى والدكتور قال لي إني عندي سرطان في الدم ... .
ودفنتْ وجهها في حضنه وأجهشتْ في بكاءٍ مخيف يكفي ليُفزع أقسى القلوب ويجعلها ترق ، أمَّا أدهم العاشق الوفيُّ ، المسكين ، فأصابه الذهول وجحظت عيناه ، وظلَّ لبرهةٍ صامتاً ، عاجزاً عن النطق رغم أن في صدره الكثير ليقوله ، فما كان منه إلَّا أن أخذ يربت على كتف شهد ، وقال والحزن يأكل في جسده وذهنه كأبشع الحيوانات المفترسة وأخطرها :
- متقلقيش يا شهد ، أنا معاكي وعمري ما هسيبك أبداً ، وهوديكي لأفضل المستشفيات وأنجح الأطباء في العالم ، وإن شاء الله هتخفي .. هتخفي يا حبيبتي .
وبدأتْ عبراتُه تنهمر برفقٍ على وجنتيه من شدة الأسى ، وشعر بحزنٍ لم يشعر بمثله قبلاً ، أمَّا المسكينة فلقد تراجعت من بين ذراعيه ، وقالتْ ووجهها قد اتجه لأسفل :

- أنا آسفة يا أدهم ، آسفة جداً ، أنا .. مستحيل أظلمك معايا وهعتبر نفسي مسمعتش حاجة من اللي أنت قولته .

- بس أنا عاوزك يا شهد ، واستحالة أتخلى عنك أبداً أبداً مهما حصل ، وأنا واعي أنا قولت إيه وفعلاً عاوزك ، وهعالجك إن شاء الله ، متقلقيش .

ونظرتْ شهد إلى عينيه ، ورُغْمَ أنَّ دموع عينيها كانت تحجب أو تعوق جيدَ رؤيتها إلَّا أنَّها رأتْ الرقة ، والرفق ، والحب الحقيقي بوضوحٍ تامٍ ، مما جعل حزنها يتضاعف ، وقالتْ :

- فكر تاني وتالت يا أدهم .

وانصرفتْ مسرعةً إلى منزلها ، ودموعها لم تجفْ بعد ، أمَّا أدهم فما كان منه إلَّا الوقوف جامداً ودموعه تسري على وجنتيه ، ولم يلحق بها بل لم تحمله قدماه من ثقل همه وسقط جالساً على كرسيه الذي كان يقف على مقربةٍ منه .

الفصل السادس عشر والأخير

وقف الدرويش وهذا الرجل الذي سيتمم معه الصفقة ، وبعد حديثٍ - لم يقصر ولم يطل – بدأت عملية التسليم ، وجلب رجال الدرويش المخدرات من سياراتهم ، وأحد رجال الرجل الآخر جلب حقائب المال من سياراتهم ، وأخذ كلٌّ منهما يفتح حقائبه ليريها للآخر عندما أتى صوت إبراهيم يقول وهو يشعل مسدسه :

- يلا يا رجالة ، عبده وخليل تعالوا معايا من ناحية الرجل دا ، وأنتو من الناحية التانية بسرعة .

وانطلقوا كما أُمروا ، وعند فتح الحقائب وبدت المخدرات مكشوفة للأعين ، أتى صوت إبراهيم يصرخ بعدما حاصر رجاله المكان :

- اثبت مكانك أنت وهو ، المكان كله محاصر .. محدش يتحرك من مكانه .

وصُعِقَ إبراهيم والباقون عندما رأوا وجه الرجل الذي أتى ليستلم المخدرات من الدرويش !! إنه هو ، نعم هو .. أيعقل ذلك ؟! إنه اللواء خالد البنا – نائب مدير الأمن – ، كيف ذلك ؟!

ما كل هذا ؟! لكن كيف يُعقل ذلك ؟! وقف الجميع في ذهولٍ وصمتٍ غريبين ، وقطع هذا الصمت صوت محمود الذي قال ومسدسه مصوب ناحية اللواء خالد البنا ، والجميع - باستثناء الدرويش واللواء خالد - رافعون أيديهم :

-إزاي ؟! أنت يا فندم ؟! خسارة وا حسرتاه على بلدٍ حاكمها المال والفساد ، وكان الأول سبباً للثاني .

وهنا جاء صوت طلق ناري ، ورجال تجري نحوهم ، ويقولون :

-كله يرمي سلاحه .

- مش أنت الوحيد اللي بتفكر يا حضرة الظابط .

قالها الدرويش بثقةٍ حين أحس بقدوم رجاله الذين جعلهم يختبئون بعيداً ، وقبيل انتهاء الدرويش من قول ما قاله ، تعالى وتقارب صوت إطلاق النيران ، فَفَّرَ الجميع يختبئون ، وانتشرتْ طلقات النيران في كل جانب حتى بين رجال الدرويش واللواء خالد أخذوا يطلقون على بعضهم البعض ، وعلى إبراهيم وأعوانه .

الأمور تتعقد أكثر وأكثر ، وبعد كل هذا الجهد وهذه اللحظة التي لن تتكرَّرَ لن يقبض على الدرويش !! هذا ما كان يجول في خاطر إبراهيم ، وقطع حبل أفكاره صوت الدرويش وهو يقول :

- يا خالد بيه إحنا مصلحتنا واحدة ، ليه نعادي بعض .

- رجالتك هما اللي ضربوا النار على رجالتي الأول يا درويش .

- مكناش نعرف إنهم تبعك يا خالد بيه .
- طيب ، يلا نحاصرهم ونخلص عليهم .
- صح كدا يا باشا .
ووجه الدرويش كلامه لرجاله ، وكذلك خالد البنا ، وكانتْ جملتهم واحدة ألَا وهي :
- يا رجالة ، خلصوا عليهم .

وأشاروا إلى إبراهيم وأصدقائه ، وهنا كغريزةٍ بشريةٍ دقَّ ناقوس الخطر لديهم ، فأمَّا إبراهيم فأخذ نَفَسَاً عميقاً قبل أن يمسك مسدسه بقبضته الأخرى ، ويعتدل ويصوِّب على الرجال ، فيطلق النار فيصيب أحدهم في رأسه ليسقط جثةً هامدةً ، وبين تَشَتُّتِ الرجال أطلق على آخر في قدمه ، وهنا دقَّ الأمل صدور الآخرين فأخذوا يطلقون النار ورجال الدرويش وخالد يتساقطون ، فمنهم من يصاب ومنهم من يموت ، وبنما إطلاق النار ما زال مشتعلاً بين الطرفين ، إذْ برصاصةٍ تصيب ذراع عبد الرحمن فيصرخ ، فيهتز أصدقائه فلقد سقط أحدهم ، وما لبثوا حتى أصيب مصطفى برصاصةٍ بساقه فتعقدتْ الأمور أكثر وأكثر ، عندما أحاط رجال الدرويش وخالد البنا إبراهيم والباقين ، واضطروا للاستسلام ، وانتهتْ مع ذلك كل الآمال والطموحات بل تكاد تكون قد انتهتْ حياتهم ، عندما وقفوا بين يدي الدرويش وخالد البنا ، وضحك الأخير ضحكة تدل على النصر ، أمَّا الباقون

فمنهم من كان عابسَ الوجه ، ومنهم من كان حزيناً بائساً ، وقال خالد :

- نهايتكم هتبقى هنا وعلى ايدي ، بس أنا مش عارف كمية الغباء دي جبتها منين يا حضرة الظابط ، إزاي فكرت إنك بكام واحد هتوقفوا عملية زي دي !! هه غباء .

يقف إبراهيم صامتاً ، غاضباً لما يحدث وصحة ما يقول ، وأحس للمرة الأولى أنَّه ظَلَمَ من معه ، فما ذنب شابين في ريعان شبابهما كعبد الرحمن ومصطفى أن يموتا بسببه ، فقال وهو مطأطأ الرأس :

- عندك حق ، أنا كمان ظلمت الناس دي معايا .

وهنا نطق عبد الرحمن قائلاً :

- لا ، لم تظلمنا ، إن كان الموت فداءَ الحقِ والوطنِ ، فسحقاً للدنيا ولأجسادنا ، وأهلاً بالموت وسهلاً به ، فالموت دفاعاً عن الحق ، أجمل بكثير من عيشٍ مع الباطل ، عشنا أحراراً ، وسنموت أبطالاً بفخرٍ وشهادةٍ .

قالها فابتسم إبراهيم ، وأغمض عينيه استعداداً للموت عندما أشعل خالد البنا مسدسه ، وقال الأخير :

- أديكوا هتموتوا زي ما أنتو عاوزين .

وقبل إطلاق النار إذْ بعشرات العساكر من الشرطة يحيطون بالجميع ، وفي مقدمتهم اللواء عطية السيد بنفسه ويقول :

- ثابت يا سيادة اللواء ، المكان كله محاصر .
وإذْ بالعديد من سيارات الشرطة تحيط بهم ، وهنا ألقى خالد البنا سلاحه وكذلك الدرويش وباقي الرجال ، أمَّا إبراهيم وأصدقائه ففرحوا وتنفسوا الصعداء ، وعمتْ الفرحة صدورهم جميعاً .

* * *

قضى أدهم ليله كله ساهراً يفكر بما حدث نهاراً ، وأخذ يفكر كثيراً وكثيراً ويقول في داخله :
- هي دي البنت اللي أنا قعدت عمري أحلم بيها ، وبحلم أقضي عمري معاها .
ويعود بسرعة يرد على نفسه :
- أيوة دي شهد يا أدهم يعني حب عمرك الأول والأخير ، ولازم تبقى معاها لغاية آخر لحظة .
وظلَّ طوال الليل يحدِّثُ نفسه تارةً ويعم الصمتُّ بداخله تارةً أخرى ، أمَّا من الخارج فلقد ظلَّ صامتاً حتى الصباح ، وفكر كثيراً لدرجة انَّه أمسك هاتفه ؛ ليهاتفها ويطمئن عليها ، ويأنس بصوتها لكن الوقت كان متأخراً ، فآثر أن يؤجل هذا للصباح حيث يكون قد اتخذ قراره .
أمَّا على الجانب الآخر فكانتْ شهد هي الأخرى ساهرةً طوال الليل لكنَّها تبكي مادام الليل حيَّاً، وقرَّرَتْ أن تبتعد عن أدهم

نهائياً ، فهي تدري أنَّها ببقائها معه تظلمه ، ولكن ماذا تفعل وقلبها معلَّقٌ به إلى أقصى الدرجات ؟! لكنَّها هذه المرة ستقسو على قلبها وكان هذا قرارها ، وظلَّتْ المسكينة طوال الليل تبكي دون أنْ يجفَ دمعها المنهمر معبراً عن حزنٍ مكتومٍ بلْ لم يعدْ مكتوماً .

في صباح اليوم التالي هاتفَ أدهم شهداً لكنَّها لم تجب ولو مرةً واحدةً ، فازداد قلق أدهم فقرَّرَ أنْ يذهبَ إلى بيتها ؛ ليطمئن عليها بنفسه وجهاً لوجه ، وبالفعل ذهب أدهم إلى المنزل وكان أبوه وأمها موجودين بالمنزل ، فسعد أدهم كثيراً ، وجلسا معهما وقال لهما بعد أن رحبا به ترحيباً حاراً ، وردَّ هو الترحيب بما يناسبه من عباراتٍ ومشاعرَ حارةٍ :

- أنا يا عمي عاوز فرحي أنا وشهد يبقى في أسرع وقت ممكن .

* * *

منذ آخر مرة التقى فيها أدهم عبد الرحمن ومصطفى عندما بلغهما بأنَّه سيتزوج شهد وطوال تلك الفترة لم يلتقي أدهم بصديقيه ، فهو مشغول بشهدٍ وما أصابها ، وهما مشغولان بما يقومان به مع الضابط إبراهيم خيري وأصدقائه حتى الآن ، وكانوا يهاتفون بعضهم البعض من حينٍ لآخر ، لكن الأمر لم يتخطَّ ذلك .

* * *

في مديرية الأمن بعد أنْ أُلْقِيَ القبض على الدرويش ، التقى الضابط إبراهيم خيري مع اللواء عطية السيد ومعهما الضباط خليل وعزيز وشكري ، وقال اللواء عطية والابتسامة تعلو شفتيه والسرور يغمر قلبه وجوانحه :

- أنا كنت عارف إنك هتعمل كدا ، وكنت واثق إنك هتنجح ، وعلشان كدا أنا بعتلك خليل وهو اللي بعتلي رسالة أول ما وصلتوا لمكان التسليم ؛ علشان أجيلكم بالقوة .

وهنا التف إبراهيم ناحية خليل الذي سرعان ما ابتسم ورفع رأسه ناظراً لأعلى ، وقال إبراهيم وهو يبتسم :

- أنت يا خليل !! ماشي .. حسابك معايا بعدين .

- قول لسيادة اللوا هو اللي قالي ، وأنا هجيبه يدافع عني .

وهنا انتشر الضحك بينهم جميعاً .

أمَّا عبد الرحمن ومصطفى فيرقدان في المشفى يتلقيان علاجهما ، وحالتهما في تحسُّنٍ ملحوظٍ ، لكنَّهما سيضطران إلى البقاء فيها لفترة قد تطول أو تقصر تبعاً لحالتهما ، وساد السرور الجميع من أصيب ومن لم يُصبْ ، من شارك ومن لم يشاركْ عدا شخص واحد لم يسعد بذلك ، إنَّه الضابط حسن مهران .

* * *

بينما يضحك اللواء عطية وإبراهيم والباقون ، دخل الضابط حسن مهران ويبدو على وجهه السرور المصطنع ، وقال مختلقاً الابتسام :

- صحيح أنتو قبضتوا على الدرويش ؟!

فابتسم إبراهيم في خبثٍ وأومأ برأسه ، وقال :

-أيوة .

وقبل أن يكمل بدتْ علامات الفزع على وجهه وازدرد لعابه بصعوبةٍ ، محاولاً رسم ابتسامة على شفتيه لكنَّه فشل في رسم مصداقيتها على وجهه ، وبنفس الابتسامة الخبيثة قال اللواء عطية السيد :

- وعارف الزبون اللي كان بيشتري منه .. هو اللواء خالد البنا .

وهنا تجمَّعَتْ كل علامات الفزع وعبارات الدهشة لتتجمع على وجه حسن مهران ، وبدا وكأنَّ أبواب الفرح قد أعلنتْ غلق أبوابها أمامه ، واستدار ليغادر حجرة مكتب اللواء عطية حين أوقفه الأخير قائلاً :

- حسن ؟!

فازدرد الأخير لعابه ووقف مكانه ثابتاً ، إضافةً إلى كمية الفزع التي انتابته إثر هذا النداء ، فردَّ :

- نعم يا فندم .
- فيه حاجة ولا ايه ؟!
- حاجة زي إيه ؟! أقصد لا لا مفيش حاجة يا فندم .
وهنا تحدَّث إبراهيم بثقةٍ قائلاً :
- حضرة الظابط ، أنت متهم بإنك بتاجر في المخدرات مع الدرويش ، وبتساعده في تهريب البضاعة ، وبتلقي الرشاوي .
صُدم الضابط حسن مهران ولا يعرف ماذا يقول غير أنَّه ثار ، وأخذ يعترض ويتذمَّرُ وقال :
- أنا مسمحلكش ، أنت حتى مش معاك دليل .
- لا لا .. الأدلة كتير يا حضرة الظابط .
- طيب ما تقولي حاجة من الحاجات اللي ضدي ، بس خلي بالك لو مقدرتش تثبت عليا حاجة ، أنا هوديك في ستين داهية.
- لا متقلقش أنا متأكد ، وهجبلك الموضوع من أوله .
وازدرد لعابه ثم استطرد :
- أولاً : عندي اتنين شهود شافوك وأنت بتاخد رشوة من الدرويش علشان تسهله تهريب البضاعة .
– أكيد أنت اللي جايبهم علشان تقولهم يقولوا كدا .
- وساعت لما دخلت عليك المكتب وكنت بتكلم الدرويش ، ولما دخلت عليك قفلت السكة علطول .
- لا أنا كنت بكلم واحد صاحبي ، مش الدرويش ومتقدرش تقول

غير كدا ، أنت بتتبلى عليا !
- أنا كنت عارف إنك هتقول كدا علشان كدا روحت شركة الاتصالات ، وجبت الرقم اللي كلمته واللي طلع الدرويش ، ولأن التليفونات في الوقت دا متراقبة ، أنا طالبت بالتسجيل بتاع المكالمة ، وهجيبه بكرة .
وهنا صمت الضابط حسن مهران ولم يتفوَّه ببنت كلمة ، فابتسم إبراهيم واللواء عطية واستطرد الأول :
- وكمان لما قلنا نسيب الموبيلات قبل المهمة ، التليفونات كلها اتفحصت وتليفونك فيه البرنامج اللي بيسجل المكالمات تلقائيا ، فجبلنا تسجيلات مكالماتك مع الدرويش ، وطبعاً سجل المكالمات اللي حضرتك نسيت تمسحه ، وكل دا اتاخد من على موبيلك .
وهنا لم يتمالك حسن مهران نفسه وكاد يسقط على الأرض لولا أسندته أريكةٌ ترقد بجواره ، فاستطرد إبراهيم :
-دا غير الرجالة اللي أنا مجندها عند الدرويش ، اللي شافوك أكتر من مرة وانت بتزوره وتقبض منه الرشوة ، وغير الدرويش لما يعترف عليك .
أخذ إبراهيم نفساً عميقاً قبل أن يستطرد :
- أنت انتهيت يا حضرة الظابط ، وأتمنى تساعدنا وتوفر علينا المجهود وتقولنا على كل بلاوي الدرويش .
احمرَّ وجه حسن مهران ، وتسارعتْ نبضات قلبه حتى

خُيِّلَ له أنه سيموت فوراً ، وعندها نادى اللواء عطية على أحد العساكر الذي سرعان ما دخل ، وقال الأول :
- خد منه سلاحه ، ودخله الحجز يا عسكري .
- تمام يا فندم .
قالها العسكري بعدما أدى التحية العسكرية ونفذ ما أُمر به ، وبعدها انطلق إبراهيم وزملائه إلى المشفى حيث مصطفى وعبد الرحمن ، ولقد تحسَّنتْ حالتهما وأصروا على الذهاب للمنزل . قابلا إبراهيم وأصدقائه وهناك كان الحديث بينهما وبين إبراهيم ، وقال الأخير :
- إيه الأخبار يا رجالة دلوقتي ؟!
فردَّ مصطفى وعبد الرحمن في صوتٍ واحدٍ :
- الحمد لله تمام .
- إحنا بالنيابة عن الشرطة المصرية كلها بنشكركم وبنقدر كل اللي أنتو عملتوه علشان البلد ، وعلشان كدا كنوع من التعبير عن الشكر ، كل علاجكم على نفقة الدولة طبعاً ، وكمان فيه مكافئة ليكم كنوع من التعبير عن الشكر .
فردَّ مصطفى :
- لا يا فندم ، إحنا مقدرين كل دا وإحنا معملناش حاجة يا فندم .
فقال عبد الرحمن :

- لم نفعلْ سوى ما توجَّبَ علينا فعله ، ببساطة لم نفعل سوى الواجب .
- شكراً بجد ليكم ، أنتم مثال للمواطن الشريف المحترم اللي بيحب بلده .. فعلاً نماذج مشرفة .
- شكراً لحضرتك يا فندم .
قالها مصطفى والبهجة تملأ صدره ، فأردف إبراهيم :
- دي أقل حاجة البلد تكافئكم بيها و إحنا هنمرّ عليكم إن شاء الله من يوم للتاني علشان نطمن عليكم .
- لا تتعبوا أنفسكم فنحن على وشك الذهاب للمنزل ، وسيكون ذلك غداً إن شاء الله ؛ لأنَّ الطبيبَ أصرَّ على إبقائنا اليوم .
- اسمعوا كلام الدكتور وربنا يقومكم بالسلامة ، نستأذنكم إحنا دلوقتي .
- سلَّمَ الله أجسادكم من الأذى ، في رعاية الله .

* * *

نظرا الأخيران إلى بعضهما البعض في دهشةٍ ، فلم يكونا توقعا ما سمعاه ، بل يكادون أن يكونوا توقعوا العكس تماماً ، وقال الأب متمالكاً نفسه من شدة الدهشة :
- هي شهد ما قلتلكش حاجة ؟!
فقاطعه أدهم :

- أنا عارف كل حاجة ، وكمان عارف بقول إيه ، أنا مش قادر أتخيل إني أكون عايش وشهد مش معايا ، إيه رأي حضرتك في الخميس اللي جاي يكون كتب الكتاب والدخلة ؟!
ساد الصمتُّ قليلاً قبل أن يقول والد شهد :
- بس يا ابني أنا كدا بظلمك ، وكمان ممكن أكون هظلمها .
- لا يا عمي أنا عاوزها ، أما عنها هي فمتقلقش أنا عمري ما هظلمها ، علاجها ورعايتها أمنية حياتي ، ومحدش هيخاف عليها أكتر مني ، أنا هسفرها برة مصر علشان تتعالج ، لو سمحت يا عمي مترفضش أرجوك .
نظر والد شهد إلى والدتها وقد انتابته الحيرة من أمرين : أولهما كيف لعاقلٍ أن يطلب ما يطلب هذا الفتى ؟! أمَّا الثاني فهو هل يقبل أمْ يرفض ؟! وما رأي شهد ؟! وما قرارها ؟! فما كان منه إلَّا أنْ قالَ :
- أنت فاتحت شهد في الموضوع دا ؟!
-أيوة
- وكان إيه رأيها في الموضوع ؟!
- مقلتش للأسف ، عيطت ومشيت ومن ساعتها مبتردش عليا .
ازدرد لعابه ، وأردف :
- و خايف تكون مش عاوزة وعشمان تكلموها وإن شاء الله هتكون موافقة ، ولو طلعت مش موافقة أنتم تساعدوني إنكم

تخلوها توافق .
تنفَّسَ والد شهد الصعداء ، وما كان منه سوى أنه قال :
- ربنا يسهل يا ابني ، أنت إنسان محترم وربنا يوفقك ويشفيها إن شاء الله ، بس ... .
- أمين يا رب يا عمي ، ومن غير بس .. معلش يا عمي عاوز أعرف الرد دلوقتي .
نظرا والد شهد ووالدتها إلى بعضهما البعض ، فأومأ الأول برأسه فقامتْ أم شهد متجهةً إلى حجرة شهد ؛ لتعرف رأيها وتخبرها بما قاله أدهم ، فإذْ بها تجدها شاحبة الملامح ، مرهقةً أكثر من ذي قبل ، فكادتْ دمعتها أنْ تنهمرَ لكنَّها تماسكتْ ، وابتسمتْ وقالتْ :
- شهد حبيبتي أنتي صاحية ؟!
اعتدلتْ شهد جالسةً ببطءٍ ، وحاولت اختلاق ابتسامةٍ على شفتيها قائلةً :
– أيوة يا ماما صاحية ، اتفضلي .
- عاملة ايه يا حبيبتي ؟!
- الحمد لله يا ماما .
- أدهم تحت و... .
- أدهم ؟! وإيه كملي !
- وعاوز يعمل الفرح وكتب الكتاب الخميس الجاي .

- إيه ؟!
وهنا انهمرتْ الدموع على وجنتيها ، واستطردتْ :
- أدهم دا غبي غبي ، عاوز يتجوز واحدة ميتة ، مشيه وقوليله مش موافقة ، مش عاوزاه .
وأجهشتْ في البكاء حتى خُيِّلَ لأمها أنَّها لنْ تكفَّ أبداً عن البكاء ، واحتضنتها الأم وهي تربت على كتفها وظهرها ، محاولةً تهدئة روعها ، وقالت :
- بعد الشر عليكي يا حبيبتي .
وقبَّلتها قبل أن تستطرد :
- وزي ما تحبي بس بصراحة هو صعب عليا أوي ؛ لأنه جاي شاري وعاوزك وهيعمل علشانك أي حاجة ، وفعلاً بيحبك .
- وأنا بحبه قوي يا ماما ، بس مش عاوزة أظلمه .
- بس أدام هو عاوزك بجد روحيله يمكن ربنا يجعل الشفا على ايديه ، وبراحتك برضو القرار ليكي .
جففتْ شهد دموعها وأخذتْ تفكِّر ؛ لتتخذ قرارها المنتظر من قبل الجميع ، وساد الصمتُّ قليلاً ، ومن ثم نظرتْ إلى عيني أمِّها ثم قالتْ :
- ماشي يا ماما أنا موافقة ، بس تقولوله يسامحني لو حس إنه اتظلم .
ابتسمتْ الأم وكادتْ أن يزغرد قلبها من شدة الفرحة ، وقالتْ :

- لا لا أنتي بقى اللي تقوليله ، أنا مليش دعوة .
ابتسمتْ شهد هي الأخرى ، وأحسَّتْ بالخجل فاستطردت أمها :
- يلا غيري هدومك وانزلي قابلي خطيبك ؛ علشان هو قلقان عليكي ، وكمان اتصل بيكي الصبح وأنتي مردتيش .
فأومأتْ شهد برأسها وانطلقتْ الأم إلى حيث يجلس أدهم ، وأخبرته برأي شهد فاستحال قلقه سروراً بالغاً ، وانتشرتْ فرحته لتعمَّ كل جوانحه ، بل اندثرت لتصل لوالد شهد الذي سُرَّ كثيراً بما سمع ، فهو سيفرح بابنته الأولى والوحيدة .
ونزلتْ شهد بعد أن بدَّلتْ ملابسها لتجلس مع أدهم الذي لم يبدي أي ملمحٍ لاستيائه من أي شيء ، واقتصر حديثه مع شهد على الاطمئنان عليها ، وشبه احتفاءٍ معها بفرحتهما بما لذَّ من الكلام وطاب ، حتى غادر منزلهما والجميع سعداء حتى كادت السعادة أن تشمل جدران المنزل ، وذهب أدهم ليبلغ صديقيه بهذا النبأ السار ؛ فيشاركانه ويزيدان فرحته .
ذهب أدهم إلى صديقه ودقَّ جرس الباب ، وعندما فُتِحَ الباب إذْ به يفاجئ بعبدالرحمن يفتح الباب وساعده مصاب لكنَّه تبسَّمَ لدى رؤيته ، لكنَّ الآخر لم يقوَ على التفوُّهِ من شدة المفاجأة ، وما كان منه سوى أن قال :
- إيه دا يا عبده ماله دراعك ؟! وفين مصطفى ؟!
- لا بأس .. مجرد جرح صغير ، ادخل وستعرف كل شيء .

دخل أدهم إلى الداخل ؛ ليُصْعَقَ مرةً أخرى حين يرى مصطفى ، وإذْ به يقول وقد ارتفع صوته :

- إيه دا !! أنت كمان !! أنت رجلك وهو إيده ، هو فيه إيه ؟! إيه اللي حصل ؟! أنتو اتخنقتوا مع حد ولا ايه ؟!

- لا لا ، اقعد بس وهنحكيلك على كل حاجة .

قالها مصطفى بعد أنْ أشارَ لأدهم بالجلوس ، وازدرد لعابه وأردف :

- الحكاية يا سيدي بدأتْ ، لما الظابط إبراهيم اتصل بينا وقالنا تعالوا قابلوني في كافيه معين وهناك قالنا ... .

وقصَّ له مصطفى كل ما حدث معهم منذ أيام مع الضابط إبراهيم والدرويش ، وتبادلا السرد هو وعبد الرحمن وأدهم لم يقاطعهما ولو مرةً واحدةً طوالَ وقتِ سردهما ، فلقد تقمَّص دور المستمع طيلةَ الوقت ، ولم يبدِ سوى بعض الانفعالات وردود الأفعال والتي اقتصرت على (الاندهاش ، التعجب ، الحزن .....) ، وبعد أنْ أنهيا حديثهما عن مهمتهما ، وواساهم أدهم على إصابتهما ، وهنأهما كثيراً على نجاحهما في مهمتهما ، قال :

- يا شباب ، أنا .. أنا فرحي الخميس الجاي .

سرعان ما انفجرت البهجة - في نفوس ووجوه مصطفى وعبد الرحمن - فَوْرَ قوله هذا النبأ ، فقال مصطفى :

- ألف ألف مليون مبروك يا حب ، ربنا يتمملك على خير .

- مباركٌ لكَ يا صديقي ، ورزقك الله بذريةٍ صالحةٍ .
- الله يبارك فيكم ، عقبالكم كدا إن شاء الله .
وازدرد لعابه ثم استطرد :
- بس فيه حاجة .. أنا عاوز أفضفضلكم في موضوع كدا .
فقالا مصطفى وعبد الرحمن في صوتٍ واحدٍ :
- تفضَّل .
- شهد .. مريضة بالسرطان .
وهنا ارتسمت علامات الفزع على وجوههم ، ولم يتمالكْ مصطفى لسانه وقال :
- إيه ؟! أنت بتتكلم جدّ ولا بتهزر ؟!
- بتكلم بجدّ .
فقال عبد الرحمن وهو شبه مصعوقٌ :
- صديقي الغالي ... .
- نعم يا عبده ، اتفضل .
- لا تدع نور الحب يعميك ، ولا تدع نار الحب تحرق حياتك كلها ، عش بحبك تحيى سعيداً ، وفكِّرْ بعقلك تُكفى شروره ، فالحياةُ ليست جميلةً كما نظنُّها ، ولم تعرف بعد كيف تكون مطيعةً لمن أحب !!
وازدرد عبد الرحمن لعابه واستطرد :
- لا تتعجلْ بأخذ قرارٍ تندم عليه طوال حياتك ، كنْ حليماً وراجع

نفسك ؛ كي لا تندم ، اجعل عقلك هو الحاكم والمتحكِّم ، متسلِّحاً بجزءٍ من العاطفة ، وعندما يحين يوم الندم لن تكون أنت من يندم .

أومأ أدهم برأسه ، وساد الصمتُّ قليلاً قبل أن يقول الأخير :

- عندك حق بس أنا أخدت القرار ، وكمان قولتلهم ومش هينفع أتراجع لأسباب كتير .

- وماذا عن والديك ؟!

- قدرت أقنعهم بالعافية بس بصراحة من جواهم مش مبسوطين بس هم وافقوا علشاني ؛ ولأنهم عارفين أنا بحبها قد إيه .

- ولِمَ لا تستطيع التراجع ؟!

نظر إليه أدهم مطوَّلاً كأنَّه غارقٌ في التفكير ، أو يتأمل شيئاً ما في مخيلته ، من ثُمَّ قال :

- لأني كدا ببساطة يبقى بحكم عليها بالموت ؛ لأني كدا هبقى دمرتها نفسياً وما أدراك ما الدمار النفسي !! وكمان مرضها بيتطور بسرعة في حالة سوء الحالة النفسية ، كمان أنا بحبها جداً جداً ولو هتعيش لحظة واحدة أتمناها تعيشها معايا ، وحتى لو هتموت تموت في حضني .

واغرورقتْ عيناه بالدموع لكنْ لسانه لم يتوقَّفْ ، وأردف :

- وبعد كل دا عاوزني أسيبها ومكملش معاها .. لا يا عبده !

وهنا احتضنه صديقاه في دفءٍ ليخففوا عنه حزنه ؛ فهو مقبلٌ

على زواجٍ وما له أن يحزن ، فمن المفترض ألَّا يحمِّل قلبه الآن من المشاعر سوى الحب والسرور ، وارتسمت البسمة على وجوههم ، فقال مصطفى ممازحاً إياهم وخاصةً أدهم :

- بس سيبك أنت يا عبده .. خلاص أدهم هيتجوز و.. هه هنشوف بقى ابنه الصغير .

و ضحك الجميع من قلوبهم ، وجمع الحزن والضيق أغراضهما ليتركا قلوبهم في هذه اللحظة .

* * *

تقف شهد أمام المرآة صباح يوم الخميس تتأمل ملامحها الشاحبة ، ووجهها الذي أبداً لم يعد كما كان ، أصبح وجهاً غريباً رسمه السقم ، وفجأة ابتسمتْ ابتسامةً خفيَّةً على استحياء حين وقعت عيناها على انعكاس إحدى صورها المعلقة خلفها على الحائط ، صورةٌ من أيام قبل إصابتها بالمرض ، وتذكَّرتْ الأيام الأولى في علاقتها مع أدهم .

فكأنَّ البسمةَ انبعثتْ من أعماق قلبها حين تذكرته ، لكنَّها استفاقت حين أنزلت عيونها عن الصورة ؛ لترى هيئتها الحالية وما تعانيه من مأساة ، فاستحالت بهجتها حزناً مكتوماً لكنَّه سرعان ما استحال بارزاً حينما تسرَّب إلى ذهنها أنَّ فرحها اليوم مع الشخص الوحيد الذي أحبَّها وأحبَّته ، وتمنتْ أن تكون

له ويكون لها ، وها هو الله يشاء لهما أن يجتمعا فأجهشتْ شهد بالبكاء ، وقطع بكائها دخول أمها المفاجئ بابتسامتها العذبة ، فتماسكتْ شهد ومنعتْ دموعها من الانهمار ، لكنْ حين بدأت أمها في التحدث لم تستطع أكثر ، فكأنَّ أعينها سماءٌ وأحزانها العاصفة فما كان منها سوى انهمار نوبات السيل من الدموع الحارة المعتَّقة بالألم والحزن ، فاحتضنتها أمها وقالت الأخيرة :

- أنتي بتعيطي يا شهد ؟! دا النهاردة فرحك يا حبيبتي ، يعني لازم تبقي فرحانة ومبسوطة .

وتساقطتْ عبراتُ الأم كما اعتادتْ كل الأمهات المصرية ، بلْ وتكاد تكون الأمهات العربية قاطبةً ، عجيبٌ طبعنا نحن العرب وثقافتنا الشرقية ، كأنَّنا نخشى التعبير عن مشاعرنا ، نخشى الضعف ونستضعف أنفسنا فنرفض البوح بحبنا والتعبير عن مشاعرنا الطيبة لأولادنا وأحبابنا ومن نحب ؛ خشيةً أن يفهموا هذا البوْح أنَّه ضعفٌ ، مع أنَّ هذا ما يُنشئ في نفس العديد من الأبناء أنَّ آبائهم لا يحبونهم ، وفي نفس بعض الإخوة أنَّ إخوانهم لا يحبونهم فيُخلق ضعفنا وتشتتنا .

الآنَ يذهب أدهم وصديقيه ، وعائلته ، وأحبائه ، وأصدقاء العائلة وكل من همَّ أن يحضر حفل الزفاف ؛ ليأتوا بشهد من صالون التبرج (الكوافير) رغم رفضها الشديد لفكرة التبرج يوم زفافها ، لكن ضغط أمها و أدهم أجبراها على الاستسلام لرغبتهما

، وهناك بدتْ شهد في أجمل صورةٍ يمكن أن تكون فيها عروسٌ يومَ زفافها ، أمَّا أصدقاء العائلة - لكلٍّ منهما - فقد زفونهما زفة سيتحدث الناس عنها كثيراً ، وحانَ الآنُ وقتَ الذهابِ إلى القاعة .
وفي القاعة بل ومنذ ذهبتْ شهد إلى صالون التبرج (الكوافير) ، والسعادة تغمرها ونسيت ، أو بالأحرى تناستْ المرض والألم ، أمَّا كمّ السعادة المنبعثة من وجه شهد وهي جالسة بجوار أدهم على كرسيهما فتعجز الكلمات عن وصفه ، وظلَّ الجميع سعداء يرقصون وكان مصطفى أحد هؤلاء ، أمَّا عبد الرحمن فكان سعيد القلب ؛ لفرحة صديقه العزيز ، حزيناً أو مستاءاً مما يسمع من موسيقى صاخبة ، وظلَّ الوضع هكذا حتى جاء دور شهد و أدهم ليرقصا كأي عروسين في ليلة زفافهما .
واجتمع الناس على شكل حلقةٍ كبيرةٍ وفي مركزها يقف أدهم وشهد ، حيث وضع أدهم يده حول جزعها أمَّا هي فوضعت يديها حول رقبته بعد أن أحاطت رأسه بحجابها الأبيض الشفاف في مشهدٍ رومانسيٍّ لا يُنْسَى ، وحينَ استهلَّا في الرقص ، أخذتْ شهد تقول بعد أن هاجرتْ البهجة ملامحها بغتةً :
- أدهم أنا عاوزاك تسامحني إني مكنتش الإنسانة اللي تسعدك ، كان نفسي أكون بس .
وشرعتْ في البكاء ، واستطردت :
- بس ربنا ما أردش لينا ، واضح إننا مش مكتوب في علاقتنا غير

الألم والجرح والفراق ، أنا بحبك .. بحبك يا أدهم .
قالتها والدموع تنهمر على وجنتيها ، وإذْ بجسدها يُلقى بين ذراعي أدهم فيحتضنها الأخير في رفقٍ ، ويربت على كتفيها ؛ ليبعث في نفسها الطمأنينة ، ويبعد عنها القلق بقوله أنَّها الإنسانة التي تمناها ، ومجرد وجودها معه كافٍ لبعث وإقامة أفواج من السعادة والسرور إلى قلبه ، أمَّا الجميع فابتسموا معتقدين أنَّ شهد ألقت بجسدها في حضنه سعياً للحنين ، وحبّاً ، واندماجاً فيما يحدث ، وما علموا أنَّ الأخيرة فارقتْ الحياة يوم زفافها ، بين ذراعي حبيبها وزوجها وأمام أبيها وأمها ، وانتاب أدهم القلق عندما تراخى جسدها بين يديه ، فخلع حجابها من حول رأسه ، وأخذ يصرخ فيها وهو يضرب على خدها برفق ويقول :
-شهد .. شهد فوقي يا شهد ، حد يشوفلنا دكتور بسرعة .
فساد الاضطراب والقلق بين الناس ، فمنهم من اقترب أكثر محاولاً المساعدة في أيِّ شيءٍ ، ومنهم من اكتفى بالاندهاش والحزن والتحدُّثِ مع من يجاوره ، حتى خرج من الناس رجل كبير السن ، ويبدو أنَّه من أصدقاء العائلة فتقدَّم نحوها ، وبمجرد أنْ أمسك يدها جحظت عيناه ، وارتسمت على وجهه علامات الفزع ، وقال بقلبٍ مكسورٍ حزينٍ :
- البقاء لله .. البقيةٍ في حياتكم .
ما إن قالها الطبيب حتى ارتسم الحزن والدهشة على وجوه

الجميع ، أمَّا أم شهد فمن شدة الحزن والدهشة أخذت تجري مقبلةً نحوها في فزعٍ وهلعٍ حتى تعثرت أثناء سيرها قبيل وصولها ، فتسقط فاقدةً الوعي من شدة الصدمة ، مصابةً بصدمةٍ عصبيةٍ حادةٍ كادتْ أن تودِي بحياتها ، أمَّا أدهم فصرخ صرخةً مدوِّيةً ارتجتْ لها كل القلوب ، وأخذ يندب ويصرخ قائلاً والدموع تسبق صراخه :

- لاااا .. لا يا شهد ، متسبنيش يا شهد لا .. لا ، ليه .. ليه كدا يا رب ليه !!

فأحاط به صديقاه يحتضناه ويحاولان التخفيف عنه حتى جاء أحد أفراد عائلة شهد ، وغطى جسد شهد بقطعةٍ كبيرةٍ من القماش ، فقام مصطفى وعبد الرحمن بإبعادِ أدهم بعيداً بصعوبةٍ بالغةٍ وهو يقاوم ويصرخ :

- لااا .. أوعوا ، أنا مش هسيب شهد ، لو هتموت هموت معاها ، أوعواا !!

ظلَّ يصرخ ويصرخ وهو بين أيديهم حتى سقط فاقداً الوعي ، واستحالت أجمل الفرحات وأفضلها على الإطلاق إلى أغرب وأعجب الموتات في أغرب الأوقات ، فسبحان الله رب الأرض والسموات ، وعجبا لهذه الحياة تعطي حتى يخيل أن العطاء لن ينتهي ، وتسلب كأنَّما لن ولم تعطِ أو تأخذ .. يموت من يستحق الحياة ويحيى من يستحق الموت ، فالموت وإن تأخر لا يضلُّ

سبيلَه أبداً .

* * *

ماتتْ شهد وما أقسى هذه الميتة ، أمَّا أمها فظلتْ في المشفى لعشرة أيام في غيبوبتها لكنَّها استفاقت من الغيبوبة مؤخراً ، لكن الحزن لا زال ولا يزال يملأ قلبها المنكسر إثر موت ابنتها ، وأيُّ موتٍ ؟! ماتت يوم زفافها .. اليوم الذي تنتظره كل أمٍّ قبل كل فتاةٍ ، وأمَّا أدهم فكانت حالته فعلاً يُرْثَى لها ، مضى قرابة الثلاثة أَشهر وهو في غيبوبته ، يرقد الآنَ حيَّاً ميتاً ، فقلبه ينبض والمؤشرات على الأجهزة تشير إلى أنَّه حيٌّ ، أما معنوياً وروحياً (على صعيد المشاعر) فلقد كان ميتاً فعلاً ، أمَّا صديقاه فطوال الأشهر الثلاثة الماضية لم يتركوا المشفى ، ولم يتذوقا للنوم الهنيِّ طعماً .

وفي أحد الأيام كان يمشي مصطفى وعبد الرحمن في الشارع في طريقهم لشراء أحد الأغراض من محلٍ قريبٍ من المشفى ، وأثناء سيرهم وقبيل وصولهم لآخر الشارع قال مصطفى لعبد الرحمن :

- بقولك ، لحظة واحدة أظبط البنطلون دا علشان مضايقني في المشي معلش .

فأومأ عبد الرحمن برأسه موافقاً ، فدخل مصطفى بين سيارتين واقفتين على جانب الطريق ، ولدى دخوله وإذْ بسيارةٍ تأتي فتقفُ

في مواجهتهما مباشرةً ، بها أناس مقنَّعون فيطلقون الرصاص على عبد الرحمن الذي استقبل جسده ما يزيد عن ثلاث عشرة رصاصة ، وأثناء إطلاق الرصاص كان جسد عبد الرحمن يهتزُّ وينتفضُ بشدةٍ ، كل هذا حدث في ثوانٍ معدوداتٍ ، فما كان من مصطفى سوى أنَّه بات يجري نحوه مسرعاً وكانتْ السيارة قد تحركت ، ولم يكن مكتوبٌ عليها أرقامٌ ، لكن مصطفى ظلَّ يصرخ ويبكي وعبد الرحمن بين ذراعيه ، والتفت الناس حولهم ومصطفى يلفظ ألفاظاً غير مفهومة ، كان هذا آخر ما سمع عبد الرحمن قبل أن تتراخى رأسه فتسقط ناحية اليمين مفارقاً الحياة .

* * *

استيقظ عبد الرحمن من نومه فَزِعاً وهو يلهث ، وأخذ يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويقرأ بعض الآيات من الذكر الحكيم ، ونظر إلى نفسه فوجد نفسه مرتدياً عباءته وعمته ، جالساً في حجرته كما كان يصلي قبل أنْ يغالبَه النوم ، فأدرك أنَّه كان في حلمٍ بغيضٍ لا يتمنى أبداً أنْ يتحقَّقَ ، وما إن أدرك ذلك حتى أراح جسده للوراء سعيداً بأنْ ذلكَ ما هو إلا حُلمٌ ، وحزينًا إن كان هذا ما ستستحيل إليه الأحوال ، وسط شرودٍ ذهنيٍّ عجيبٍ من قبل عبد الرحمن ، وما هي إلَّا لحظات معدودات حتى أذَّنَ المؤذن معلناً عن صلاة الفجر، فقام مهروِلاً

وهو يردِّدُ بعض الأذكار وبعض وآيات من القرآن الكريم ، وقام وتوضأ وصلى إماماً بالناس لكونه أميرِ المؤمنين .
وبعد صلاة الفجر همَّ بالأذكار، ومن ثُمَّ قرَّرَ أن يقرأ في القرآن حتى الصباح كما اعتاد أن يفعل ، لكنَّه ظلَّ حتى بزغ الصبح وشقتْ أشعة الشمس صفاء السماء وزرقتها القاتمة ، منشغلاً بحلمه ، وكيف يمكن أن يستحيل الوضع من حالتنا تلك إلى تلك الحالة المزرية التي رآها في حلمه !!
فقرَّرَ أنْ يخطبَ في الناس يوم الجمعة القادمة ؛ ليحذرهم مما قد نستحيل إليه .

ومنذ يومه إلى يوم الجمعة كان هذا الأمر شاغلَه الشاغلِ ، أمَّا ذهنه فكأنَّه يعمل بشكلٍ تلقائيٍّ في التفكير في الأمر كلما خلا إلى شيطانه أو جلس مع أصدقائه أو زوجته حتى أتى يوم الجمعة ، والآن سيصعد المنبر ويلقي خطبته في الناس وهذه بعضٌ منها :
- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونسترضيه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، إنَّهُ من يهده الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يضللْ فلا هاديَ له ، وأشهد ألَّا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله ، ثُمَّ أمَّا بعدُ :
أحبتي في الله ، خطبة اليوم مختصرةٌ ، مختلفةٌ ، وتتلخص في كلماتٍ ثلاثٍ ألَا وهم :

(عِبرةٌ ، عَبرةٌ ، ونصيحةٌ)

فمنذ أيام رأيتُ حُلْمَاً غريباً ، فلقد ... .

وأخذ يقصُّ عليهم الحلم بشكلٍ مختصرٍ ، مستحضراً أهمَّ النقاط والعبر ، ومن ثُمَّ استطرد :

ولهذا إليكم نصيحتي ، تمسكوا بدينكم تمسكوا بدينكم ، تمسكوا بلغتكم ، تمسكوا بتعاليم الإسلام وأخلاقه ، الخلق الحميد هو علاجُ كلِّ شيءٍ ، فإن فعلتم سلِمْتم من كل سوء وأذى ، وإن لم تفعلوا فإليكم النتيجة .

سنكون أكثر أمم الله تخلُّفاً ، وتفرُّقاً ، وسنكون الأضعف على جميع الأصعدة ، وستنتشر بيننا الألفاظ البعيدة عن قيم الأخلاق والدين .. باختصار الدين والخلق واللغة هم أسلحتنا لمواجهة الدهر وشتى الظروف والأمم ، هذه نصائحي لكم وأتمنى أن نوصي بها أولادنا ونوصي بها أنفسنا ، وأذكركم ونفسي بتقوى الله ولزوم طاعته ..

وأكمل خطبته كأي خطبةٍ معتادةٍ ؛ آملًا أن يتفهَّمَ الناس ما شاء قوله ، وأنْ نهتديَ إلى الصراط المستقيم .

أنهى عبد الرحمن الخطبة أمام الناس بعد أنْ قصَّ عليهم ما حدث وأفضى بجلِّ نصائحه ؛ آملاً أنْ ينتصروا على أنفسهم وعلى شيطانهم ؛ فأعظمُ المعارك هي المعركة مع النفس ومحاولة التغلُّبِ عليها ، وعند ارتكاب الذنوب بلْ أجلِّ الذنوب والحيد

عن الصواب تكون تلك هي المعركة الكبرى ، أمَّا الزمن الذي يستحيل فيه وضعنا إلى هذا الوضع المنحدِر ، ونصبح في تلك الصورة التي رآها عبد الرحمن في حلمه ، يستحق وبجدارةٍ أنْ يسمَى .. (زَمَنُ الأنينِ) .

(تمتْ بحمدِ اللهِ)



01020439639